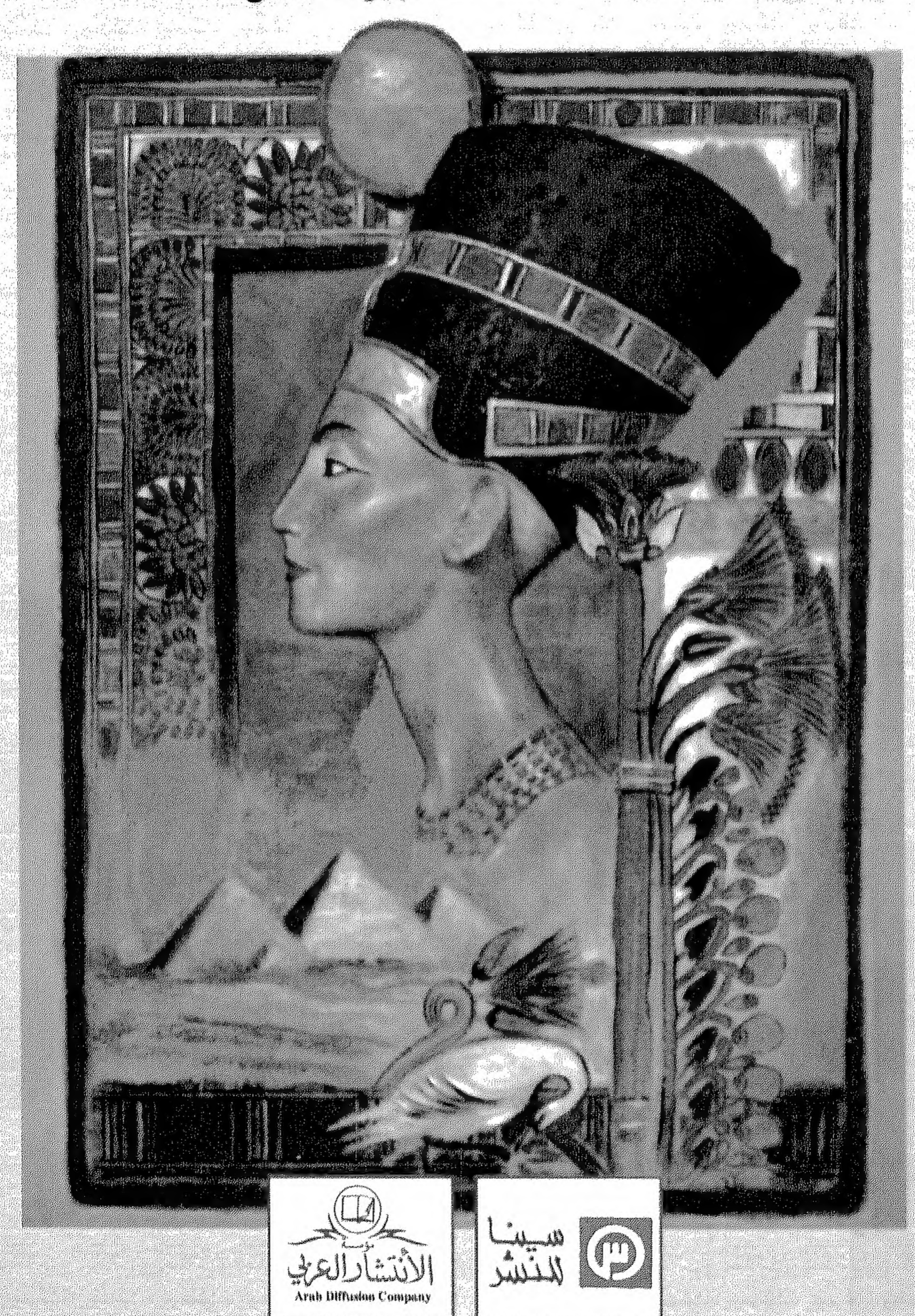
بيتر فرانس

اغتصاب مصر

ترجمة : محمد مستجير مصطفى



اغتصاب مصر



بيتر فرانس

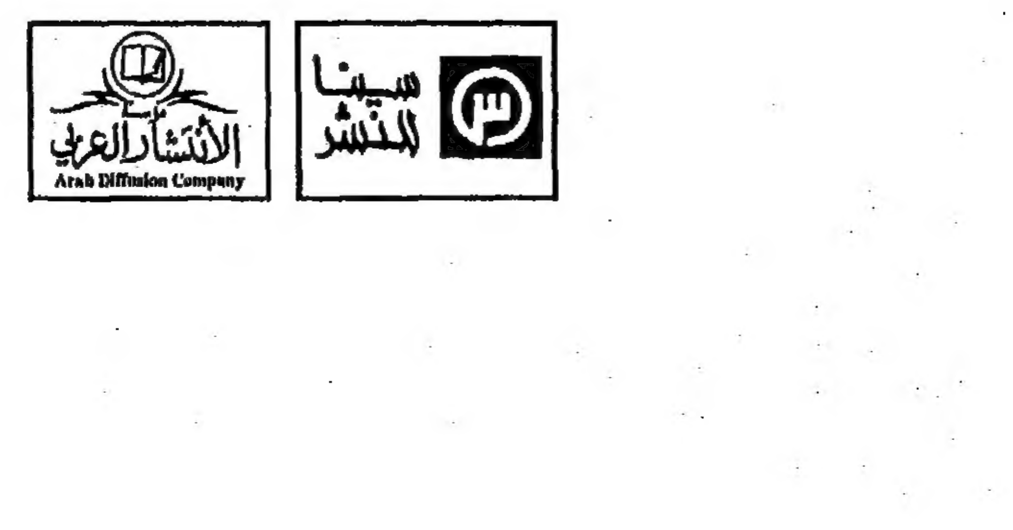
ترجمة

محمد مستجير

اغتصاب مصر

كيف جرّد الأوروبيون مصر من تراثها





اغتصاب مصر

The Rape of Egypt
How the Europeans stripped
Egypt of it's Heritage

BY
Peter France

ترجمة

محمد مستجير





الطبعة الاولى ١٩٩٨

First Published in 1998

المحتويات

مقدمة

أرض قديمة

في ٢١ مارس ١٧٩١ أصدرت محكمة التفتيش في روما حكماً بالإعدام على الكونت أليساندرو دى كاجليوسترو . وخفف الحكم إلى «السجن المؤبد في قلعة يوضع فيها المذنب تحت الحراسة دون أى أمل فى العفو» . على أن الكونت لم يكن خطراً على استقرار الكنيسة العالمية . . . كان مجرد دجال متجول ، يعيش في عصر كانت المنافسة فيه عنيفة في المهنة التى اختارها .

فبعد أن طرد الكونت فى شبابه من دير كان يتدرب فيه لكى يلتحق بالسلك الكهنوتى انطلق فى حياة ماجنة ، وتزوج امرأة جميلة بلا مبادئ هى لورينزا فيليسيانى ، وجاب معها العالم يبيع شراب الحب واكسير الشباب والجمال . ولفترة من الوقت استثمر الكونت أمواله الحرام فى معمل للكيمياء فى شارع وايتكومب بلندن ، إلا أنه تعرض لعدد من الدعاوى القانونية وانتقل إلى سالزبورج . وهنا كان الكاردينال أمير روهان ساذجاً بالقدر المناسب ، فقدم الزوجين صانعى الأعاجيب إلى أرقى الدوائر فى أوربا . واستقبل الكونت وزوجته باحتفاء فى بلاطى لويس السادس عشر وكاترين العظمى ، وسرعان ما امتدت شعبيتهما إلى كل مستويات المجتمع ، حتى كانت هناك حاجة إلى دعوة الحرس العسكرى كلما ظهرا علناً . وحين أصدرت محكمة التفتيش فى النهاية حكمها أرسلت لورينزا فيليسيانى إلى أحد الأديرة والكونت إلى قلعة سان ليو حيث توفى فى عام ١٧٩٥ .

كانت حياة الكونت كاجليوسترو أشبه بقصة مروعة ، والحق أنها ألهمت روايات لدوماس

وشيلر ، وأهجيات لجوتة وكاترين العظمى . وإذا كانت قد بقيت ذكرى لكاجليوسترو اليوم على الاطلاق ففى صفحات السحر والتنجيم المأفونة . لكنه يستحق مكاناً فى التاريخ كشاهد على شئ أكثر أهمية كثيراً من مهنته : تلك السيطرة التى كانت للأرض التى ادعى أنها مصدر قواه فوق الطبيعية - مصر - على خيال عصره .

فرغم أنه ولد صبياً بسيطاً يدعى جيوسيب بالسامور لأسرة فقيرة فى باليرمو - كما كان الكونت يشرح لجمهور مستمعيه - فقد حمل إلى مصر طفلاً . وهناك أخذ إلى كهف أسفل الهرم الأكبر ، حيث ظهر له روح يدعى كوفت الأكبر وعلمه أسرار النيل السرمدية . وقيل للصبى الصغير ان الحقيقة العظمى - التى عيّن الفراعنة حراساً لهاستحفظ من خلال أداء سلسلة من الطقوس الخفية تسمى «الطقوس المصرية» . وكلف جيوسيب بمهة اعادة تقديم هذه الطقوس إلى العالم بجعلها أساساً للماسونية الحرة الدولية ، وبعد سنوات أسس الفرع الرئيسى للماسونية المصرية العليا فى باريس ، وبنى معبداً مقدساً لأيزيس ، كان يترأسه باعتباره تجسيد كوفت العظيم . وبهذا الدور جلب الكونت على نفسه حكم روما ، لأن الكنيسة لم تكن تتسامح لا مع الماسونية الحرة ولا مع السحر المصرى .

وكانت فكرة أن مصر تمتلك نوعاً من الحكمة القديمة سارية منذ أيام الرومان ، وبين الآباء المسيحيين الأوائل ، وبعثت فى عصر العقل ، حين كانت سلطة الكنيسة تواجه التحدى وتتراجع أمام اكتشافات العلم . لقد اجتذب الناس إلى فيزياء نيوتن وإلى فلسفة لوك ، وابتعدوا عما أسماه فولتير «الاذعان الذليل للإرادة السماوية» الذى يدعى له من فوق المنابر . وأصغوا بالأحرى إلى تعاليم الحرية والحداثة - التى فسروها بأنها حرية الاعتدال فى الدين ، وهى لا تبعد سوى خطوة قصيرة عن احلال المثالية الأخلاقية محل الإيمان الدينى .

غير أن الكثيرين رأوا أن المبادئ الأخلاقية دون دعم صوفى أو دعم من قوى فوق الطبيعة لا تشبع خيالهم . وبدأت تزدهر عبادات تدعو إلى السعى إلى الكمال الخلقى عبر حقائق سرية تتكشف (للواصلين) عن طريق أداء طقوس باطنية . ونما أنصار الصليب والوردة[1] والماسونيون ، وكلهم يدعون أصلاً مصرياً لأسرارهم .

(١) جمعية باطنية من أصل ألمانى ، انتشرت فى أوروبا فى القرن السابع عشر ، ورمزها هو الصليب والوردة - المترجم .

وفى ثلاثينات القرن الثامن عشر بدأت رواية «سيثوس» - التى دونت التجارب والطقوس اللازمة لبلوغ الحكمة- ، فترة جنون أدبى بمصر ، وبدأت مبان على الطراز المصرى تزين الساحات الأوربية . وشاعت المسلات والأهرام فى الضياع الكبيرة ، فضمت قلعة هوارد أربعة أهرام كبيرة ، وحوت حديقة ستاو جناحين لهما سقف هرمى ، فضلاً عن «هرم مصرى» ارتفاعه ستين قدماً صممه سير جون فانبروخ ، وحملت بوابة قلعة شيربورن فى دورسيت رسوماً مصرية تمسك بألواح النذور ، واتخذت صومعة كنيسة سانت لوك بفينسبرى شكل مسلة مصرية ، وغطيت جدران قاعة البلياردو فى دار كيرنيس بأبيونيشاير (بالموتيفات) المصرية .

وشاعت الكتب فى الفلك وعلم الكون والسيمياء والسحر ، وادعى كثير فيها أن مصدرها الكتابات الهرمسية لهيرمس تريسمبتيوس[1] ، وهو اسم يمثل مجموعة من الكتابات فى السحر والسيمياء ، عادل الاغريق بينه وبين الاله المصرى توت . ورغم أن الباحثين كانوا يطعنون دائماً فى نسبة الكتابات وشخصية المؤلف فقد كانت مصر نائية وقديمة وملغزه بحيث يسهل أن يستشهد بها بثقة الراغبون فى استدعاء الأسرار الخفية ، وكشف الحقائق المغيبة .

وهكذا حدث فى عام ١٧٩١ - العام الذى أدين فيه الكونت كاجليوسترو - أن سار تامينو وبامينا للمرة الأولى فوق خشبة مسرح دير فيدين فى فينا ليستمعوا إلى الكاهن الأكبر ساراسترو وهو يدعو الالهين المصرين إيزيس وأوزوريس إلى أن يتقبلوهما فى رحاب حكمة العصور .

ولم تكن مصر فى القرن الثامن عشر مجرد الأرض القديمة التى ينسب إليها السحرة بوتقة فنونهم المحظورة ، أو مصدر الهام منسقى البساتين الباحثين عما يثير عملاءهم ، بل كانت ساحة يتقاتل فيها رجال العلم العنيدون مع الكنيسة ، فقد كان قدم مصر موضع جدال حام شأن معجزات الكتاب المقدس ، فوفقاً للدكتور جون لايتفوت نائب مدير جامعة كمبريدج ، والذى اشتهر فى القرن السابع عشر باعتباره أحد علماء الكتاب المقدس البارزين ، لم يكن الكون ذاته قديم العهد لأن «السماء والأرض ، المركز والمحيط ، قد خلقا معاً فى اللحظة نفسها مع السحب المحملة بالأمطار» ، «وقد جرى هذا الحدث وخلق الثالوث المقدس الإنسان فى الثالث والعشرين من أكتوبر عام ٤٠٠٤

(١) هرمس المثلث العظمة ، وهو الاسم الذى أطلقه الاغريق على الاله توت المصرى - المترجم .

قبل الميلاد فى الساعة التاسعة صباحاً» . وأيد هذه التواريخ جيمس أوشر أسقف أرماغ ، ودونت على هوامش النسخة المعتمدة من الكتاب المقدس ، منذ عام ١٧٠١ حيث أضفيت عليها عصمة النص ذاتها . وهكذا فاستناداً إلى الكتاب المقدس - لم يكن يمكن أن تكون لمصر حضارة قديمة فى عهد الكتاب المقدس ، لأن العالم لم يوجد فترة تكفى لذلك ، بالأحرى كانت مصر أرضاً بدائية هرب إليها الآباء فى أيام المجاعة ، ومكاناً للخرافة والبربرية ، لم يخلصها سوى رسالة الانجيل .

وتعرضت هذه النظرة إلى التاريخ للتحدى : فقد أوضح سير والتر رالى[1] فى كتابه «تاريخ العالم» (١٦٠٣ - ١٦١٦) أنه فى عصر إبراهيم «كانت فى مصر كثير من المدن الفخمة . . . ليست مبنية بالطوب ، وإنما من الاحجار المقطوعة . . . وتستدعى فخامتها آباء أقدم مما يفترض الآخرون» . ومضى قديس الشك فولتير إلى العهد القديم بحثاً عن شواهد ، وذكر قصة الهدايا التى تلقاها إبراهيم مقابل حظوة زوجته : أغنام وثيران وأتانات وخدم وجوارى وحمير وإبل . ومن المؤكد أن هذا يبين أن مصر فى ذلك الحين كانت غنية جداً وقوية ، ومن ثم كانت حضارة شديدة القدم .

وأثناء القرن الثامن عشر كان بوسع رجال اللاهوت والفلاسفة أن يدخلوا فى جدالات عقيمة طويلة حول قدم مصر لأن قليلين هم الذين كانوا قد زاروا المكان فى ذلك الحين . وكان كثيراً مما هو معروف بشكل واسع عن مصر غير حقيقى ، وحقيقة مصر غير معروفة . وربما كان هيرودوت قد ذهب إلى هناك فى القرن الخامس قبل الميلاد حيث كتب عن النيل والحيوانات والآلهة والملوك ، ووصف أسلوب التحنيط بالتفصيل . وكان هو أول من أشار إلى أن الأغريق تعلموا طقوسهم الدينية وأساطيرهم عن الآلهة من المصريين . وكان زميله الصقلى ديودوروس - الذى أعطى اسمه لمجموعة من الكتب ادعى أنها تضمنت كثيراً من الرحلات الخطرة ومن بينها رحلاته إلى مصر بين عامى ٦٠ و٥٧ قبل الميلاد - هو المصدر الأكبر لأقاصيص لم تبحث . وكان ديودوروس يؤمن بأن مصر هى أكثف مناطق العالم المعروف سكاناً ، وأنها أسهمت بالكثير فى حضارة أثينا .

وفى أوائل القرن الثامن عشر خاطر قليل من الرحالة بالدخول فى مناطق دلتا النيل الأيسر وصولاً ، وجلبوا معهم أقاصيص وطرائفا من الاسكندرية أو القاهرة . وفى عام ١٧٢٣ جلب توماس

(١) بحار ورجل دولة إنجليزى (١٥٥٢ - ١٦١٨) - المترجم .

سيرجنت - جامع الآثار - إلى جمعية الآثار فى لندن «مجموعة من الآلهة المصريين جاءت مؤخراً من القاهرة الكبرى ، تضم تمثالين من النحاس لإيزيس وهربوقراط[1] ، وتمثالاً نحاسياً عاريا مشوهاً أرقى ذوقاً ، وإيزيس وطفلها ، وكاهناً مصرياً صغيراً وقطاً وخنفساء حجرية صغيرة بأجنحة ، ونقوشاً هيروغليفية فى طلاء غريب أزرق» .

وفيما بين عامى ١٧٢٠ و ١٧٣٣ طاف الأب توماس شو - وهو رائد مجموعة من الكهنة الانجليز الذين قاموا بدراسة خاصة للكتاب المقدس وعلم النبات - بالاسكندرية والجيزة وفحص أبا الهول والأهرام ، واستخلص أن الأخيرة معابد لا مقابر . ونشر استنتاجاته فى عام ١٧٣٨ ملاحظاً أنه «ما من تسرية يمكن أن تمارس بمتعة أكبر من السفر فى النيل» .

وخاطر الأب ريتشارد بوكوك شوطاً أبعد فى عام ١٧٣٧ ، وأبحر فى النيل حتى جزيرة فيلة وعاد لينشر مجلدين باسم «وصف الشرق» فى ١٧٤٣ - ١٧٤٥ . وسافر على حدة فى الوقت نفسه فريدريك لودفيج نوردين وهو قبطان دانمركى نشر مجموعة من الرسومات والنقوش . وقد تأثر نوردين بما رآه فى مصر إلى حد إنه أعلن أن الرأى الكلاسيكى القائل ان اليونان وروما هما مهد الحضارة الأوربية رأى خاطئ ، ووقف إلى جانب هيرودوت وديودوروس قائلاً : «دعوهم لا يعودون للحديث عن روما ، ولتصمت اليونان» .

غير أن الباحثين الكلاسيكين لم يكن يفزعهم قبطان بحرى دانمركى ، وكان الجدال عن تأريخ الكتاب المقدس والتفوق الحضارى حاداً وسط فراغ من جهل يكاد يكون كاملاً . وفى ٣٠ نوفمبر ١٧٧٥ استمعت جمعية الآثار إلى بحث بقلم الدكتور جون وودوارد عضو الجمعية الملكية وزميل كلية الفيزياء الملكية هاجم بعنف أولئك الذين يزعمون أن شعب اسرائيل والاغريق يمكن أن يكونوا قد تعلموا شيئاً من مصر ، فكيف يمكن للحضارة المصرية أن تكون بهذا القدم فى حين أن كل معمارها يتألف من أهرام - مجرد أكوام بسيطة من الأحجار موضوعة فوق بعضها بعضاً؟ ان المعابد التى تغنى بها الرحالة بربرية سيئة التصميم ، والأشكال التى تحليها جامدة وغير متناسبة . أما ادعاء أن الزخارف تحيى انتصارات فى الحروب فأى انتصارات يمكن أن يكون المصريون قد حققوها لكى

(١) إله مصرى - اغريقى - المترجم .

يحتفلوا بها؟ ألم يقهر قمبيز البلاد بأسرها ، واستولى على بيلوزيوم[1] لمجرد أنه ساق القطط والكلاب أمام جيش مصر ، مما دفع الجنود إلى الاستسلام بدلاً من أن يخاطروا بايذاء حيواناتهم المقدسة؟ أما عن فكرة أن مصر قد تحوى بعض الحكمة الخالدة فقد أوضح الدكتور وودوارد أن المصريين اعتادوا أن ينزعوا المخ والأحشاء من الجثث قبل حفظها حتى تستخدمها الروح الهائمة فى المستقبل ، فأى نفع يمكن أن يكون للجسد اذا لم يكن فيه مخ أو أحشاء .

واذّ اقترب عصر التنوير من نهايته بدت أرض مصر كل شئ لكل الناس : فهى عند المشتغلين بالسحر مستودع الأسرار القديمة ، وعند أنصار النزعة الانسانية شاهداً يمكن أن يحطم نظرة الكتاب المقدس إلى التاريخ وتأريخ الكنيسة ، وعند الكنيسة أرض متوحشة لم تضف عليها القداسة سوى رؤى موسى وحضور يسوع ، وعند الفنان تحدياً للأفكار المتلقاة عن الجمال والتناسب ، وعند المؤرخ تهديداً لتفوق الاغريق وروما القديمة الحضارى . غير أن التكهنات لا يمكن أن تزدهر إلا حيثما لا توجد معرفة مؤكدة . وفى ربيع عام ١٧٩٨ كانت مجموعة من العلماء تتجمع من كل أنحاء فرنسا فى ميناء طولون فى غزوة انتزعت أخيراً مصر من عالم «ألف ليلة وليلة» لتجد مكانها الحق فى تاريخ البشرية .

(١) مدينة فى مصر القديمة فى المنطقة المجاورة لبورسعيد حالياً - المترجم .

الفصل الأول

الجنرال بونابرت... أكاديمياً

كان الأسطول الفرنسى الذى تجمع فى ميناء طولون فى شهور الربيع الأولى من عام ١٧٩٨ قوة ترمى إلى توجيه ضربة لانجلترا ، وقد قبل قائده الأعلى الجنرال نابليون بونابرت البالغ من العمر ثمانية وعشرين عاماً ، هذا المنصب بغية عبور المانش وهزيمة الانجليز فى عقر دارهم . غير أن تنظيم السفن تعثر ، وفشل نداء الحكومة للحصول على قرض قيمته ثمانية ملايين فرنك لتمويل الغزو ، وألقت عودة المقاتلين إلى فرنسا من حملتى إيطاليا وألمانيا عبئاً جديداً على الجمهورية . وألغيت الأرمادا .

وكانت كراهية الانجليز ، الذين يقفون وحدهم فى طريق التوسع الفرنسى فى أوروبا ، شعوراً شائعاً فى ذلك الحين . وحين اقترح الجنرال بونابرت مهاجمتهم عن طريق غزو مصر ، مما يهدد الهند البريطانية ، أسرع رجال الديركتوار بالموافقة . وكانت لديهم أسبابهم الخاصة للترحيب برحيل بونابرت إلى الخارج ، إذ كان مما يسعدهم للغاية أن يتوجه إلى أى مكان ، فقد أصبح بؤرة حماس وطنى يرى رجال الديركتوار أنه من حقهم هم .

ولم تكن مصر بعيدة بعداً مريحاً عن باريس فحسب بل كانت كذلك هدفاً مناسباً لغزو فرنسى فى ذلك الحين : فقد كان الفتح الفرنسى لشمال ايطاليا ووسطهايعنى وجود سفن جاهزة لأسطول البحر المتوسط ، وقدمت البندقية وحدها تسع بوارج واثنتى عشرة فرقاطة ، ويتوافر وسائل النقل والمخازن والبحارة من جنوة وشعبتا فينسيا وأنكونا يمكن تجميع أسطول لغزو مصر دون ارهاق الخزينة ، وهكذا

أقرت الخطة .

وكان بونابرت يعتبر مصر صيداً سهلاً ، فقد كانت البلاد نظرياً مركزاً أمامياً للامبراطورية العثمانية التى وصلت فى نهاية القرن الثامن عشر إلى حد من الضعف والفوضى يمنعها من الدفاع عن نفسها . وطيلة أكثر من خمسة قرون ونصف كانت مصر خاضعة لحكم المماليك ، وهم قوة عسكرية من سلالة الجيورجيين والجركس ، الذين يدفعون فحسب جزية صغيرة غير منتظمة للباب العالى ؛ البلاط العثمانى فى الآستانة . وليس لدى المماليك سوى خيالة للدفاع عن أنفسهم ضد المدفعية الفرنسية ، والاسكندرية ، ميناء الهبوط ، غير محمية ومفتوحة أمام الهجوم . وما أن تحتل مصر حتى يستطيع الجيش الفرنسي توجيه ضربة إلى الامبراطورية العثمانية بل ربما حتى للهند البريطانية ، ويستطيع أن يسير شمالاً وشرقاً مقتفياً آثار اسكندر الأكبر بطل بونابرت ، ولعله يعيد انتصاراته .

والواقع أن الآثار الرئيسية للغزو انما نبعت من محاكاة بونابرت لبطله ، ولكن ليس كجنرال غاز ، فقد اعتاد الاسكندر - تلميذ أرسطو - أن يصحب معه في رحلاته مجموعة من العلماء - الجغرافيين والفلكيين والجيولوجيين وعلماء الأرصاد والفنانين - بحيث كانت كل حملة عسكرية هى فى الوقت نفسه حملة استكشاف . وعلى نفس الشاكلة قرر الجنرال بونابرت أن يأخذ معه فى غزو مصر مجموعة من العلماء الذين يمكن أن يبحثوا الموارد الثقافية والطبيعية للبلاد . وفى حين انتهت الحملة العسكرية بالهزيمة فقد أرسى عمل العلماء أساس ما أعقب ذلك من اكتشافات فى وادى النيل . وربما لم يكن الجنرال بونابرت قد حقق الكثير فى مصر ، الا أن الأكاديمى بونابرت جدير بالذكر .

وكان بونابرت قد اختير عند عودته من ايطاليا فى عام ١٧٩٧ عضواً فى أكاديمية العلوم ، أحد أقسام المجمع الفرنسى . وربما لم يكن هذا الشرف راجعاً إلى تميزه الفكرى قدر ما يرجع إلى اثرائه لمتاحف فرنسا بكنوز روما وفلورنسا . وكان يعتز باختياره ، واعتاد توقيع رسائله ومراسيمه بعبارة «عضو المجمع» قبل عبارة «القائد العام» . كما كان يحضر اجتماعات الأكاديمية بانتظام ، مرتدياً حلة الأكاديمى الفاخرة التى صممها جاك لويس دافيد .

وكان لدى الأكاديمى بونابرت اهتمام خاص بمصر ، ففى ربيع عام ١٧٩٨ وجه خطاباً إلى الأكاديمية عن أهمية وادى النيل للدراسات الدولية ، وأصدر أوامره إلى

العلماء الذين صحبوا قوة الغزو بأن يحموا مرة وإلى الأبد مسألة اسهام مصر فى حضارة العالم القديم .

وهكذا تشكل مجمع العلوم والفنون . وكانت مهمته العملية والعاجلة هى تقديم أكثر البيانات العلمية الممكنة دقة للمساعدة فى شن الحرب ، وبالتالى لاقامة مستعمرة فرنسية دائمة بعد تحقيق النصر . وكان المخطط بسيطاً : فستستفيد فرنسا من استيراد الناتج الزراعى المصرى ، الذى يزرع بأحدث المشورة العلمية ، ومن تصدير سلعها المصنعة . وستستفيد مصر بوجود حكومة مستقرة ومتحضرة ، فضلاً عن وجود سوق مضمون وراء البحار . وبهذه الطريقة يتحضر المصريون ببطء بالصلات الوثيقة مع أكثر الحضارات رقياً فى أوروبا الحديثة . ومقابل ذلك ستستفيد الدراسات الأوروبية ببحث التاريخ الحقيقى لمصر الفراعنة ، والدلالة الحقيقية لآثارها القديمة .

وكان المجمع يتألف من واحد وعشرين عالم رياضة ، وثلاثة علماء فلك ،وسبعة عشر مهندساً مدنياً ، وخمسة عشر ضابط مسح أراضى ، وعشرة رسامين هندسيين ، وثلاثة خبراء بارود . وتبدو وظائف هؤلاء الفنيين فى قوة غازية استعمارية وظائف واضحة . ولكن الأقل نفعية هم النحاتون والموسيقيون ورجال الأدب الذين أدرجوا ، وأخذوا معهم مكتبة تضم خمسمائة مجلد ، بما فيها «دائرة المعارف» كاملة ، ومحاضر أكاديمية العلوم ، وأعمال فولتير والقرآن والكتب الهندوسية المقدسة ، فضلاً عن مجموعة من قصص الرحالة ، وكتب التاريخ العسكرى والأعمال الفنية فى الهندسة والجراحة .

وكان معظم أعضاء المجمع شباباً ، بعضهم فى أوائل العشرينات . وأكثرهم وقاراً وشهرة هو عالم الرياضيات جاسبار مونج ، الذى لم يكن يزيد عن الثانية والخمسين ، رغم أن زوجته عارضت رحيله فى مثل هذا السن المتقدم ووصفته بأنه «عجوز مخرف» . وقد ألهبهم بونابرت بحماسه ، وعند بدء الرحلة حدد مونج طابع المجمع فى رسالة إلى القائد العام :

> وهكذا فقد تحولت هنا إلى واحد من ملاحى آرجو(*) .
> وتلك احدى معجزات جاسون(*) الجديد الذى لا يحرث البحر
> بحثاً عن فراء ذهبى(*) ، لا يمكن أن تزيد مادته فى القيمة كثيراً ،

(*) فى الميثولوجيا الاغريقية الأبطال الذين استقلوا السفينة آرجو تحت قيادة جاسون بحثاً عن الفراء الذهبى – المترجم

بل يحمل شعلة العقل الى بلد لم ينفذ فيها ضوؤه منذ أمد بعيد ،
ويوسع مجال الفلسفة ، ويحمل المجد القومى إلى ميادين أبعد .

وما أن استقل بونابرت البارجة «لورينت» ، وهى بارجة تحمل ١٢ مدفعاً ، حتى قضى معظم الرحلة إلى مصر فى كابينته ، التى اختارها الأميرال بورويز خصيصاً لتكون مناسبة لقائد أعلى يتوقع أن يصاب بدوار البحر طيلة الرحلة . وكان بونابرت قد أمر مونج بأن يشحن على ظهر السفينة مطبعة عربية ويونانية حتى يبدأ حرب الدعاية قبل أن يبدأ القتال بالفعل ، فقد كان بونابرت يدرك – وهو يخطط لإقامة مستعمرة فرنسية فى مصر – أن القوى الاستعمارية لا يمكن أن تأمن إلا بتقبل المحكومين على الأقل أن لم يكن برضاهم . ومن ثم كان عليه أن يقنع المصريين بالترحيب بتغيير السيد . وكانت الخطوة الأولى هى اقناعهم بأن الفرنسيين لم يأتوا لاستعبادهم وإنما لتحريرهم . وحين تحرك الأسطول من مالطة شعر بونابرت فى النهاية بتحسن يمكنه من أن يملى اعلانه للمصريين :

> وبين المماليك ما العقل والفضائل والمعرفة التى تميزهم عن الآخرين وتستوجب أنهم يتملكون وحدهم كل ما تحلو به الحياة الدنيا؟ حيثما يوجد أرض مخصبة فهى مختصة للمماليك ، والجوارى الأجمل والخيل الأحسن والمساكن الأشهى فهذا كله لهم خالصاً . ان كانت الأرض المصرية التزام للمماليك فليرونا الحجة التى كتبها لهم رب العالمين[1]» .

وإذا كانت الصيحة ضد مظالم الامتيازات المستقرة فعالة للغاية فى فرنسا الثورية فقد كانت الاشارة إلى الله خطرة فى مصر ، لأن المصريين ، باعتبارهم مسلمين ، لم يكن من المحتمل أن يرحبوا بقوة من الكفار مهما حسنت نواياهم ، وهكذا يمضى الاعلان ليقول :

> يا أيها المصريون قد يقولون لكم أننى ما نزلت بهذا الطرف الا بقصد ازالة دينكم ، فذلك كذب صريح فلا تصدقوه . وقولوا للمفترين . . . أننى أكثر من المماليك أعبد الله سبحانه وتعالى ، وأحترم نبيه محمد والقرآن العظيم . . . (ألسنا نحن الذين)

(١) نقلاً عن مظهر التقديس بذهاب دولة الفرنسيس. الجبرتى ، لجنة البيان العربى – ١٩٦٩ ص ٢٩ – المترجم

قصدوا إلى جزيرة مالطة وطردوا منها الكواللرية الذين كانوا يزعمون أن الله تعالى يطلب منهم مقاتلة المسلمين؟[1]» .

وقد أختبر عزم بونابرت على أن يبدو متعاطفاً مع أتباع النبى اختباراً قاسياً فى القاهرة ، لكنه من فوق ظهر بارجته اكتفى بتذكير قواته بأنهم اذا أرادوا أن يقبلوا كمحررين للشعب المصرى فان عليهم أن يكبحوا أى اندفاع للتصرف كفاتحين :

ان الناس الذين سنعيش معهم من المسلمين ، وعقيدتهم الأولى هى : «أشهد أن لا اله الا الله وأن محمد رسول الله» ، فلا تعارضوهم ، وتصرفوا معهم كما تصرفنا مع اليهود والايطاليين ، وأبدوا الاحترام لمفتيهم وأئمتهم كما فعلتم مع الحاخامات والأساقفة . . . لقد جمعت الفيالق فى إيطاليا كل الأديان .

وعبر الاعلان عن شعور رقيق ، وما من سبب يدعو للشك فيه ، فقد كان بونابرت يرى رسالته رسالة حضارة ، وأول أمر أساسى فى الحضارة ، فى التقاليد التى يحاول أن يحاكيها ، هو التسامح الدينى . ومضى ليحظر على قواته النهب تماماً : «فالسلب لا يثرى سوى عدد قليل ، وهو يلحق بنا العار ، ويدمر مواردنا ، ويحول إلى أعداء أناساً من مصلحتنا أن يكونوا أصدقاءنا» . وأعلن أن السلب جريمة يعاقب عليها بالإعدام .

ولم يكن هذا تهديداً أجوف ، فحين تبين أن مدينة الاسكندرية ، التى كان بونابرت يخامره بعض الأمل فى أن تفتح أبوابها ترحيباً بالجيش الفرنسى المحرر ، يحميها دفاع مهترئ وأسوارها المحصنة تحتشد بالنساء والأطفال الذين يتصايحون فى تحد ، كان لابد من ارسال القوات . وبعد بضع ساعات من قتال الشوارع تمكن بونابرت من أن يقيم مركز قيادته فى قلب المدينة ، حيث تلقى استسلام قادة الحامية . وكانت القوات الفرنسية قد تعرضت لاطلاق النيران من جانب مدنيين ، ولكن حين جئ أمامه بجندى فرنسى متهما بالستيلاء على خنجر من عربى مسالم ، جرى التحقيق فى الموضوع وأمر بونابرت باعدام الرجل فى التو .

وكانت القاهرة هى المحطة التالية . وقسمت القوات إلى طابورين ، أحدهما يسير

(١) المصدر السابق ص ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ . والكواللرية هم «فرسان مالطة» - المترجم .

مع الشاطئ حتى رشيد ، يصحبه أسطول صغير من القوارب التى تحمل المؤن ، والآخر يسير مباشرة إلى موعد على النيل ، حيث يسير الجيشان معاً إلى المدينة .

وحملة ٢٥ يوليو ١٧٩٨ من أكثر أحداث التاريخ العسكرى إثارة ، فقد سارت القوات الفرنسية ، التى أنهكتها الدوسنطاريا ، عبر الصحراء ، يناوشها رجال القبائل البدوية وفرسان مراد بك والمماليك ، ومضت حتى النصر فى معركة الأهرام بعد أن حشدهم قائدهم بالعبارة الشهيرة أن أربعين قرناً تطل عليهم .

وكانت اعلانات بونابرت التى طبعت على متن «لورينت» قد وزعت توزيعاً واسعاً قبل أن يصل الجيش إلى القاهرة ، وحملها إلى المدينة بحارة مصريون طلب منهم نشر الأنباء القائلة أن الفرنسيين جاءوا «كمسلمين صادقين» لتحرير اخوتهم من نير المماليك . ولم يكن للاعلانات أثر ، فقد كان السكان يشعرون بالرعب ، وحين جاءتهم أنباء هزيمة جيش المماليك استبد بهم الذعر . وكوم التجار بضائعهم على ظهور الحمير واتجهوا إلى أطراف المدينة ، حيث تعرضوا للهجوم والسرقة من جانب المواطنين الهاربين الآخرين ، وكان الغوغاء يحرقون القصور وينهبونها . وبعد يومين وقف الجيش الفرنسى خلالهما يشهد الحرائق عبر النهر ، هدأت الهستيريا ، ودخل بونابرت مدينة مقهورة ، ليواجه سكاناً يتملكهم الفضول والتوجس ، لكنهم لم يعودوا معادين .

وأقام القائد الظافر فى قصر فى قلب المدينة كان مملوكاً لقاسم بك ، وهو واحد من أثرى المماليك ، وبدأ محاولة استمالة قادة الشعب . وأنشأ مجلساً من شيوخ المصريين لتقديم المشورة له ، وظهر أمامهم مرتدياً الزى المصرى ، ودعاهم إلى ولائم كان يأكل فيها بأصابعه ، ويجلس القرفصاء على الأرض ، ويشاع أنه قال لهم «حين أكون فى فرنسا فانا مسيحى ، أما فى مصر فأنا مسلم» . وأخيراً حمل بونابرت لقب السلطان الكبير ، وأمر بأن تشارك القوات الفرنسية بالمثل فى احتفالات مولد النبى . والأهم من ذلك أنه أصدر أمراً فى ٢ أغسطس ١٧٩٨ باختيار مبنى مناسب ليضم المجمع المصرى ، الذى نظم على شاكلة المجمع الفرنسى ، واختير له أبرز العلماء والفنانين من أجل تقدم المعرفة بكل من ظروف مصر الحالية وتاريخ فنونها وعلومها .

واختيرت مجموعة من القصور فى ضاحية الناصرية تعكس بشكل مناسب التطلعات السامية للمجمع ، فهنا سيقوم المرصد ، والمعمل الكيميائى ، والورش الهندسية ، فضلاً عن المجاميع الكثيرة المتوقعة من العينات . وكان قصر قاسم بك يضم

قاعة اجتماعات فسيحة يمكن أن يجتمع فيها العلماء ويتناقشوا ، وحدائق ظليلة ، يمكن أن يتجولوا فيها ويتبادلوا الأفكار . وحددت أهداف المجمع رسميا على النحو التالى :

- تقدم المعرفة بمصر ونشرها .
- بحث البيانات الطبيعية والصناعية والتاريخية عن مصر ودراستها ونشرها .
- تقديم المشورة عن مختلف المسائل التى تستشيره فيها الحكومة .

وقسم المجمع إلى أربعة أقسام - الرياضة ، والفيزياء ، والاقتصاد السياسى ، والأدب والفن - وضم كل قسم اثنى عشر عضواً . وفى أول اجتماع للمجمع فى ٢٣ أغسطس ١٧٩٨ انتخب بونابرت نائباً للرئيس . وأصر على أن يخاطب فى ساحة المجمع باعتباره «المواطن بونابرت» ببساطة إلى أن يجلب له اسهام فى معارف المجمع مزيداً من التميز .

وكان بونابرت يعتبر المجمع تجسيداً لأرقى مبادئ المثالية الثورية ، فكل معرفة يمكن الوصول إليها بالفكر الحر والبحث العلمى ، ولما كانت المعرفة تشريفاً للبشرية فلا ينبغى أن يهمل فى متابعتها حتى جيش احتلال مازال يصارع عدواً لم يقهر . وهكذا ففى الوقت الذى كان فيه الجيش الفرنسى يتقدم فى وادى النيل ، ويصطدم بحشود المماليك ، كان مواطنوه العلماء يتجمعون فى قصر قاسم بك الظليل ليسمعوا أبحاثاً عن «الظاهرة البصرية المسماة بالسراب» و«بعض الملاحظات عن جناح نعامة» .

ولم يكن الاندفاع فى وادى النيل مجرد استكشاف ، وان كانت الاكتشافات التى حققت وسجلت هى أكثر ذكرياته بقاء . وكان مراد بك قائد المماليك قد استقر مع ألفى رجل قرب واحة الفيوم ، وانضم إليه خمسة آلاف فارس عربى غير نظامى . كما كان بوسعه أن يعتمد على تأييد البدو فى شن غارات على الفرنسيين ، وكان على صلة بالمتمردين فى القاهرة والاسكندرية . وقرر بونابرت أن من الضرورى هزيمته أو مطاردته إذا كان لخطة المستعمرة السلمية أى فرصة للنجاح ، وأرسل قوة من ٥٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال ديزيه للتعامل مع قائد المماليك .

ومع القوات الفرنسية ، وفى أغلب الأحيان بعدها بقليل ، كان البارون دومنيك

ڤيفان دينون ممثل المجمع المصرى . وكان البارون قد طلب مصاحبة بونابرت إلى مصر لأنه - فى سن الحادية والخمسين - أصبح أكثر إهتماماً بتاريخ البشرية منه بمستقبلها . وكان دينون - الفنان والكاتب المسرحى وعالم الآثار والدبلوماسى - صديقاً لڤولتير وأثيرا فى بلاط لويس الخامس عشر . وكان فى إيطاليا حين نشبت الثورة ، وبدلاً من أن يعتبر نفسه محظوظاً لهروبه عاد إلى فرنسا لينقذ ممتلكاته فى حين كان أغلب الأرستقراط يسيرون فى الاتجاه المضاد . وكانت ممتلكاته قد صودرت ووزعت ، وعند وصوله إلى وطنه انحدر إلى العمل لحساب الفنان جاك لويس داڤيد ، وأسندت إليه مهمة تافهة هى نسخ تصميمات الملابس . غير أن دينون كان له أصدقاء قدامى ، ويتمتع بشخصية جذابة تسمح له بكسب أصدقاء جدد ، كان من بينهم روبسبيير . وسرعان ما استرجعت معظم أملاك دينون وأعيدت إليه ، وبدأ يدعى إلى سهرات صالون چوزفين دى بوهارنيه حيث التقى ببونابرت . وترك دينون المهانة خلفه ، وأعيد له اعتباره كفنان شهير وطنياً ، وانتخب فى الأكاديمية .

وقد استقبل دينون بحماس فى صالونات باريس أساساً بسبب «أعمال مهداة إلى اله الخصوبة» ، وهى سلسلة من الاسكتشات تستلهم القضيب كانت تتداول بين أصدقائه ونشرها عام ١٧٩٣ . وأصبح مصدر الهامه فى مصر هو الصحراء والآثار القديمة التى نظر إليها بعين غير متحيزة ملتزمة بالكلاسيكية . وكان أكثر الكتب عن الآثار المصرية تأثيراً فى القرن الثامن عشر هو كتاب مونفوسون «العصر القديم مشروحاً وممثلاً فى صور» (١٧١٩ - ١٧٢٤) ، ورغم أن الكتاب كان جميل الاخراج والصياغة فقد كان مونفوسون يحكم على الفن المصرى بذوق العصر ، واصفاً إياه بأنه مريع وغريب وقليل الذوق . وكان دينون مقبولاً باعتباره رجل حساسية ومرجعاً ، وقدر لاستجابته لفن وادى النيل وعمارته أن تشكل استجابة جيله .

ورغم أن دينون كان حكماً فى حسن الذوق فانه لم يكن رجل جمال رعديد . وحين تطوع لمصاحبة الجنرال ديزيه إلى الصحراء كان يعرف أنها رحلة فى أرض غريبة ليس البقاء فيها مؤكداً . ولم يكن أحد فى الحملة قد واجه بعد ظروفاً كالتى كان على ديزيه ورجاله أن يواجهوها : الحرارة والعواصف الرملية وعداء أناس مجهولين فى الجنوب ، وعدم ضمان الامدادات والمناوشات المستمرة من جانب عدو تتزايد قوته ويعرف الأرض . وكتب دينون يقول : «كنت معتاداً على الحياة فى المعسكرات ولم أكن أخشى بسكويت الجيش» . وقد بدأت الحملة فى ٢٥ أغسطس ١٧٩٨ : ٣٠٠٠

من المشاة فى حلل صوفية ثقيلة بحواشي قرمزية وصفراء و٢٠٠ حصان ، وثمانى قطع مدفعية ، يشكلون طابوراً يزيد طوله عن ميلين يسير متثاقلاً عبر الرمال ، وعلى رأسه شخص ضئيل الجسم يبدو وكأنه ينتفخ عند اقتراب العدو : الجنرال ديزيه ، جندى محترف نشط فى الثلاثين من عمره ، وفى المؤخرة - غارقاً فى اسكتشاته حتى ليغيب الطابور عن بصره - كان الأرستقراطى والفنان دينون .

وحشد مراد بك قواته فى هجوم رمزى عند واحة الفيوم ، لكنه أدرك أن هذا التكتيك يحمله بالتأكيد خسائر فادحة فى مواجهة المربع الفرنسى . وكانت قواته أكثر قدرة على الحركة من الفرنسيين بامداداتهم ومدفعيتهم ، ومن ثم فقد تراجع فى الوادى وعسكر قرب ضفة النهر حتى أوشك الفرنسيون أن يصلوا إليه ، قبل أن يتحرك جنوباً إلى الأراضى المجهولة ، عائداً بين حين وآخر لمهاجمة الطابور الفرنسى من المؤخرة وقطع خطوط امداداته .

واستمرت الحملة وسط حرارة أواخر الصيف ، وكان ديزيه متلهفاً على اللحاق بالعدو واجباره على خوض معركة حامية ، أما دينون فقد قنع بالانبهار بالأعاجيب التي تتكشف وهم ينتقلون من معبد إلى أثر إلى مدينة قديمة ، وهو يرسم فى جنون ليبقى المشاهد لنفسه وللأجيال القادمة .

وكان بين كل من ديزيه ودينون - رغم اختلاف مهنهما والجيل الذى يفرق بينهما - شيء مشترك ، فقد كان دينون يستغرق فى جمال ما يراه حوله حتى لا يعود يبالى بالحرارة أو مرور الوقت أو أمنه الشخصى ، وكثيراً ما كان يتخلف وراء الطابور ولا يشعر أحد بغيابه الا عند إقامة المعسكر فى نهاية اليوم ، وترسل فصيلة من الخيالة لإنقاذه من البدو . وفى تلك الأوقات لم يكن دينون ليلحظ ما يأكله أو يرتديه . وفى أى حملة كان ديزيه بالمثل يستغرق فى المهمة التى بين يديه ، وقد قال بونابرت عن جنراله المفضل انه عند القتال «كان سيء الهندام دائماً ، بل حتى يرتدى أسمالاً ، ويحتقر الراحة والدعة . . . . فيلتف بعباءة ، ويلقى بنفسه تحت مدفع وينام راضياً وكأنه فى قصر» .

لكن أثر مصر على الرجلين كان مختلفاً تماماً . ففى مساحات الصحراء مترامية الأطراف ، حيث تقهر العين مساحة بلا حدود ، وحيث «يسود صمت العدم وحيداً فوق اللانهائية» على حد تعبير دينون ، أصيب ديزيه بالاكتئاب . وذات أمسية أسرّ إلى دينون وهما يتحدثان فى معسكرهما فى طرف الصحراء بأنه يعتقد أن مصر أرض

منسية ، أرض غير مكتملة ، وأن العناية الالهية بعد أن وفرت بسخاء احتياجات بقية العالم لابد وقد نفدت امكاناتها عند وصولها إلى مصر فتركت الأرض دون أن تكملها . أما رد دينون - الذى يتسم بحداثة غريبة - فقد ألقى اللوم على الانسان لا على العناية الالهية . «أفليس الأمر بالأحرى هو شيخوخة هذا الجزء من العالم الذى كان أقدم جزء مأهول؟ أم لعلها تجاوزات من صنع الانسان هى التى هبطت به إلى هذا الحال؟» .

ظلت الآثار تثير دهشة دينون ، وفى هرموبوليس[1] بمصر الوسطى زار الرواق الشهير ، وأعلن أنه بناء انتظر ٤٠٠٠ سنة لكى يذهله بكماله ، وكتب يقول متحدياً الدراسات التقليدية «لم يقم الاغريق أبداً بشئ أعظم» . وقد جره ديزيه بعيداً عن الموقع قبل أن تتاح له فرصة انهاء اسكتشاته ، وتضجر ثلاثة أسابيع لأن متطلبات الحملة العسكرية لم تكن تتمشى مع مواقع الآثار القديمة . غير أن مراد بك تحرك إلى الجنوب أكثر ، ووصل الفرنسيون فى متابعتهم له إلى دندرة التى كرست اقتناع دينون بأن مصر - لا اليونان - هى التى كانت مهداً لأسمى فنون البشر .

فخلال عصر العقل كان يعتبر ضرورياً للأحكام الجمالية ، فضلاً عن الأحكام العلمية ، أن تقوم على العقل ، لأن الجمال الحق تعبير عن التناسب والعقل . ولم يكن حماس دينون لما رآه استثناء ، فقد وجد عمارة معبد دندرة «موجهة بوضوح بعقل قوى» ، وزخارف جدرانه «قائمة دائماً على العقل ، ومتفقة دائماً مع بعضها بعضاً . . . وذوقاً يستند إلى الصدق ، وتسلسلاً من التذليلات العميقة» . فهنا نجد النقاء الكلاسيكى دون تزيد أو رومانسية : «وما من اهمال ، وما من تدفق لعبقرية فريدة ، والوحدة والانسجام يسودان كل شئ» .

وهنا يكمن مفتاح مسألة قدم مصر التى انقسم حولها الباحثون طيلة قرون . وكان بوسع دينون أن يجادل ضد تأريخ الكتاب المقدس الذى تتبناه الكنيسة بإبرازه أن فن دندرة قديم ولكنه ليس بدائياً ، مما يعنى أن مصر هى حقاً مهد الحضارة :

> " " كم من عصور لابد أنها انشغلت بتوجيه أمة مبدعة إلى هذه النتائج ، إلى هذه الدرجة من الكمال والسمو فى الفنون ! وكم من عصور أخرى لابد أنها انقضت لنصل إلى

(١) مدينة فى مصر الوسطى ، على بعد نحو ٣٠٠ كيلو متراً إلى جنوب القاهرة . . . وتسمى هذه المدينة اليوم الأشمونين نقلاً عن معجم الحضارة المصرية القديمة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية ، ص ٣٤٧ .

النسيان المطبق لكل هذه الثروة من الاشياء ، ولتعيد
الانسان .... إلى الحالة الطبيعية التى نجده عليها .

وفى دندرة أخذ دينون يرسم بجنون . ففى أى لحظة كان يمكن أن تصلهم أنباء بأن مراد بك أصبح على مقربة ، ويكون عليهم أن يحزموا أشياءهم ويتركوا أسمى بقعة فى مصر ، وربما إلى الأبد ، وكتب يقول «لم تكن عيناى ولا يداى كافية ، وكانت رأسى أصغر من أن ترى وترسم وتصنف كل ما يذهلنى» . ونفدت أقلامه ، وصهر الرصاص ليرسم به ، إلى أن تأتى الامدادات مع القوات .

وفى دندرة ، حيث كانت هاتور الذهبية - مرضعة الملك - تعبد منذ أقدم العصور المسجلة ، بدا قدر من الخشوع مازال يحلق فوق المبنى العظيم المنفرد على حافة الصحراء . واعترف أحد الضباط لدينون قائلاً «منذ أن جئت إلى مصر وأنا أشعر أننى خدعت فى كل ش ، . وأعانى دائماً من الاكتئاب والمرض ، وقد شفتنى دندرة . وما أراه اليوم عوضنى عن كل بؤسى ، ولم أعد أبالى بما يحدث لى بقية هذه الحملة ، فسأظل دائماً سعيداً بأننى كنت فيها» .

وحين اندفعوا بعد دندرة ، متحركين جنوباً على طول النهر لمطاردة المماليك وقعت حادثة ربما كشفت عن أن هذا الضابط لم يكن وحده فى الاستجابة لمفاتن مصر . كانت الساعة التاسعة صباحاً حين داروا حول منحنى فى النهر ، ورأوا أمامهم أنقاض مدينتى الأقصر والكرنك ؛ البانوراما الكاملة لمدينة طيبة القديمة . وفى استجابة عفوية لهذا المشهد الرائع توقفت الفرقة كلها ، وكتب أحد الضباط يقول «ودون صدور أى أمر اصطف الرجال فى طوابيرهم ، واستعرضوا أسلحتهم على دقات الطبول والموسيقى» . ربما كانت هذه لمسة رومانسية من بلاد الغال ، لكن هناك حكايات مستقلة تتحدث عن القوات وقد وقفت مذهولة وأخذت فى التصفيق . ولم يخامر دينون شك فى حماس الرجال لمفاتن المبانى العتيقة ، فقد كانوا يلتفون حوله ليحجبوا الشمس عن ظهره وهو يرسم ، وكتب عن «العاطفة الجياشة لجيش من الجنود جعلتنى حساسيتهم الرفيعة أبتهج بأننى برفقتهم ، وأعتز بأنى فرنسى» .

ووصلت أنباء إلى الجنرال ديزيه بأن مراد بك يعسكر فى اسنا ، التى تبعد نحو واحد وثلاثين ميلاً إلى الجنوب ، وتعد آخر قرية كبيرة فى مصر فى ذلك الحين . ومرة أخرى انتزع دينون من رسوماته لتبدأ مطاردة العدو . ووصلوا بعد ساعات فقط من

مغادرة المماليك بعد أن أحرقوا خيامهم وأمتعتهم الثقيلة ليسهلوا هروبهم . غير أنه كانت هناك مباهج فنية فى اسنا تعوض الاحباطات العسكرية . وأعلن دينون أن أنقاض المعبد تعد «أكمل بقايا للعمارة القديمة» ، ووجد هنا مزيداً من الشواهد على تفوق المصريين . كانت زخارف المعبد صوراً لمنتجات مصر الطبيعية : اللوتس والكروم والنخيل والبوص وما إلى ذلك ، تبين أن المصريين لم يستعيروا شيئاً من أحد لكى يبلغ فنهم الكمال : لقد نسخوا الطبيعة . وكتب دينون يقول «كل ما فعله الاغريق هو أنهم أضافوا أساطير إلى ما سرقوه منها» .

ويقيت هناك مشكلة هى كيف أمكن لحضارة بلغت مثل هذا الكمال فى العصور القديمة آن تنحدر إلى وضعها الحالى فى نهاية القرن الثامن عشر . ووجد دينون إجابة مرضية تماماً لرجل مثالى من عصر التنوير : لقد دفع مصر إلى الانحدار نفس النفوذ الذى أوقف تقدم أوروبا طيلة قرون ، نفس الطغيان الذى تحررت منه فرنسا لتوها : الكهنة . وكما علقت الكنيسة أسرارها فى لغة ميتة لتبقى على قبضتها على أذهان الناس العاديين ، فقد أخفى كهنة مصر القديمة أسرارهم الخفية فى رموز الهيروغليفية العويصة التى تغطى جدران المعبد . ورأى دينون تشابهاً واضحاً بين چيزويت عصره وكهنة مصر القديمة : «طغاة وضيعون منافقون . . يمتلكون كل العلوم ، ويغلفونها فى رموز وأسرار حتى يمكن أن يضعوا حاجزاً بينهم وبين الناس ، فالملك يخدمه الكهنة ، ويشير عليه الكهنة ، ويطعمه الكهنة ، ويعظه الكهنة» . وحتى روعة طيبة أثارت ضميره الاجتماعى ، وكتب يقول فى ضيق «معابد ! ثم معابد ! ودائماً معابد ! . . . ما من جدران أو أرصفة أو جسور أو حمامات ، وما من مبنى للمنفعة العامة أو مرفق !» .

وفى المجمع كانت حدود المعرفة تتسع بحذر ، فكل خمسة أيام ، كان العلماء يجتمعون فى قاعة قصر قاسم بك ليناقشوا آخر الاكتشافات والخطط . وقرأ الكيميائى بيرتوليه أوراقاً عن تكوين النوشادر والأساليب المصرية لانتاج النيلة ، وعرض دوتيتر خطوط اقتراح باقامة مدرسة فنون جميلة للمصريين ، وتحدث مونج عن الجاذبية الشعرية ، وفورييه وكورانيسز عن الرياضيات العليا . وبشرت بالنشاط الذى سيأتى بعلماء المصريات وبغيرهم من الزوار الأقل احتراماً إلى وادى النيل طيلة القرن التالى ورقة قدمها الجيولوجى دولوميو تحوى اقتراحات «باختيار الآثار القديمة وحفظها ونقلها» من مصر إلى فرنسا . وليس ثمة شاهد فى المحاضر على أن الاقتراحات أثارت أى تأنيب ضمير ، فهم دائماً كانوا يتبعون سوابقهم فى ايطاليا ، حيث «حررت»

الكنوز الوطنية من المتاحف الايطالية لتجد موطناً آمناً فى اللوفر . وبدا منطقياً تماماً أن من حق الأمة التى دعاها القدر إلى الكشف عن دلالة مصر الحقيقية أن تثرى متاحفها بآثارها .

وكخطوة أولى للشحن إلى فرنسا أنشئت مجموعة فى المجمع ، وعين دولوميو مسئولاً لها . ووفر له مساعدون من أجل «التجميع الدقيق لكل الآثار القديمة التى قد يستطيعون جلبها ، مع تمييز الآثار التى تجعلها أهميتها المحلية جديرة بالعناية ولكن لا يمكن نقلها دون أضرار» . وسنسمع الكثير من مثل هذه العبارات فيما بعد . وجاءت العينات الأولى إلى المجمع من منطقة الدلتا ، لكن ديزيه ، حتى وهو فى قلب مطاردته للماليك ، لم ينس واجبه فى الاسهام ، فقد أرسل تمثالين للمجموعة ، أحدهما لأبوللو والآخر لأنتينوى[1] ، لكن الفلاحين اللذين كلفوا بنقلهما وجدوا تمثال أبوللو شديد الثقل فألقوه من القارب إلى النهر .

وكان المجمع فى نظر بونابرت أكثر من مجرد مركز للتعليم أو لتملك الآثار المصرية ، فقد كان يرى فيه وسيلة لكسب احترام قادة البلاد وثقتهم ، وهو ما لم يكن يحقق فيه تقدماً كبيراً . وكان يدرك - ربما بصورة غير عادية - ضرورة حكم بلد ما من خلال من وجدهم فى السلطة تقليداً . ومثل هذا النظام أسلوب له كثير من المزايا فى الابقاء على السلطة الاستعمارية ، لكنه يتوقف على الوعى الحساس بالحضارة وبالقيادة التقليدية التى يسعى إلى مداورتها . وكان بونابرت يفتقر إلى ذلك ، كان يعرف أن عليه أن يبدو داعماً لسلطة رجال الفتوى والأئمة والشيوخ ، وقرر أن من وسائل ذلك السماح لهم بالاستمرار فى حمل السلاح ، وهو حق أنكر على بقية السكان . كما قدر بونابرت تقديراً صحيحاً مسألة اعتدادهم بأنفسهم حين أمر بمعاملتهم باحترام علناً ، حتى من جانب القوات الفرنسية ، لكنه حين أصر على أن يرتدوا أوشحة مثلثة الألوان كاشارة إلى رتبتهم حتى تتعرف عليهم قواته كان يعاملهم كمسئولين محليين فرنسين . لذا رفضوا هذا التكريم . وفى حين كان بوسع مستشرقيه أن يشيروا عليه بشأن النظريات الحديثة عن الآثار المصرية القديمة فانهم لم يكونوا يعرفون الكثير عن الحضارة المصرية فى عصره . كان بونابرت يبحر فى مياه غير مطروقة وهو يسعى إلى كسب ثقة شعب أسلوب حياته مختلف تماماً .

(١) شاب اغريقى جميل كان عبداً ثم أثيراً لدى الامبراطور هادريان - المترجم .

غير أنه كانت هناك أولوية مشتركة بين المصريين ومواطني التنوير هي : احترام التعليم ، فقد كانت القاهرة هي مقر الجامع الأزهر الشهير دولياً ، والذى كان معبداً مقدساً وجامعة اسلامية فى آن واحد . وفى أيام الولاة كان ١٢٠٠٠ طالب يلتحقون به بانتظام من كل أنحاء العالم ، يدرسون دائرة واسعة من المواضيع الدينية والعلمانية . ووجد بونابرت أن «سوربون الأزهر» قد انكمشت إلى ١٢٠٠ طالب ، ينفقون كل وقتهم فى دراسة القرآن والشريعة الاسلامية ، لكن مظاهر الدراسة كانت لا تزال واضحة : الطلاب الملتزمون ، والمكتبة ، والمحاضرات الدراسية ، والأساتذة الملتحون ، الذين دعاهم بونابرت ، فى ايماءة كرم فيما بين الدارسين ، لزيارة المجمع . ويقول المؤرخ الجبرتى :

> «حين يريد مسلم أن يزور المؤسسة لم يكن أحد يمنعه من ذلك ، بل على العكس كان يلقى الترحيب الشديد . . . وقد أتيحت لى أنا نفسى فرصة زيارة المكتبة حيث كان من بين ما فيها مجلد كبير عن سيرة نبينا (ص) وبدت ملامحه المقدسة فيه بأقصى ما تسمح به معرفة الفنانين . . . وكانت هناك أيضاً كثير من الكتب الاسلامية مترجمة إلى الفرنسية . . . وكان بعض الفرنسيين يدرسون العربية ويحفظون بعض آيات القرآن عن ظهر قلب .»

وبلغ التأثر بأساتذة الأزهر حد أنهم نشروا بين قادة القاهرة أقوالاً عن أن اهتمام الفرنسيين بالاسلام اهتمام حقيقى . وبدأوا يحضرون مناقشات لاهوتية فى المجمع بدعوة من بونابرت ، الذى لعب دور الباحث الملتزم عن الحقيقة ، والدارس غير المغرض . وحين اتضح لبونابرت أنه يحقق التقدم فى كسب احترام هؤلاء الناس حين يترأس مناقشات دينية أكثر مما يحققه من ارتداء الزى وأكل عيون الضأن ، قرر أن يستثمر هذه الميزة ، وتساءل أليس من المحتمل أن تكون النجاحات التى حققتها حملته دليلاً على رضا الله؟ ونجح فى الاستشهاد بفقرات من القرآن أمده بها علماؤه يمكن تفسيرها على أنها نبوءة بالغزو الفرنسى ، وتساءل أكان يمكن أن يكون ظافراً هكذا على حشود المماليك دون مساعدة النبى . وإذا كان الفرنسيون فى مصر بمباركة النبى ، ووفقاً لما تنبأ به ، أفليس على القادة الدينيين أن يصدروا فتوى ، تفسيراً للقرآن ، توجه شعبهم إلى أن يؤدوا قسم الولاء للفرنسيين ، حتى يمكن أن يصبحوا مواطنين مسالمين

للبلد الأم عبر البحار؟

وتباحث الأئمة والفقهاء قليلاً ، وردوا بأن الامارات قد تكون مواتية حقاً ، وأن يد النبى يمكن أن تتبين فى انتصارات يونابرت ، وأنه مازال على بونابرت أن يبدى عرفانه باعتناق الاسلام علناً؟ وعندئذ سيشرفهم أن يدعو المؤمنين إلى قسم الولاء . ومن المناسب بالطبع الا يكون القائد الأعلى وحده هو الذى يستجيب بهذه الطريقة الورعة وإنما الجيش الفرنسى بأسره .

ولم يكن بونابرت يعبأ كثيراً بالدين ، وكان مغرماً بالاستشهاد بعبارة هنرى الرابع : «ان باريس تستحق قداساً» وبالمثل كان على استعداد للارتباط بأى عقيدة تجعله سيداً لمصر ، وقد كتب يقول «هل من المتصور ألا تستحق الامبراطورية الشرقية ، وربما اخضاع آسيا كلها ، ارتداء سروال وعمامة» . غير أن اعتناق الاسلام كان يعنى أكثر من تغيير الزى . وكان هناك طقس أولى أساسى شعر بونابرت أنه لا يستطيع أن يدعو قواته له ، فهم على استعداد لأن يضحوا بحياتهم فى سبيله ، وليس بغففلتهم .

وحاول بونابرت أن يشرح ذلك للفقهاء ، فرغم استعداده للإيمان بالعقيدة الحقة فقد يستغرق الأمر بعض الوقت لكى تدرك قواته بركات الاسلام الكبرى التى تجعل من الختان استسلاماً بهيجاً . ومضى الفقهاء ليفكروا فى المسألة . وعاد أربعة منهم – هم أكبرهم – بفتوى بدت تمهد الطريق إلى تسوية ؛ فكاعتراف خاص بقصور التراث الحضارى يسمح للفرنسيين فى مصر بدخول الاسلام دون ختان . وقرئت الفتوى فى كل المساجد .

غير أنه كانت هناك عقبة أخرى : فسيسمح لأفراد الجيش بدخول حظيرة الاسلام سليمى الجسد ، لكن عليهم أن يتركوا شرب الخمور إلى الأبد ، وشعر الجنرال أن فرصته فى ابعاد قواته عن تعاطى الخمر لا تزيد عن ابعادهم عن الغلفة ، وعرض المشكلة على الأئمة . . وأعقب ذلك مزيد من المناقشات ، وعندئذ عرض اقتراح بامكان قبول الفرنسيين كمسلمين حقيقين لكنهم فاسقون ، محرومون ثقافياً من القدرة على السلوك الأخلاقى ، لكن الاقتراح لم يحظ بالتأييد . وفى النهاية تم التوصل إلى حل : يمكن السماح للقوات الفرنسية بخطاياها طالما وافقوا على دفع صدقة تبلغ خمس الدخل بدلاً من العشر المعتاد .

وتوقفت المناقشات فُترة ريثما يفكر بونابرت فى ذلك ، ولكن بغير جدية شديدة ،

فقد كان الجانبان بالطبع يتظاهران . كان بونابرت يعرف أن تأييد القادة الدينيين سيكسب له طاعة الشعب . وكان على استعداد تماماً لمحاكاة الاسكندر الأكبر ، الذى قيل أاه عبد ابن چوبيتر فى مقبرة آمون رع . ولم يكن لديه أى حرج بشأن الانتماء الروحى لقواته ، الذين - كما قال - لم يكونوا يتوجهون إلى الكنيسة فى إيطاليا ، ولم يبدوا اهتماماً بذلك فى مصر . وكان فخوراً بأن يكتب عن الجيش الذى يقوده أن «أى أثر للمسيحية ، بل فى الواقع لأى عادة دينية قد اختفى من صفوفه» . غير أنه حتى مع قبول التنازلات المقدمة فان تحولاً عاماً إلى الاسلام يتضمن خضوعاً لسلطة من خارج الجيش ، ومن ثم ينبغى رفضه .

أما عن قادة الأزهر الدينيين فلم تكن تخامرهم أوهام عن دافع بونابرت : لقد كسبت عبقريته العسكرية إحترامهم ، أما كقائد فلابد من مداورته . ولا شك فى غدره المتأصل . . . وتباعد الجانبان .

واضطر بونابرت إلى تغيير سياسته من التهدئة إلى الارهاب ، فقد كانت هناك حركات تمرد فى القاهرة ينبغى اخمادها ، وأصبحت أحكام الاعدام التى أمر بها من الكثرة حتى كتب له المحافظ دوجوا يقول «أصبحت عمليات اطلاق النيران فى القلعة من الاستمرار بحيث أقترح تعيين جلاد ، فسيوفر هذا طلقاتنا ، ويقلل الضوضاء» . ووافق بونابرت . وحين هددت الامراض التناسلية التى تنشرها البغايا بافناء القوات الفرنسية وافق على معالجة المسألة وفقاً للعرف المحلى ، وأمر بأن يغلق على الفتيات فى أجولة ويلقى بهن فى النيل .

ورغم أن شيئاً مما الحقه الفرنسيون بالسكان المحليين لم يكن يضارع بربرية المماليك فقد ظل المصريون يرفضون قبول الفرنسيين باعتبارهم سادة أفضل ، فقد كان المماليك مفهومين : انهم يقهرون العامة لزيادة أمنهم ورفاهيتهم ، وهذا شيء طبيعى وأمين ومتوقع . أما الفرنسيون فهم يبدون مخادعين : فهم يُبدون اهتماماً بالفلاحين المصريين ، وهو أمر خارج عن المألوف بالنسبة لجيش منتصر ، ويتحدثون عن المساواة والإخاء ، ويصرون على أن يدفعوا ثمن السلع والخدمات التى كان يمكن أن يأخذوها بالقوة . ومن الواضح أنهم لا يستحقون الثقة .

حتى إذا كان المجمع قد فشل فى أن يكون جسراً بين حضارتين فقد مضى فى عمله ، موسعاً حدود المعرفة ، ومحافظاً على المعايير المتحضرة . وحين قاد بونابرت

حملة على سوريا ضد المماليك صحب عدد من كبار العلماء القوات . وسمح لمونج وبيرتوليه - توقيراً لسنهما - بأن يرحلا في عربة الجنرال ، وقد دونا ملاحظات عن التاريخ الطبيعي للصحراء ، وجمعا الحشرات والعظاء والأفاعي والثدييات الصغيرة للمجمع ؛ ووجد المستشرق چوبير الالهام ليكتب ورقة عن «التعريف بالقبائل العربية المخيمة بين مصر وفلسطين» . وفي الاجتماع نفسه استمعوا إلى ورقة من بيرتوليه عن «فعل مركبات الكبريت القلوية والفسفور» و«محاكاة شعرية لقصيدة بقلم جيسر»[1] ، وعرض چيوفروى دى سانت هيلارى دراسة تفصيلية عن أسماك النيل التي رسمها زميله ريدوت ، وقدم فورييه العرض الأول في العالم لنظرية جبرية جديدة ، وعلق الفلكي نويه على الأساليب المختلفة لقياس الزمن . غير أن اجتماع المجمع الذي أثر تأثيراً على غد علم المصريات عقد في ١٩ يوليو ١٧٩٩ حين قرئت رسالة من المواطن لانكريت عضو المجمع يتحدث فيها عن «اكتشاف نقوش قد تكون شديدة الأهمية في رشيد» .

ففي عام ١٧٩٩ كان الكابتن بوشار - الضابط بسلاح المهندسين - يحفر لوضع أساسات موقع دفاعي سمي فورت سان جوليان على ضفة النيل الغربية حين لاحظ وجود حجر كبير من البازلت الأسود على وجهه كتابات راقداً في الطين . وحين نظفت الصخرة بدا أن الكتابات تنقسم إلى ثلاثة أجزاء منفصلة ، أدناها باليونانية ، والثاني بحروف مجهولة ، والثالث بالهيروغليفية . وإذا اتضح أن الكتابات هي ترجمات لنفس النص بلغات مختلفة فقد يوفر هذا الحجر مفتاحاً لكشف سر الهيروغليفية . وحدد علماء الفيلولوجيا في المجمع أن الشريط الأوسط من الكتابات هو «حروف متصلة باللغة المصرية القديمة» ، وتبينوا وجود كلمات مصرية في الشريط اليوناني . لقد اتخذت الخطوة الأولى نحو أكبر تقدم في المعرفة في تاريخ علم المصريات .

وبعد شهر من قراءة الرسالة استقل بونابرت زورقاً صغيراً في النيل بعد قليل من منتصف الليل ، وأبحر إلى الاسكندرية ، حيث انتقل إلى سفينة أقلته إلى فرنسا . كان قد تلقى أنباء بأن الجيش الفرنسي في إيطاليا يتقهقر ، وكانت مالطة محاصرة ، والموقف السياسي في باريس - تحت سيطرة الديركتوار المهتزة - يتدهور .

(٥) شاعر ورسام سويسري ، ولد في زيورخ (١٧٣٠ - ١٧٨٨) كتب كثيراً من القصائد الرعوية التي كانت بشيراً بالرومانسية ورسمها بنفسه - المترجم .

لقد أوشك حلم الامبراطورية فى مصر على الانقضاء ، وظل يتلكأ والجنرال كليبر يحاول أن يتبع التعليمات المفصلة التى تركت له : استكمال استعمار مصر خلال ما وعد بأنه فترة غياب قصيرة لقائده ، فقد كتب له بونابرت يقول «سأصل إلى باريس ، وأطرد هذه العصابة من المحامين التى تسخر منا ، والعاجزة عن حكم الجمهورية ، وأعزز هذه المستعمرة الرائعة» . ووعد بارسال تعزيزات حالما يصل إلى فرنسا ، ولكنه سرعان ما وقع فى اسار طموحات أخرى . ولم تصل التعزيزات أبداً ، فقد نسيت مصر .

وسرعان ما وجد كليبر نفسه تحت هجمات الأتراك والبريطانيين ، ونجح فى التفاوض حول سلام مشرف يسمح للفرنسين بمغادرة مصر حاملين أسلحتهم ، لكن تهدئة الحكومة الانجليزية لم تكن أمراً سهلاً فرفضت الاتفاق . وتطلب الأمر ثمانية عشر شهراً آخر من القتال المتقطع قبل أن تجبر القوات البريطانية والتركية المشتركة الفرنسيين على قبول شروط أقسى فى ربيع عام ١٨٠١ .

وكانت المادة السادسة عشرة هى أهم حكم فى معاهدة الاستسلام بالنسبة لتاريخ علم المصريات ، فهى تقرر أن تصبح كل مجموعات المجمع غنيمة للبريطانين ، وحاول أعضاء المجمع أن يهربوا بمجموعاتهم إلى فرنسا ، لكن السفن البريطانية أعادتهم ، فقالوا ان مجموعات المجمع لا يمكن أن يفهمها العالم دون معارف من جمعوها ، وأنها جريمة أن يفصل العلماء عن مادتهم الأولية ، وهى جريمة لن يغفرها العالم ، وأعلنوا أنه «أفضل من أن نسمح بهذا النهب الجائر الهمجى أن نحرق ثرواتنا بأنفسنا . . . انكم تسعون إلى الشهرة . . . حسناً ، بوسعكم أن تعتمدوا على ذاكرة التاريخ القوية : فأنتم بدوركم ستكونون قد أحرقتم مكتبة اسكندرية أخرى» .

ولم يستطيع الجنرال مينو - فقد كان كليبر قد اغتيل - أن يفهم فيم هذه الضجة كلها . وكتب إلى الجنرال هاتشنسون يقول «علمت لتوى أن بعض جامعى المجموعات يودون أن يشحنوا بذورهم أو معادنهم أو فراشاتهم أو زواحفهم حيثما اخترت أن تشحن أمتعتهم ، ولا أعرف ما إذا كانوا يريدون أن يحشوا أنفسهم بها . . لكنى أستطيع أن أؤكد لك أنه إذا راقت لهم الفكرة فلن أمنعهم» . وفى النهاية تم التوصل إلى حل وسط ، وسمح للفرنسيين بالاحتفاظ بمعظم المجموعة وشحنها إلى فرنسا . واحتفظ الجنرال هاتشنسون بحجر رشيد - الذى كانت قيمته قد اتضحت وان ظلت كتاباته غير محلولة - وأهداه إلى چورج الثالث الذى تنازل عنه دون فهم إلى المتحف

البريطانى ، غير أن الصلة الفرنسية لم تقطع : فقد كانت لدى العلماء نسختهم الخاصة فى باريس .

لقد فشل الفرنسيون فى اقامة امبراطورية فى مصر ، وكان تهديدهم للبريطانيين فى الهند قصير الأجل . وأنتهت المغامرة دون تحقيق ميزة عسكرية وان كانت سلطة المماليك قد تمزقت . غير أن شيئاً هائلاً قد تحقق : فللمرة الأولى أصبحت مصر مفتوحة أمام أبحاث المؤرخين وعلماء الآثار . ووفر لهم المجمع دليلاً ضخماً . وإذا كان الفرنسيون قد عجزوا عن فتح مصر ، فقد نجحوا نجاحاً رائعاً في وصفها فى ذلك العمل الهائل «وصف مصر» الذى نشر فى باريس فيما بين عامى ١٨٠٩ و١٨٢٨ فى ثلاثة عشر مجلداً من اللوحات الرائعة ، وعشر مجلدات أخرى من الكتابات .

وإذا كان بونابرت قد أرسى أسس علم المصريات فقد انغمس كذلك فى ممارسة عرقلت تطوره ، فقد حمل معه وهو يغادر مصر سبعة قطع أثرية صغيرة ليهديها إلى جوزفين التى وضعتها فى ماليزون . وعرض أحدها – وهو تمثال من الدولة الوسطى لمصرى جالس – للبيع بعد قرن ، واشتراه لورد أمهيرست أو هاكنى ، وفى عام ١٩٢١ اشتراه بارون الصحافة الامريكية ويليم راندولف هيرست من مزاد أمهيرست وانتهى به الأمر إلى متحف بروكلين . لقد بدأ فى حماس نهب كنوز مصر .

الفصل الثاني

ميدان النهب

قبل أن تصبح متابعة استكشاف وادى النيل ممكنة كان لابد من تهيئة البلاد ، وحين رحل الفرنسيون كانت سلطة المماليك قد تزحزحت لكنها لم تدمر ، وتدخلت الحكومة التركية لانجاز هذه المهمة . وبعث الأتراك رسائل إلى البريطانيين لطمأنتهم ، وتعليمات أكثر تقليدية للأميرال الأعلى حسين باشا . ودعا الأخير قادة البكوات المماليك لحفل على متن سفينة قيادته ، وبدأ فى إطلاق النار عليهم وهم يعبرون خليج أبى قير فى زوارق مكشوفة .

وتدخل الجنرال هاتشنسون ، قائد القوات البريطانية ، لمنع المذبحة المنظمة للمتبقين ، بل حتى طالب باطلاق سراح المسجونين . وكان واضحاً أن المسألة لا يمكن أن تسوى والبريطانيون قريبون . وفى مارس ١٨٠٣ غادروا المنطقة وكان الممثل الرسمى البريطانى الوحيد هو القنصل - الكولونيل ميسيت - الذى ترك فى الاسكندرية ومعه تعليمات مشددة :

. . . بأن يرسل إلى الحكومة البريطانية معلومات حقيقية عن الأحداث التى ستجرى فى مصر العليا والدنيا أثناء هذا النزاع على السيطرة الذى يتوقع أن يدور بين المماليك والأتراك حين لا يعود أى من الطرفين يتهيب وجود جيشنا ، وحين تضيع من ذاكراتهم النصيحة الحكيمة للقائد البريطانى ، التى وجهت إليهم بروح مستقيمة نزيهة ، والتى ساندها سلوك هادئ توفيقى كريم .

وحين اتجه الناصح الموقر فى أمان عائداً إلى لندن ، لم يتبق أمام الوالى التركى

محمد خسرو الا أن يحشد قواته ويتوجه جنوباً على طول الوادى لمواجهة أخيرة مع قوات المماليك ، لكن قواته - التى كانت تتألف أساساً من المرتزقة الألبان الذين تأخرت رواتبهم - رفضت السير ، وحين رد الوالى على مطالبهم باطلاق النار عليهم من القلعة ، عصفوا بالمكان وطردوه منه .

واتبع خليفته سلوكاً أسوأ ، فقد تولى طاهر باشا قيادة قوة من القرات التركية الموالية ، لم تستمر سوى ثلاثة وعشرين يوماً قبل أن ينفد صبرها بدورها من تأخير تسوية متأخراتها وتغتاله . وكان لابد من «ركن» مسألة التدمير النهائى للمماليك إلى أن يسوى أولئك الذين أرسلوا لينجزوها خلافاتهم .

وأعقبت ذلك فترة من الحرب الأهلية حارب خلالها الألبان الأتراك (١٨٠٦ - ١٨٠٩) ، وشن المماليك خلالها غارات متقطعة على الجانبين ، كانت فترة من الفوضى أنهاها - كما يحدث كثيراً - رجل قوى وصل إلى السلطة بالتلاعب بالأجنحة المتحاربة وإثارة أحدها على الآخر .

وكان محمد على - وهو ابن فلاح ألبانى - قد جاء إلى مصر قائداً لقوة من المرتزقة الألبان . وقد أيد كلا من الأتراك والمماليك أثناء الحرب الأهلية ، وأرسى نفسه فى النهاية سلطة مستقلة فى القاهرة ، ومعه قوة تبلغ ١٠٠٠ البانى . وأعلن أنه لا يهمه سوى صيانة القانون والنظام فى العاصمة . وفى عام ١٨٠٥ شعر محمد على بأن فى وسعه أن يخطو الخطوة التالية : فقام - بتأييد المشايخ المصريين - بالقاء القبض على الوالى التركى ، وبعث رسالة ودية إلى الآستانة قائلاً انه يتولى المسئولية كاجراء مؤقت فحسب لحفظ النظام . وفى العام التالى قام الباب العالى - الحكومة التركية التى تراكمت لديها خبرة قرون من قصور الحكم عن بعد ، واكتسبت القدرة على قبول ما لا تستطيع تغييره - بتعيين محمد على والياً لمصر .

وكان المماليك قد طردوا على طول النيل إلى جنوب مصر ، ولذا لم يستطيعوا أن يمدوا يد العون حين هبطت قوات الحملة الانجليزية فى عام ١٨٠٧ لاعادتهم إلى السلطة . ولم يأت هذا التدخل نتيجة ثقة البريطانيين فى قدرات المماليك الادارية بقدر ما جاء عن رغبة فى توجيه ضربة إلى الأتراك الذين وقفوا إلى جانب نابليون فى أوروبا ، وأرسل محمد على - الذى كان فى حملة ضد البكوات فى ذلك الحين - رسالة لهم يعدهم فيها بالاستجابة لكل مطالبهم إذا انضموا إليه فى طرد الغزاة .

وحطمت القوات المشتركة البريطانيين فى الاسكندرية ، ثم أجبرت من تبقوا منهم على السير إلى القاهرة وهم يحملون رؤوس رفاقهم القتلى ، التى علقت على رؤوس الرماح حول ميدان الأزبكية .

وكان المماليك منقسمين بين حلفاء محمد على ، الذين يقفون ضد البريطانيين ، ومن يتطلعون إلى البريطانيين لاستعادة سلطتهم السابقة فى مصر . وظلت هناك مناوشات متقطعة حول القاهرة ، وقرر محمد على تغيير تاكتيكاته ، فدعا المماليك فى القاهرة إلى حفل تكريم لابنه الذى عين قائداً للجيش . وبعد أن تناول المماليك القهوة فى القلعة اقتيدوا فى موكب عبر طريق منحدر ضيق يقود إلى البوابة الرئيسية وأمامهم حرس شرف وخلفهم حرس شرف ، وما أن عبرت القوات الألبانية التى كانت تتقدم المماليك البوابة حتى أغلقت على المماليك ، وتسلق الألبان الجدران وبدأوا فى اطلاق النار عليهم ، وقتل المماليك الأربعمائة وسبعين جميعاً ، باستثناء واحد تقول القصة انه امتطى جواده راكضاً نحو المتاريس ووثب من فوقها وقتل الحصان من القفزة ، وعاش راكبه .

وأصبح محمد على الآن مسيطراً تماماً على البلاد ، فقد هزم البريطانيين وكسب تأييد المصريين ، وأخذ السلطة من الأتراك ، وحطم المماليك . ودانت له السلطة المطلقة . وكتب ادوار ليد أحد الرواد الانجليز يقول : «ان بوسعه أن يأمر باعدام أحد رعاياه دون شكليات المحاكمة ، أو دون أن يحدد سبباً ، وتكفى اشارة أفقية من يده لتعنى حكماً بقطع الرأس» .

وحالما أرسى محمد على سلطته بدأ فى تحويل مصر إلى دولة حديثة ، كان بوسعه أن يتولى دور المستبد العادل . وقد قال لأحد رواده الأوربيين متحدثاً عن معاركه الأولى «لا أحب هذه الفترة من حياتى . وماذا يستفيد العالم من سرد هذا النسيج الذى لا ينتهى من القتال والبؤس والدهاء والمذابح الذى أجبرتنى عليه الظروف؟ . . . . فلن يبدأ تاريخى الا فى الفترة التى أستطيع فيها - وقد تحررت من كل القيود - أن أوقظ هذه البلاد . . . . من سبات العصور» .

وتطلع محمد على إلى الغرب فى محاولته لتهيئة مصر للعالم المعاصر . وكان مغرماً بتشبيه نفسه بنابليون ، وكثيراً ما لفت الأنظار إلى أن القائدين العظيمين ولدا فى العام نفسه . وقد حاول نابليون تحديث مصر ، وكرس محمد على نفسه لمواصلة هذه

المهمة ، واستدعى غربيين للمساعدة في تنظيم اقتصاد البلاد . ولقى التجار الغربيون الترحيب ، وأخيراً شجع محمد على اقامة القنصليات لحماية مصالح الأجانب فى مصر . ومن خلال هذه الخطوات انتقل الصراع الانجليزى الفرنسى من ميادين القتال فى أوروبا إلى وادى النيل ، حيث شن بالقدر نفسه من الضراوة ، وإنما بدهاء أكبر ، ودماء أقل .

وخلال فترة صعود محمد على الطويلة كان النشاط القنصلى قليلاً فى مصر ، وأساساً لأنه لم تكن هناك سلطة مستقرة يمكن الارتباط بعلاقات دبلوماسية معها . الا أن الدول العظمى احتفظت بممثلين انشغلوا بشئون أخرى . وعلى سبيل المثال الكولونيل ميسيت الذى ترك فى عام ١٨٠٣ كمراقب نزيه للبريطانيين والقنصل الفرنسى برناردينو دروفيتى . وكان أكثر الأثنين انشغالاً - وهو دروفيتى - هو الذى أرسى نموذج الأنشطة غير القنصلية ، إذ أصبح أكثر جامعى الآثار تنظيماً ونشاطاً فى عصره .

وكان دروفيتى - الذى ولد فى بيرمونتيز - رجلاً خشناً ذكياً واسع الحيلة . وقد درس القانون قبل أن يلتحق بالجيش الفرنسى ، وعمل كولونيلاً مع بونابرت فى مصر ، وعند عودته إلى أوروبا فى عام ١٨٠١ فى سن الخامسة والعشرين عين قاضياً عسكرياً فى تورينو . وفى العام التالى عاد إلى مصر نائب قنصل فى الاسكندرية . وحين اعترف الأتراك بنابليون امبراطوراً لفرنسا رد البريطانيون بدعم المماليك فى الاسكندرية . وانتقل دروفيتى إلى القاهرة ليعمل على دعم المعارضة التى سرعان ما تمثلت فى محمد علي . لقد ساند الفائز ، وحين سيطر محمد على على البلاد كان دروفيتى قد تأكد حليفاً وصديقاً .

وكانت النتيجة العملية لذلك هى سيطرة دروفيتى لفترة على عمليات التنقيب فى وادى النيل . وكانت عمليات الحفر السابقة قد جرت بصورة عشوائية ، لكن محمد على قضى بألا يسمح بالحفر الا لمن حصلوا على تصريح صريح منه فى شكل فرمان أو رسالة ترخيص . وكان دروفيتى مسئولاً عن تقديم طلبات الفرمانات إلى الباشا ، وبذا كان قادراً على عرقلة أى منافسين له . وقد اقتنى مجموعة شخصية كبيرة أثناء عمله فى مصر ، كان يبتهج بعرضها على الزوار ، معلناً أنها ذات يوم ستشترى متاحف باريس .

ولم يكن الكولونيل ميسيت - الذى كانت صحته سيئة طيلة خدمته فى مصر وأصيب بالشلل فى الفترة الأخيرة منها - منافساً خطيراً لدروڤيتى . الا أنه عند استقالة ميسيت فى عام ١٨١٥ وصل إلى مصر ليحل محله رجل كلف بجمع الآثار للمتحف البريطانى ، لقد بدأ السباق على كنوز النيل .

كان هنرى سالت نتاجاً لعصر الوصاية ، ولأن صعوده جاء بمداورة الأرستقراط والمسئولين بطريقة لم يعد يعترف صراحة بأنها طبيعية فان مؤرخى مصر المحدثين لم ينظروا له بعين الرضا .

كان هو الشقيق الأصغر بين ثمانية أبناء لطبيب من ليشفيلد مكنته ممارسته - على حد تعبير كاتب سيرة سالت - «من أن يراكم كفاءة طيبة» أنفق جزءاً منها فى دعم هنرى الصغير كرسام بورتريهات غير ناجح فى لندن . وتغيرت مقادير سالت حين لقى ذات يوم لورد ڤالينسيا- ابن ايرل فوتينوريس ووريثه - يطوف برواق فوسيلى فى بول مول وبصحبته وصيه الأب توماس بوت . وبالصدفة كان الأب بوت هو خال هنرى ، وهكذا وجد الشاب فرصة التعرف بالأرستقراطية ، فاسرع بتقديم نفسه ، وقبل فى الدائرة الخارجية لهذه الأسرة .

وفى عام ١٨٠٢ أعلن لورد ڤالينسيا أنه يعتزم القيام برحلة إلى الهند ، وأسرع هنرى سالت بالكتابة له طالباً أن يصحبه معه كسكرتير / رسام . ورد اللورد بأنه ليس فى الواقع فى حاجة إلى أى منهما ، ولكن نظراً لوضع الشاب التعس ورغبته فى ترك العمل الذى كان يعمل فيه حينئذ ، فان بوسعه أن يأتى ، ورحلا معاً أربع سنوات ، وأثناء الرحلة قضيا بعض الوقت فى الحبشة ، وحين عادا ، وأوصى اللورد ڤالينسيا بأن تجرى بريطانيا مفاوضات تجاريه مع الحبشة ، أرسل هنرى سالت إلي هناك حاملاً هدايا من ملك بريطانيا العظمى إلى الامبراطور . وتأكدت أوراق اعتماده كممثل بريطانى فى الشرق الأوسط .

وبعد عودة سالت إلى لندن قضى بضع سنوات يدون رحلاته ، ويتحدث فى مآدب عن خبراته ، لكن انجلترا لم تكن تناسبه ، وكان يعانى المرض على الدوام ، وحين سمع أن الكولونيل ميسيت - القنصل العام فى مصر - قد استقال لسوء صحته رأى فرصته ، وسعى إلى الوظيفة . وكانت استراتيجيته هى أن يطوف بلندن طالباً من معارفه ذوى النفوذ أن يوصوا به لدى وزير الخارجية اللورد كاستلرى . وكان من بين

مسانديه اثنان هما اللورد ڤالينسيا والسير چوزيف بانكر رئيس الجمعية الملكية فى ذلك الحين . وتكللت ضغوط سالت بالنجاح ، وحين عين أعرب عن امتنانه بوعد للسيدين بأن يجمع الآثار لهما . وكان اللورد ڤالينسيا يريد تزيين مقر الأسرة فى آرلى هول ، والسير چوزيف بانكر على ثقة من أن أى شئ قد يلتقطه سالت من وادى النيل سيرحب به المتحف البريطانى الذى كان أحد أمنائه . وحث ويليم هاملتون - أحد وكلاء وزارة الخارجية الذى استفاد سالت كذلك من رعايته - سالت على أن يبحث عن حجر رشيد آخر ، وقال له مشجعاً : «أياً كانت تكاليف المهمة فستتحملها بترحيب أمة مستنيرة ، حريصة علي أن تسبق منافسيها فى متابعة أسمى مصالح العلم والأدب» .

وبعد ضمان المنصب لم يبق أمام سالت الا أن يجد زوجة تقاسمه أعباء وضعه الدبلوماسى . وركز على وريثة من بريمنجهام تنتظرها ثروة كبيرة . وتودد إليها بشخصه وأشعاره رغم تحفظات والدها . لكن سالت أجبر على أن يبحر إلى مصر وحيداً ، فلا الأب ولا الابنة رأى من المناسب أن تتعرض شابة من علية القوم لعسر العيش فى القاهرة بعد كل المباهج التى يمكن أن توفرها بريمنجهام .

وكان بوسع دار الأعزب التى أقامها سالت فى القاهرة فى عام ١٨١٦ أن تصلح حتى لوريثة من بريمنجهام ، فقد قام بتعيين العاملين اللازمين للحفاظ على مركزه الاجتماعى ، وكان لديه سكرتير «أزوده بكل شئ» . ولما كان أجره خمسين جنيهاً فى السنة فقد كتب إلى لندن شاكياً من أن المحافظة على الأساسيات الدنيا الجديرة بقنصل يكلفه كل راتبه ، وكان بحاجة إلى دخل اضافى ، وكانت جهوده للحصول عليه فاتحة فصل جديد فى تاريخ علم المصريات .

ولسرقة المقابر فى مصر تاريخ قديم شائن ، فلما كان المتبع هو دفن الملوك والنبلاء بأغلى ممتكاتهم كان أول الأحياء استفادة من الموتى هم العمال الذين يدفنوهم ، وكثير من أوراق البردى القديمة تسجل اجراءات قانونية ضد منتهكى القبور . ويذكر تحقيق رسمى أجرى فى عام ١١٣٠ قبل الميلاد :

هذه هى القبور والتوابيت التى يرقد فيها الشيوخ المباركون والنساء وأبناء الأرض التى تقع غرب المدينة : وقد وجد أن اللصوص اقتحموها جميعاً ، وأنهم انتزعوا شاغليها من الاكفان والتوابيت ، وألقوا بهم فى الصحراء ، وأنهم سرقوا قطع الأثاث

التى وضعت معهم ، والذهب والفضة والحلى التى كانت فى التوابيت .

وخلال القرنين السابع عشر والثامن عشر اعتاد السادة المترفون أن يجوبوا الأرض الأجنبية ، جامعين المنوعات ليملأوا بها خزائن الطرائف فى دورهم ، وليثيروا عجب أصدقائهم . ولم يقلل هذا إلى حد خطير مخزون الكنوز الهائل فى وادى النيل ، لكن الشهية زادت فى القرن الثامن عشر . وفى الوقت الذى استقر فيه سالت فى القاهرة كانت هناك تجارة مزدهرة فى الآثار الحقيقية والمزيفة .

كتب چان چاك رينو ، وهو نحات فرنسى وصل إلى مصر فى عام ١٨٠٥ وقضى أربعين عاماً ، أن العرب كانوا يشعرون بالحيرة من القيمة العالية التى يضفيها الأجانب على قطع قديمة عديمة الجدوى من الحجر والتماثيل . وتوصلوا إلى تفسيراتهم الخاصة لذلك : فالبعض قال ان المنقبين من الوثنيين الذين يعبدون الآلهة القديمة ، لأنهم رأوهم يربتون على التماثيل ، ولأنهم أحياناً ما يرطبون الحجر بألسنتهم ليحددوا تكوينه ، فقيل انهم يقبلون أصنامهم سراً ، فى حين ذكر آخرون ممن حيرهم الجهد والنفقات التى يقدمها الأوربيون ليحصلوا على شظايا أن المرمريات القديمة تحوى ذهباً ، وأن المنقبين قد اكتشفوا سر استخراجه .

ووجد سالت عند وصوله أن شراء الآثار أصبح صعباً لأن الطلب تجاوز العرض مؤقتاً . وفى ذلك الحين كان دروڤيتى فى جولة فى مصر العليا يشترى كل ما يمكن أن يجده لمجموعته الخاصة التى فحصها سالت وأعلن أنها تساوى ٤٠٠٠ جنيه . ولم تكن هناك فى ذلك الحين قيمة سوقية متفق عليها للآثار المصرية ، وسيثير هذا فيما بعد تعقيدات هائلة فى حياة سالت المهنية ، لكنه عرف منذ أسابيعه الأولى فى مصر أنه يستطيع أن يحقق المال من التنقيب . وكان بحاجة إلى المال ، فكتب إلى راعيه الأرستقراطى الذى كان قد ورث لقب ايرل أوف مونتنوريس يقول :

لقد اتخذت كل وسيلة ممكنة للجمع ، ويسرنى أن أقول أننى كنت ناجحاً للغاية ، بحيث سأستطيع أن أرسل لكم فى الربيع شحنة من أشياء لم يسبق أن رأيتموها . غير أن على أن أبلغكم أننى مشدوه بآفاق العمل الذى مازال ممكناً القيام به فى مصر العليا بحيث أشعر بأننى لا أستطيع أن أمتنع عن تكوين مجموعة لنفسى ، ولكن ثقوا أنكم ستحصلون على نصيب طيب ، ورغم أن مجموعتى قد تمنع مجموعتكم من أن تصبح فريدة ، الا أنكم تستطيعون أن تثقوا من حقكم فى الخيار إذا تخليت عنها ،

وتركها لكم إذا مت . وفى المرحلة الأولى اضطررت إلى إنفاق الكثير لكى أبنى لنفسى اسماً .

وكان بناء الأسم يعنى تنحية دروفيتى عن احتكاره لتجارة الآثار ، وكان دروفيتى قد عين وكلاء فى كل المواقع الرئيسية بطول وادى النيل ، ومعهم تعليمات بتثبيط كل محاولة للحفر دون اذن من القنصل الفرنسى ، وادعى حقوقاً منفردة على كل المواقع التى زارها . ومن حسن حظ سالت أن دروفيتى كان قد أمر بالانتقال إلى الاسكندرية قبل وصوله بقليل ، مما ترك سالت مطلق اليدين فى استغلال معرفة سابقة له بمحمد على ترجع إلى زيارة سابقة لمصر بصحبة لورد ڤالينسيا . وسرعان ما ذكر أن الأمور بينهما تسير سيراً طيباً ، وأن النفوذ الفرنسى فى حالة جزر ، لأن الباشا «لا يكاد يستمع إلى أى عروض أخرى غير تلك التى أمثلها . . . . ويلجأ التجار فى كل طارئة إلى وساطتى الحميدة لصالحهم» ، والأجانب الذين ليس لهم قنصل فى مصر يطلبون منه باستمرار «السماح لهم بالانضواء تحت رايتنا» . وكانت النتيجة هى أن القنصلين اتفقا على اقتسام الغنائم فيما بينهما ، فتكون الضفة الشرقية من نصيب دروفيتى والضفة الغربية من نصيب سالت . وقد كتب المستكشف ريتشارد بيرتون فيما بعد يقول «كانت أراضى النيل حينئذ - كما هى الآن - ميداناً للنهب ، والثروات تكوّن بالحفر ، لا بحثاً عن الذهب وإنما عن الآثار ، وأصبح ميدان الآركيولوجيا ميدان قتال بين جيشين من التراجمة والفلاحين وعمال التراحيل ، أحدهما على رأسه سالت الرهيب والآخر تحت قيادة دروفيتى . . . .» .

ورغم أن سالت قد تخلف عقداً عن دروفيتى فى دخول سوق الآثار فانه سرعان ما لحق به ، وجاء ذلك أساساً من خلال جهود أحد المعارف المستخدمين الزملاء - فالوصف الدقيق غير واضح لكنه سيصبح بالغ الأهمية - وكان سالت قد أعطاه عملاً حين ضاق به الحال ذات مرة ، وأصبح واحداً من أشهر الشخصيات فى تاريخ علم المصريات : «العملاق الصامت» ، «فتوة السيرك» ، «شمشون الباتاجونى» - چيوفانى باتيستا بلزونى :

ولد بلزونى فى بادوا فى عام ١٧٧٨ لوالد حلاق ، وأنفق شبابه فى انجلترا يعمل فى الأسواق والمسارح ممثلاً وساحراً وفتوة . وظهر سيرك سادلر فى ١٨٠٣ مع جريالدى - المهرج الشهير - فى دور العملاق الذى قتله جاك ، كما قدم استعراضات للقوة . وكان العلم الأقل جهداً ، والأكثر أهمية بالنسبة لمهنته فى المستقبل هو تقديم

«درامات مائية» على مسرح قرب التايمز ، تتقاتل فيه نماذج سفن فى أحواض من المياه الحقيقية بينما تعمل نوافير ملونة .

وفى ربيع عام ١٨١٥ كان بلزونى يقيم فى مالطة مع زوجته سارة وصبى أيرلندى هو چيمس كيرتن حين التقى بأحد وكلاء محمد على - ويحمل اسماً غريباً هو الكابتن اسماعيل جبل طارق - الذين كانوا يبحثون عن فنيين غربيين للمساعدة فى الخطة الكبرى لتحديث مصر . وطيلة ألف عام كانت أكبر مشكلات البلاد هى الرى ، وخطر لبلزونى فجأة أنه الرجل الذى يحمل الحل ، فقد أحس بأنه يستطيع - باستخدام معلوماته عن الهيدروليكا المسرحية - أن يصمم عجلة مياه يمكن انتاجها على نطاق واسع ، وتوسع المساحة القابلة للزراعة فى وادى النيل . وبلغ من التأثير على وكيل الباشا إلى حد أنه بقدوم أغسطس التالى كان مقيماً فى منزل فى القاهرة ، ويتلقى راتباً من محمد على يبلغ ١٠٠ دولار اسبانى شهرياً (حوالى خمسة وعشرين جنيهاً) ، وترك ليعمل فى اختراعه .

واستغرق الأمر حتى ربيع عام ١٨١٦ قبل أن يحضر محمد على اختباراً لعجلة بلزونى . وعملت العجلة جيداً حين جرها ثور ، وقدر الباشا أنها تفضل العجلات القديمة أربع مرات ، ثم طلب أن يعرف ماذا يمكن أن يحدث لو جر العجلة رجال . وقفز اثنى عشر عربياً وفى أعقابهم كيرتن إلى داخل الاسطوانة . وحين بدأت العجلة تدور قفزوا جميعاً إلى الخارج ، فقد أدار ثقل الماء الاسطوانة إلى الخلف والقى بكيرتن إلى الخارج ، حيث كسرت رجله ، وكان هذا نذير شؤم ، لقد فشلت التجربة .

وشعر بلزونى باليأس : فقد كان راتبه متأخراً خمسة شهور ومن غير المحتمل أن يدفع ، ولديه زوجة وصبى مكسور القدم عليه أن يرعاهما ، وما من وسيلة ممكنة لكسب المال . وكتب أحد أصدقائه يقول «يكفى حديثاً عن تشجيع الباشا للفنانين الأوربيين ، فمبعوثوه فى منطقة البحر المتوسط يغرونهم بخدمته ، لكنهم سرعان ما يتركون ليندبوا سذاجتهم» .

وكان هذا الصديق هو المستكشف السويسرى چون لويس بيركهارد ، الذى درس العربية فى كمبريدچ ، وقام برحلات واسعة فى الشرق ، وهو يرتدى الزى العربى باسم الشيخ ابراهيم . وكان قبل ثلاث سنوات من لقائه ببلزونى قد قام بزيارة لمصر العليا ، وقضى عدة أيام فى طيبة ، حيث رأى تمثالاً هائلاً راقداً فوق الرمال فى معبد

متهدم . وكان ويليم هاملتون راعى سالت قد وصف هذا التمثال بأنه «بالتأكيد أجمل وأكمل تمثال مصرى يمكن رؤيته فى البلاد بأسرها» . وأخبر السكان المحليون بيركهارد بأن الفرنسيين حاولوا أخذ التمثال لكنهم لم يستطيعوا تحريكه ، فقد كانت الرأس تزن نحو سبعة أطنان ، وترقد فى رمال ناعمة .

وعزم بيركهارد على نقل الرأس ، واقترح على سالت أن يتحملا معاً نفقات النقل ويهديا الرأس إلي المتحف البريطانى . وكان بلزونى هو الوكيل الواضح لهذه المهمة .

ولم يكن بلزونى يفتقر أبداً إلى الثقة بالنفس ، فحين سمع عن مشروع نقل رأس التمثال قرر أنه الرجل الذى يستطيع أداء المهمة : فقد كان قوى البدن ، ويعتبر نفسه مهندساً ، ورجلاً يعرف المخترعات الميكانيكية . ولم يكن يحتاج الا إلى المال للنقل والعمل والمعدات . وكان واضحاً أن هنرى سالت القنصل الجديد هو الرجل الذى عليه أن يتوجه إليه فهو يملك النفوذ ، ويستطيع أن يجمع المال ، ويحاول أن يرسى قدميه فى ميدان الآثار .

ووافق سالت على المشروع بسهولة ، وأصدر تعليماته لبلزونى بالبدء فيه . وكان على بلزونى أن يجهز المعدات اللازمة فى بولاق ، ثم يتوجه إلى أسيوط حيث يقدم طلب ترخيص إلى ابراهيم باشا ابن محمد على ، الذى سيزوده بالعمل اللازم والقوارب ، ثم عليه بعد ذلك أن يتوجه إلى طيبة حيث «لا يدخر جهداً أو نفقات» فى نقل الرأس إلى ضفة النيل . وينتظر إذا لزم الأمر إلى أن يرتفع النهر قبل أن يحاول شحنه فى قارب . وتلقى تعليمات تفصيلية عن كيفية تحديد الرأس ، وتحذيرات من أن يخلط بينها وبين رأس أخرى أدنى كثيراً ترقد قرب الموقع . وأخيراً قيل له «سيتفضل السيد بلزونى باعداد حسابات مفصلة للنفقات التى يتحملها فى هذه المهمة ، التى ستسدد له بسرور إلى جانب نفقاته الأخرى ، ونحن على ثقة بحكم معرفتنا بشخصية بلزونى من أنها ستكون معقولة بقدر ما تسمح الظروف» .

وفى ذلك الوقت بدا بلزونى سعيداً وشاكراً بما يكفى . كما تلقى ١٠٠٠ قرش أخرى (نحو خمسة وعشرين جنيهاً) من سالت لشراء أى آثار يمكن أن يجدها . وكان يفترض - بحكم عمله مع القنصل البريطانى - أن هذه الآثار ستمتلك رسمياً وتشحن إلى المتحف البريطانى ، فبشكل ما كان لسلب المواقع القديمة سمة الاحترام حين تتم لصالح دولة لا لحساب فرد .

ومضى بلزونى إلى بولاق وشحن المعدات اللازمة : أربع عشرة عارضة خشبية مربعة ، وأربع بكرات كبيرة مصنوعة من جذوع النخيل ، وعدة أطوال من حبال النخيل ، ثم أبحر مع زوجته وجيمس فى النيل فى أرخص زورق ممكن ، ومعه مترجم قبطى مغرم بالشراب وحارس مسلح وطاقم من خمسة أفراد ، فقد كان على وشك أن يواجه للمرة الأولى الأخطار - الطبيعية والبشرية - لتجارة الآثار فى وادى النيل .

وبعد خمسة أيام وصلوا إلى منفلوط حيث قابلوا ابراهيم باشا فى طريقه عبر النيل إلي القاهرة . وكان معه دروفيتى الذى كان يزور وكلاءه فى مصر العليا ويتفاوض لشراء آثار لإثراء مجموعته . وقد تعامل الرجلان فى ود ، رغم أن دروفيتى لا يمكن ان يكون قد سره أن يرى منافسه فى طريقه للحصول على مثل هذه الغنيمة ، وأخبر بلزونى أنه ليست لديه فرصة لاستئجار عمال فى طيبة . غير أن المعارضة الصريحة كانت نادرة بين ممثلى الدولتين الكبيرتين ، وكانت هناك وسائل أخرى لضمان فشل المنافسة ، بل لقد أهدى دروفيتى إلى بلزونى - كامارة على حسن نيته - غطاء جرانيت لتابوت يرقد في أحد المقابر . وكان هو نفسه قد حاول اخراجه وفشل . وأخبر ابراهيم باشا بلزونى بأن يقدم طلب الترخيص إلى الدفتردار بك الذى تركه مسئولاً فى أسيوط ثم ودعه .

وفى اليوم التالى وصل بلزونى إلى أسيوط ليجد الدفتردار بك غائباً . وتوجه لرؤية الدكتور سكوتو - وهو طبيب من چنوه كان يعالج ابراهيم وزكاه له سالت كحلقة اتصال مفيدة . غير أن الدكتور سكوتو كان مثبطاً : فقد حاول آخرون وفشلوا ، وقال ان من المستحيل استئجار عمال ، وليست هناك زوارق كافية ، والتمثال لا يعدو أن يكون قطعة عديمة القيمة من الجرانيت . وحين لم يبد بلزونى أى أمارة على التراجع ألمح الدكتور متجهماً إلى أخطار أخرى . وكتب بلزونى يقول «وفى النهاية أوصانى صراحة بألا أتدخل في هذا العمل ، لأننى سألاقى كثيراً من المضايقات ، وأواجه كثيراً من العقبات» . وبالطبع كان الطبيب الطيب يعمل هو نفسه فى تجارة الآثار لحسابه الخاص .

وحين عاد الدفتردار بك أصدر أوامره إلى المحافظ المسئول عن تزويد بلزونى بالعمال . وسار القارب الصغير في طريقه ، ووصل إلى الأقصر بعد ثلاثة أسابيع ويوم بالدقة من مغادرة القاهرة .

وذهل الفريق من المساحة الواسعة من الأنقاض التى تجعل من طيبة أوسع متحف خارجى فى العالم ، مجمعات المعبد الكبرى فى الأقصر والكرنك التى أذهلت القوات الفرنسية ، والتى كان وكلاء دروڤيتى – حتى فى ذلك الحين – قد أعدوها للتنقيب . وسجل بلزونى أنه لم يكن لديه وقت الا ليلقى عليها نظرة عابرة قبل أن يسرع إلي الضفة الغربية بحثاً عن الرأس .

وهناك كان التمثال يرقد فى الرامسيوم – المعبد الجنائزى لرمسيس الثانى . «كان وجهه إلى أعلى ، ويبدو وكأنه يبتسم لى ، ولفكرة نقله إلى انجلترا» . والواقع أن الرأس كانت لتمثال جالس لرمسيس الثانى ، لكن الرومان ظنوه خطأ تمثال ممنون البطل الأسطورى ، وكان يسمى حينئذ – وحتى الآن – ممنون الصغير .

وأنفعل بلزونى بجمال الرأس ، لكن حجمها لم يرهبه ، وأمر على الفور بانزال المعدات التى جلبها من القاهرة ، وأنزل سارة فى كوخ حجرى داخل الرامسيوم كمسكن مؤقت إلى حين استكمال العمل . وصنع النجار منصة من العوارض الخشبية ، وطلب عربة كى ينقل عليها الرأس إلى النهر . وفحص بلزونى الطريق ؛ كان من الواضح أن الأرض بين الرامسيوم والنهر منخفضة بحيث سيغطيها الفيضان حين يجئ ، وهى ليست من العمق بحيث يطفو فيها زورق ، لكنها من العمق بحيث تمنع عربته من المرور . وسيحل الفيضان بعد شهر ، ومن ثم فان أمامه أربعة أسابيع لكى يصل بالتمثال إلى ضفة النهر ، أو ينتظر حتى الصيف التالى . وبدا الوقت كافياً .

وتوجه بلزونى إلى الحاكم لطلب عمال ، حيث استقبل بترحاب . ويستند عرضه المنشور إلى يومياته :

استقبلنى بذلك الأدب الذى لا يتبدل والذى يتسم به الأتراك حتى حين لا ينتوون بأي حال الاستجابة لرغباتك . . . . فتجليات الصداقة المراهنة ، والانحياز لشخص لم يروه أبدا من قبل أمور شائعة بينهم حتى لتصبح أموراً جارية لا يثق بها الا أولئك الذين لا يعرفون تقاليد البلاد .

ولابد أن بلزونى كان – فى يوليو ١٨١٦ – واحداً من هؤلاء . وربما تكون صلابته قد اهتزت حين قيل له ان كل العمال مشغولون فى الحقول حتى يأتى الفيضان ، وان عملهم لحساب ابراهيم باشا ولا يمكن ايقافه ، وأن صوم رمضان يقترب حيث لا يعمل أحد ، وأخيراً ان نقل الرأس مستحيل دون عون النبى نفسه .

غير أن الحاكم أعلن أنه على استعداد لتحمل ما لا ينتهى من المتاعب من أجل صديقه الجديد لمساعدته فى التغلب على هذه المصاعب الهائلة ، ووعد بارسال رجال فى الصباح التالى . وحين لم يصلوا توجه بلزونى لمقابلة الحاكم ، مزوداً هذه المرة بهدايا من البارود والبن ، وغادره ومعه أمر إلى الكايماكان المحلى لتزويده بما يحتاجه من الرجال . غير أن متاعب بلزونى لم تكن قد انتهت ، لأن الكايماكان كان وكيلاً لتاجر فى القاهرة ، وبالطبع رأى فى تثبيط الجامعين المنافسين أسلوباً تجارياً جيداً . ولم يصل عمال إلى أن مضى بلزونى بنفسه ورشا الرجال بأجور مرتفعة تبلغ «ثلاثين بارة فى اليوم أى ما يعادل أربع بنسات ونصف بنس بالنقود الانجليزية» . ووصلت مجموعة صغيرة .

ورفعت الرأس فوق العربة ، التى وضعت البكرات الكبيرة تحتها بحيث حين تجر إلى الامام تتحرك البكرة الخلفية وتنقل وتوضع تحت المقدمة - وهى تقنية بسيطة كانت شائعة فى العصور القديمة ، ومازالت تستخدم حتى اليوم . وتحركت الرأس إلى الأمام فى تثاقل عبر الرمال ، وبعث بلزونى رسالة ظافرة إلى القاهرة ليقول انها فى طريقها .

كانوا يعملون فى أشد حرارة الصيف المصرى قيظاً . وبعد يومين انهار بلزونى وتوقف العمل . لم يكن يستطيع أن يأكل لكنه أجبر نفسه على العودة إلى العمل ، موجهاً مجموعة من العمال الذين يمهدون الطريق أمام العربة بازالة العقبات التى تقف فى طريقها ، متنقلاً بين مجموعات الرجال الذين يجرون العربة إلى الأمام ، وأولئك الذين يسيرون إلى جوارها ومعهم رافعات ليمنعوا الرأس من التدحرج . وبعد أسبوع كانوا فى منتصف طريقهم إلى النهر ، لكنهم كانوا قد وصلوا إلى منخفض خطر . وكتب بلزونى يقول :

وفى اليوم الخامس دخلنا الأرض التى كنت شديد الحرص على عبورها خوفاً من وصول المياه إليها . وأوقفت المسار ، وأسعدنى أن أتصور أننا فى اليوم التالى سنتجاوز الخطر . وبالتالى فقد توجهت إلى المكان فى الصباح الباكر ، ولدهشتى البالغة لم أجد هناك أحد الا الحراس والنجار الذى أبلغنى أن الكايماكان أعطى أوامره للفلاحين بألا يعودوا يعملون لدى المسيحيين الكلاب .

كانت هذه مكيدة . ففى بضعة أيام سيغطى النيل الصاعد المنخفض الذى توجد فيه الرأس ، وسيضطرون إلى تركها ، بعد أن أصبحت متاحة للبيع لأى أوروبى مجتهد

تروقه . وكان الكاياكان قد توجه إلى الأقصر ينتظر التطورات . . ويقول بلزونى انه سعى إلى الرجل محاولاً «تهدئة خاطره بالكلمات الطيبة والوعود» لكنه فشل . ومضى ليسجل أن الرجل استل سيفه عندئذ ، فالتقطه بلزونى ، وهزه بشدة ، وغادره آخذاً معه سيفه وزوجاً من المسدسات .

وكان الحل الوحيد الممكن هو كسب ود الحاكم . وأسرع بلزونى لرؤيته ، وأعطاه المسدسين عربوناً للصداقة ، وحصل على الأوامر اللازمة لعماله . وبعد أسبوع وصلت الرأس إلى ضفة النهر .

وكانت هناك مسألة أخرى ينبغى تسويتها - هى نقل غطاء التابوت الذى أعطاه إياه دروڤيتى - ووجه بلزونى نداء إلى الأدلة للعثور على المقبرة التى يرقد فيها . وقادوه إلى كهف صغير فى صخور الجبال ، وبعد أن خلع معظم ملابسه دخل من خلال ممر ضيق مع اثنين من العرب ومترجمه . وبعد أن زحفوا مسافة طويلة وصلوا إلى مساحة مكشوفة تخرج منها عدة أنفاق أصغر من أن يمر فيها بلزونى . وانتظر مع أحد العرب بينما مضى مترجمه مع الآخر ، الذى أصر على أن التابوت قريب رغم أنه أصبح واضحاً عندئذ أنه لا يمكن أن يكون قد وصل عن الطريق الذى جاءوا منه . وبعد فترة سمع بلزونى صوت انهيار أعقبته صرخة مترجمه «يا الهى ! يا الهى ! لقد ضعت» . وأعقب ذلك صمت كامل .

وأنتظرا . وسأل بلزونى العربى عما إذا كان يمكن أن يعرف الكهف بعد حلول الظلام ، وقال الرجل انه لم يأت أبداً إلى هذا المكان من قبل . وبدا أن أفضل شئ هو أن يعودا فى الطريق الذى جاءا منه ويطلبا المساعدة ، لكنهما حين زحفا عائدين عبر ما اعتقد بلزونى أنه الطريق وصلا إلى طريق مسدود . كانت الشموع تكاد تذبل ، والجماجم والعظام البشرية تحيط بهما ، وبدت كل الأنفاق متشابهة ، وحاولا العبور فى نفق بعد الآخر ، لكنهما ظلا يصلان إلى المساحة المكشوفة نفسها .

وأخيراً وجد بلزونى والعربى نفقاً بدا أنه يستمر مسافة طويلة دون عائق . وحين سمعا صوتاً شبيهاً بهدير البحر على مبعدة أسرعا عندما تبينا أصواتاً بشرية . وحين اندفعا إلى صوت الشمس كان أول من رأياه هو المترجم ، الذى أوضح لهما أنهما حين اقتربا من الكهف الذى يرقد فيه التابوت سقط العربى فى حفرة . وصرخ العربى ثم رأى ضوءاً قريباً . وشق طريقه إلى الهواء الطلق . وحين خشى بقية العرب على سلامة

الرجل الذى سقط أسرعوا بتطهير المساحة التى مر بها . وأدرك بلزونى أنهم كانوا قد سدوه فى البداية ، واقتادوه عبر مدخل خلفى للكهف حتى لا يستطيع نقل غطاء التابوت إلى أن يحصلوا على مكافأة «اكتشاف» المدخل الكبير . وأمر بلزونى الرجال بتوسيع المدخل ، وعاد إلى كوخه الحجرى فى الرامسيوم ليستجم .

وبعد ثلاثة أيام عاد بلزونى ليجد أن الحاكم قد زار الموقع ، وأمر بتقييد عماله والقائهم فى السجن ، فقد كان وكلاء دروفيتى قد زاروه ومعهم هدايا من الاسكندرية ، وبعد أن استقبلهم الحاكم تذكر أنه لا يستطيع اعطاء غطاء التابوت لبلزونى إذ سبق له أن باعه للقنصل الفرنسى .

وبدا بلزونى غير مهتم بعمله ، مكتفياً بالقول بأنه سيكتب للقاهرة عن التابوت ، وطلب زورقاً من سالت لنقل الرأس . وأعطى تعليماته ببناء جدار من الطين حول ممنون الصغير ، وبدأ البحث عن كنوز منقولة أخرى على طول النيل ، فقد كان سالت يدفع إيجار الزورق ، وبدا معقولاً أن يبقيه مستخدماً .

وفى اسنا – المدينة القديمة التى أسماها الاغريق لاتوبوليس – التقى بلزونى بخليل بك ، صهر محمد على ، الذى كان قد عين لتوه حاكماً للمحافظات الواقعة بين اسنا واسوان . وبعد أن استرخى فترة على سجادة فاخرة ودخن عدة غليونات واحتسى القهوة أعطى بلزونى رسالة توصية إلى أمير نوبى هو حسين كاشف وتركه يواصل طريقه . وأتيح لبلزونى الوقت لمشاهدة معبد اسنا ، الذى يقع فى قلب المدينة على بعد ٦٥٠ قدماً من النهر . ووجده مغطى بالنفايات ، ولاحظ أنه «أمر مؤسف للغاية أن يقطن هذه المبانى الجميلة عرب أقذار ومواشيهم» . ثم أبحر بعد ذلك إلى ادفو .

وهنا ، وفى موقع قريب من النهر ، يطل على الوادى المحيط ، يقع معبد من عصر البطالسه احتفظ بكيانه أكثر من أى معبد آخر فى مصر . ووجده بلزونى مغطى بالأكواخ والحظائر ، ولاحظ وجود أكوام كبيرة من الأنقاض فى الرمال المحيطة بالمعبد ، وحدس أنها قد تحوى آثارا قيمة . غير أنه مضى فى طريقه ، مكتفياً بازالة الرمال عن عدة تماثيل لأبى الهول «بجسد أسد ورأس امرأة كبير كالحياة» .

وفى أسوان حيث يقطع أول الشلالات مجرى النيل ، كان من الضرورى استئجار زورق جديد للرحلة إلى جزيرة فيلة وحتى الشلال الثانى . وتضمن هذا مساومات خطيرة مع أغا أسوان ، ساعدت فيها سارة باهداء الأسّرة والمرايا لزوجتى الأغا وتدخين

غليون من التبغ معهما . وساعد هذا فى تخفيض ايجار الزورق من ١٢٠ دولاراً إلى ٢٠ دولاراً للرحلة ذهاباً وجيئة .

وكان هدف بلزونى من التوجه إلى الشلال الثانى هو الوصول إلى أبى سمبل حيث سمع من بوركهارد عن وجود معبد هائل مدفون تحت الرمال . وبدا معقولاً أن معبداً مدفوناً يمكن أن يظل دون نهب ، وأن معبداً كبيراً سيحوى عائداً ثميناً . وكان معبد رمسيس الثانى فى أبى سمبل لا يبدو الا جزئياً فوق جبل من الرمال وأربعة تماثيل منحوتة فى جدار من الصخر . وإذا كان المعبد نفسه يشبه التماثيل فى الحجم فسيكون أكبر معبد فى مصر ، معبداً لم ير مثله الانسان الحديث من قبل .

وحين رسا بلزونى فى قرية أبى سمبل وجد أن عليه أن يتعامل مع داود كاشف ابن حسين كاشف ، الذى كانت معه رسالة تقديم له . وحين سئل لماذا جاء إلى هذا المكان النائى أجاب بلزونى بأنه «يبحث عن الاحجار القديمة» . وضحك داود ، فتلك قصة سمعها من قبل . وقال إن رجلاً جاء من القاهرة منذ فترة قصيرة بحثاً عن الكنوز ، وعاد بكومة من الذهب فى زورقه . ولاشك أن هذا هو السبب الحقيقى للزيارة؟ وكان رد بلزونى لمسة عبقرية : «أجبت أن الاحجار التى أريدها هى قطع مهشمة تنتمى إلى الشعب الفرعونى القديم ،واننا نأمل أن نعرف منها ما إذا كان أسلافنا قد جاءوا من هذا البلد ، وهذا هو السبب فى قدومى للبحث عن الأحجار القديمة» .وبدا أن داود قد قبل هذا كتهرب ذكى من الحقيقة ، ومضى ليسأل بلزونى كيف يعتزم أن يقنع الناس بالعمل معه والمعابد في حراسة الشيطان ، لكن رد بلزونى بأنه سيدفع نقداً دفع داود إلى أن يسأله ماذا يمكن لأحد أن يصنع بالنقود فى أبى سمبل؟ وكتعريف لأبناء أبى سمبل بمزايا الاقتصاد النقدى أوضح بلزونى أن كل ما يحتاجونه هو أن يرسلوا النقود إلى أسوان ويشتروا الحبوب اللازمة للشتاء . ورد داود بأنه إذا كان من الحماقة بحيث يرسل النقود إلى تجار أسوان فانهم بالطبع سيحتفظون بها «وينسون» ارسال الحبوب . وكان بلزونى يلهو بقرش اثناء المناقشة ، وأعطاه إلى أحد المتفرجين الفضوليين المحيطين بهم قائلاً انه يستطيع أن يشترى به من الحبوب ما يكفى رجلاً ثلاثة أيام . وإذ أمسك الرجل بقطعة المعدن الضئيلة انفجر الحشد ضاحكاً من فكرة أن أحداً يمكن أن يبادل به شيئاً له قيمة . واقترح بلزونى أن يحاول الرجل سؤال واحد من طاقم الزورق الأجانب ، وانفعل الناس حين عاد الرجل يحمل مؤونة ثلاثة أيام من القمح . وبالطبع كان بلزونى قد نبه على الطاقم .

ان تجربة بلزونى العملية قد حققت له سبقاً على دروفيتى ، الذى كان قد ترك قبل بضعة أشهر ٣٠٠ قرش مقابل الكشف عن وجه المعبد ، لكى تعاد له نقوده عند عودته ، ويقال له ان العمال لم يجدوا لها فائدة .

ويدأ العمل ببطء ، وأخذ أربعون رجلاً يزيحون الرمال ، ويقيمون أسيجة من أغصان الشجر لكى يمنعوا هبوط المزيد منها من أعلى ، كان الأمر على حد قول بلزونى أقرب إلى محاولة حفر حفرة فى الماء . وبعد أسبوع كانوا قد كشفوا على عمق عشرين قدما صورة رع – هاراختى ذى رأس الصقر فى منتصف الواجهة . وصب بلزونى بعض الماء قرب الجدار على طول المكان الذى اعتقد أن الباب موجود فيه ، وتماسكت الرمال بفعل الماء بحيث أمكنه أن يثقب فيها فتحة عميقة يرى منها المدخل . غير أنه قرر أن استكمال العمل يستلزم من الوقت أكثر مما هو متاح له . كما كانت أمامه مشكلة أخرى هى : «الحاجة إلى تلك المادة التى كانت قبل بضعة أيام فحسب موضع احتقار وغير معروفة ، والتى لم أعد أستطيع إطلاقاً أن أعمل بدونها ، وأعنى النقود التى كشفت حتى هنا عن قدرتها غير العادية على اثارة الجشع فى صفوف البشر ، والتى سرعان ما شغف بها هؤلاء القوم الهمجيون» .

وقرر بلزونى تأجيل العمل ، ومقابل بضع هدايا ، وبعد أن انتزع من داود وعداً بعدم السماح لأحد بالاقتراب من العمل ، قام بوضع علامة على واجهة المعبد التى كشفوها ، وبدأ فى الابحار فى النيل . وفى جزيرة فيلة بدأ بلزونى يبحث عن أى شىء يمكن أن يشحنه ليأخذه معه إلى القاهرة . كانت هناك مسلة طولها اثنان وعشرون قدماً وعرض قاعدتها قدمان قريبة من المياه بما يسمح بنقلها . غير أنها كانت تحتاج إلى زورق أكبر وهكذا «استولى» عليها بلزونى «باسم القنصل العام لصاحبة الجلالة فى القاهرة» ، وأعطى الأغا أربعة دولارات ليضع حارساً عليها حتى عودته . وسأله الأغا سؤالاً لا يخلو من معقولية – كم سيدفع له مقابل إذنه بنقل المسلة . وتردد بلزونى : «ورغم أن فرمان الباشا كان يرخص لى أن آخذ أى أحجار أو تماثيل تروق لى إلا أن هؤلاء الناس كانوا يعتقدون أن من حقهم المطالبة بشىء ، وإذا لم يكونوا يستطيعون الرفض صراحة فان فى وسعهم أن يضعوا من العقبات فى الطريق ما يحبط مشروعك تماماً» ، وهكذا وعد الأغا بأنه سيحصل على ٣٠٠ قرش حالما تشحن المسلة بنجاح .

وكانت فى الجزيرة أيضاً سلسلة جميلة من الألواح المحفورة تمثل الاله أوزيريس وهو يتلقى الهدايا من الكهنة وصور نساء . وكان طول الألواح ثلاثة أقدام ونصف ، وعرضها ثلاثة أقدام ، لكنها كانت كبيرة الحجم لا يسهل نقلها لأنها سميكة للغاية . وترك بلزونى نقوداً وأوامر مع الأغا ليقطعها إلى أسماك معقولة ، ويشحنها إلى الأقصر فى الزورق التالى .

وظهرت مشكلات فى الخروج من أسوان ، فقد أمر الأغا باخفاء كل القوراب حتى يبتز أكبر قدر من النقود ايجاراً لقاربه . وفى النهاية وصل بلزونى وصحبه إلى الأقصر ليجدوا نقوداً من سالت ، ولكن لا أنباء عن زورق لرأس ممنون الصغير . ومن حسن الحظ كان زورق كبير قد وصل لتوه من القاهرة يحمل اثنين من وكلاء دروفيتى فى طريقهما إلى أسوان : چان چاك رينو ، وهو نحات من مارسيليا وجامع آثار متحمس ، وفريدريك كايو وهو صائغ من نانت . وكانا فى وضع يؤهلهما لزعزعة ثقة بلزونى فى أحكامه الفنية ، ولم يبخلا بوقت للقيام بذلك . وفحص الأثنان ممنون الصغير دون حماس ، وسخرا من بلزونى لانفاقه أمواله وطاقته على قطعة عديمة الجدوى من الجرانيت ، وقالا ان السبب الوحيد الذى جعل الفرنسيين يتركونه خلفهم هو أنه لا يستحق أن ينقل . وبقدر أقل من الكياسة جمعوا العرب المحليين ، وأعلنوا أن كل من يبيع آثاراً إلى الانجليز أو وكلائهم سيضرب بأوامر من الرئيس المحلى . وتأكيداً لهذه النقطة انتحى مترجمهما ببلزوني جانباً ، وأسّر إليه أنه إن لم يوقف أعمال الحفر فسيُجز عنقه بالتأكيد .

وتمكن بلزونى من تحويل هذه الزيارة المثبطة لصالحه بالتفاوض مع مالكى الزورق على العودة من أسوان إلى الأقصر ليشحنا الرأس ، وأن يجلبا معهما الألواح الحجرية التى تركها فى رعاية الأغا . ونتيجة لثقل الرأس الكبير ، وكذلك بلا شك لغياب المنافسة ساوم المالكان بشدة ، وأصرا على أن يتقاضيا ٣٠٠٠ قرش (نحو خمسة وسبعين جنيهاً) - عن الرحلة يدفع نصفها مقدماً ، ودفع بلزونى ، ثم عادا إلى الكرنك ، كان قد ترك عشرين رجلاً يعكفون على قلب التربة المتماسكة التى لم تحفر من فترة ، ووجد عدة تماثيل فى حالة ممتازة ، ومن بينها تمثال أبيض لجوبيتر آمون . ونقل بلزونى أفضل هذه التماثيل إلى الأقصر ، معتزماً شحنها على الزورق مع الألواح الحجرية القادمة من أسوان .

وحين رسا الزورق فى الأقصر لم يكن يحمل أى الواح حجرية ، وإنما تمر . فقد

المنافسة ساوم المالكان بشدة ، وأصرا على أن يتقاضيا ٣٠٠٠ قرش (نحو خمسة وسبعين جنيهاً) - عن الرحلة يدفع نصها مقدماً ، ودفع بلزونى ، ثم عادا إلى الكرنك ، كان قد ترك عشرين رجلاً يعكفون على قلب التربة المتماسكة التى لم تحفر من فترة ، ووجد عدة تماثيل فى حالة ممتازة ، ومن بينها تمثال أبيض لجوبيتر آمون . ونقل بلزونى أفضل هذه التماثيل إلى الأقصر ، معتزماً شحنها على الزورق مع الألواح الحجرية القادمة من أسوان .

وحين رسا الزورق فى الأقصر لم يكن يحمل أى الواح حجرية ، وإنما تمر . فقد أقنع وكلاء دروفيتى المالكين بخطورة التعامل مع البريطانيين فعرضا على بلزونى اعادة نقوده . كان النيل قد أخذ فى الهبوط بالفعل ، ولم يكن هناك زورق آخر ، ولو ضاعت من بلزونى الفرصة فسيبقى ممنون الصغير على ضفة النهر حتى العام التالى ، فقرر أن يتكلم لدى خليل بك ، وأن يطلب اجبار مالكى الزورق على احترام اتفاقهما ، ولم يكن لديه أمل كبير فى النجاح لأن خليل بك كان قد أخبره من قبل أن أى زورق لن يستطيع تحمل ثقل الرأس الكبير . لكن زجاجتين من الأنشوجة وزجاجتين من الزيتون أنقذا يومه ، ولولاها لما كان هذا التمثال الرائع فى المتحف البريطانى اليوم .

كانت هذه الاشياء قد وصلت إلى الأقصر هدية لخليل بك فى الوقت الذى كان لبلزونى يستعد فيه لطلب العدالة . وأسّر الرسول الذى جاء بها بلزونى بأنها أثارت حنق البك الشديد ، الذى تلقاها كهدية من دروفيتى . لقد شعر البك بالاهانة لتلقى مثل هذه الهدية التافهة - التى لا تستحق إلا أن تترك لأجنبى آخر - حتى لقد ثار غضبه على كل ما هو فرنسى . وعزم بلزونى - كما كتب يقول - على «أن يطرق الحديد وهو مازال ساخناً» ، وتوجه على الفور مع مالكى الزورق طالباً تنفيذ العقد . ووجد البك مازال فى حالة كراهية للفرنسيين وحصل على الحكم الذى يريد .

واستخدم مائة وثلاثون عاملاً فى شحن الرأس . وكان سطح الزورق منخفضاً عن الضفة بمقدار ثمانية عشر قدماً ، وصنع بلزونى جسراً منحدراً من الضفة إلى قلب الزورق بأربعة جذوع نخيل لتنزلق فوقها الأطنان السبعة من الجرانيت . وربطت الرأس بعربتها المصنوعة من عوارض خشبية ، وقيدت بحبال ملفوفة حول أعمدة مثبتة فى الضفة ، وكومت وسادة من الجير والقش عند نهاية الجسر استعداداً لاستقبال الثقل . وفرشت أجولة من الرمل عبر الجسر لتخفيف سقوط الرأس لو انقطعت الحبال أو أنهك العمال .

وإذ أخذ الثقل الكبير ينزلق ببطء هابطاً المنحدر كان المالكان يئنان فى هدوء وقد استسلما لضياع زورقهما ، والمشاهدون يتجادلون حول ما إذا كانت الرأس ستحطم أخشاب الزورق وتغرق أم ستستقر فى سلام على متن الزورق قبل أن تحمله إلى قاع النهر . وكان بلزونى يعرف أنه لو ضاعت الرأس هنا فلن يمكن استعادتها أبداً . لكن الرأس انزلقت فى يسر واستقرت على السطح . واهتز الزورق لكنه ظل طافياً . واندفع المالكان إلى بلزونى ليصافحاه بحرارة . وحين أبحروا إلى القاهرة بعد ثلاثة أيام كانوا يحملون أجمل كنوز الآثار التى أبحرت فى النيل فى العصور الحديثة .

وتلقى بلزونى ١٠٠ جنيه مقابل جهوده : فقد أعطاه كل من سالت وبوركهارد خمسة وعشرين جنيهاً مقابل ممنون الصغير ، وأضاف سالت خمسين جنيهاً من ماله الخاص ، ولعله قد شعر بأن هذا المبلغ غير كاف فسمح لبلزونى بأن يستبقى اثنين من التماثيل ذات رأس الأسد ، وأرسلت بقيتها إلى القنصلية ، وتلقى بلزونى تعليمات بأن يأخذ الرأس إلى الإسكندرية وينتظر شحنها إلى انجلترا . وكتب يقول انه دهش للتفرقة بين الآثار ، لأنه كان يعتقد أنه يعمل لجمع الآثار للمتحف البريطانى . غير أن سالت بدا وكأنه يعتبرها ملكية خاصة يستطيع التصرف فيها . ومن الشيق أن بوركهارد كان يشاطره الرأى . فقد كتب إلى سالت فى ذلك الحين - بعد أن فحص المجموعة - أن «بلزونى قد نجح إلى حد يفوق أقصى آمال قد تداعبك ، ومن المؤكد أنه بذل قصارى جهده لتنفيذ المهمة بالكامل ، فقد جلب - إلى جانب الرأس - سبعة تماثيل ستكون من أقيم ما يزين المتحف فى المستقبل» .

أما عن الغاية النهائية للكنوز وملكيتها فقد بدا بلزونى غير مهتم إلا بالعودة إلى أبى سمبل واستكمال التنقيب عن المعبد الكبير قبل أن يستطيع أحد الوصول إليه . غير أنه اشترط شرطا عن علاقته المقبلة مع سالت كان أكثر دلالة من أن يستطيع سالت فهمه : فإذا نجح في أبى سمبل فسيعطى رسالة تقديم رسمية إلى جمعية الآثار فى لندن ، فقد كان بلزونى يسعى - مقابل اكتشافه - إلى الاعتراف به (كجنتلمان) وباحث على شاكلة صديقه بوركهارد ، أكثر من احتمالات المال السائل التى ستجذب كثيراً من السادة والباحثين خلفه إلى وادى النيل .

وصحب بلزونى فى رحلة عودته إلى أبى سمبل سكرتير سالت الخاص : وهو شاب يدعى هنرى بيتشى ، ومترجم يونانى مستخدم فى القنصلية يدعى ينى أناناسى . ولا شك أن سالت قد شعر بضرورة أن يراقب شخص يثق فيه بلزونى الذى

يعانى من اتجاه مقلق لاستعراض مبادرته فى مشاريع ضخمة ومكلفة . ويبدو أن بيتشى قد أرسل ليمارس تأثيراً مهدئاً على بلزونى ، وليكون مصدراً وثيقاً لمعلومات سالت . كما كان يمسك بخيوط كيس النقود . وقد أسعد بلزونى أن يكون إلى جواره .

وكان الفريق يتقدم ببطء فى مواجهة ريح جنوبية قوية حين سمعوا أن اثنين من وكلاء دروفيتى يشقان طريقهما إلى الكرنك ليصلا قبلهم . وكان بلزونى يعرف أن المنطقة التى حفرها تحوى كنوزاً أخرى ، وأنه سيخسرها إذا لم يكن هناك ليدافع عنها ، فتوجه مع ينى على ظهور الحمير والخيول والجمال عبر الصحراء ، وقطعا ٢٥٠ ميلاً فى خمسة أيام ونصف يوم . لكنه تأخر كثيراً ، فقد كان الدفتردار بك قد أمر بالفعل بالحفر لحسابه بدعوى أنه يفكر فى تكوين مجموعة لنفسه . وحين وصل وكيلا دروفيتى توليا العمل ، بل لقد تعاقدا مع كل العمل المتاح فى الكرنك ، ولذا لم يكن أمام بلزوني إلا أن يعود باحثاً عن الزورق الذى يقل بيتشى والنقود ، وقرر بلزونى أن يترك الفرنسيين فى الكرنك ، وأن يركز على الحفر بين المقابر فى الضفة الغربية للنهر .

وتعرف الضفة الشرقية للنهر ، بمجمعات معابدها فى الأقصر والكرنك ، باسم «طيبة الأحياء» ، والضفة الغربية باسم «طيبة الموتى» . وتوجد فى الضفة الغربية بقايا معابد تمتد بطول خمسة أميال ، وهى فى الأغلب معابد جنائزية ملكية من المملكة الحديثة ، تصون عبادات الملوك المدفونين فى مقابر محفورة فى الجبل على مسافة أبعد غرباً . وكان ويليم هاملتون قد وجد هنا فى بداية القرن عشر مقابر يمكن الوصول إليها ، واعتقد أنه لابد أن هناك مقابر كثيرة أخرى مدفونة تحت الرمال والأحجار .

وبدأ بلزونى بحثه فى مكان غربى ناء من وادى الملوك ، خلف مقبرة أمينوفيس الثالث التى اكتشفها الفرنسيون . وبالنسبة لرجل فى حجم بلزونى كان العمل فى أنفاق ضيقة تحت الأرض تحفل بالمومياءات المتداعية مصدر رعب بالغ ، صوره بحيوية فى مذكراته :

وتنبعث كمية كبيرة من الغبار ، غبار دقيق يدخل فى الحنجرة والخياشيم ويسد الأنف والحلق حتى لتتطلب مقاومته مع رائحة المومياءات النافذة رئة قوية . . . . وكان سواد الجدار ، والضوء الشاحب الذى تلقيه الشموع أو المشاعل لنقص الهواء ، والأشياء المختلفة التى تحيط بى تبدو وكأنها تتحاور فيما بينها ، والعرب الذين يحملون الشموع أو المشاعل فى أيديهم ، وهم عراة يغطيهم الغبار ، يشبهون هم أنفسهم

مومياءات حية ، ويشكلون مشهداً لا يمكن وصفه .

وفى احدى المرات فى القرنة وصل منهكا إلى نهاية ممر طويل وضيق ليجد مساحة يستطيع أن يتوقف فيها :

بحثت عن مكان أرتاح فيه ، ووجدت مكاناً ، ونجحت فى الجلوس ولكن حين حط ثقلى على جسد مصرى سحقه كأنه صندوق من الورق المقوى ، وبالطبع اعتمدت على يدىّ لأحمل ثقلى ، لكنهما لم يجدا دعامة أفضل ، بحيث غصت كلية وسط مومياءات محطمة ، مع صوت تهشم العظام والخرق والصناديق الخشبية ، مما أثار غباراً أبقانى بلا حراك ربع ساعة منتظراً حتى يهدأ . غير أننى لم أكن أستطيع أن أتحرك دون أن أزيد الغبار ، وفى كل خطوة أخطوها كنت أسحق مومياء فى مكان أو آخر . ثم انتهيت من هذا المكان إلى مكان آخر يشبهه ، عبر ممر طوله نحو عشرين قدماً ، ولا يتسع إلا لأن يحشر فيه جسد ، وغص حلقى برائحة المومياءات ، ولم أكن أستطيع أن أمر دون أن يحتك وجهى بجثة مصرى ، ولكن حين مال الممر إلى أسفل ساعدنى وزنى على الاندفاع ، غير أننى لم أكن أستطيع أن أتجنب أن تغطينى العظام والأقدام والأذرع والرؤوس التى تسقط من أعلى .

ومع نهاية شهر أبريل كانت لدى بلزونى فى الأقصر كومة من الكنوز تكفى لتكوين شحنة أخرى . وكان قد أضاف إلى غطاء التابوت الذى أهداه إياه دروفيتى رأساً كبيرة من الجرانيت الأحمر ، وذراعا من تمثال ضخم لتحتمس الثالث فى الكرنك ، وأربعة تماثيل أخرى برأس أسد لسخمت ، ومنصة حجرية متينة من معبد مونتو فى الكرنك حفرت فيها صور مختلفة لهاتور ومونتو وتحتمس الثالث .

ثم وصل زائر ثقيل . . . كان الدفتردار بك قد سمع من وكلاء دروفيتى عما حققه بلزونى من تقدم ، ورأى نفسه ملزماً بأن يبين أن ما يتلقاه من مال مقابل حمايتهم لم يضع عبثا ، فأمر بضرب الشيخ الذى زود بلزونى بالعمل حتى فقد وعيه . وحين هدد بلزونى بأن يكتب إلى القاهرة ليخبر الباشا بكيفية استجابة صهره للفرمان الذى أصدره بيده بدا أن الدفتردار قد لان ، وأصدر ما ادعى أنه ترخيص لبلزونى باستخدام العمل فى القرنة . وجُمع الناس ليسمعوا أمر الدفتردار يقرأ علناً ، ولدهشة بلزونى استمع إلى اعلان يحظر عليهم العمل مع الانجليز أو تزويدهم بالآثار ، ويأمرهم ألا يتعاونوا إلا مع دروفيتى أو وكلائه .

وبدا أن الوقت قد حان لطلب المساعدة من القاهرة ، وكتب بيتشى على الفور إلى سالت ليخبره بما حدث ، وطلب تعويضا عن الاهانة التى لحقت برعايا بريطانيين يسافرون فى حماية فرمان صدر بناء على طلب القنصل البريطانى . وكان رد سالت بالغ الدلالة ، فقد ذكر أنه قابل الباشا ، الذى سيكتب إلى الدفتردار بك ، ويتأكد من أنه لن يسلك بهذه الطريقة مرة أخرى ، لكنه استطرد قائلاً :

غير أننى أود أن تفهم جيداً أننى لا أوافقك على اعتبار هذا الأمر اهانة قومية ، أو ذا صلة بشخصى كقنصل ، ويجب أن تدرك أنه لا أنت ولا السيد بلزونى تعملان الآن رسمياً معى ، فانتما ببساطة اثنان من الرحالة يعملان على تكوين مجموعة ، ومن ثم ليس من حقكما أن تحصلا إلا على التعويض الذى يحق لأى (جنتلمان) انجليزى توقعه . ومن الضرورى تماماً أن يفهم هذا بوضوح ، لأننى كما تعرفون لست مخولاً باستخدام أى شخص فى مثل هذه الأعمال ، وأنا أتحمل كل النفقات وأجمع لحسابى ، فلا يمكن أن تعتبرا الا عاملين بصفتكما الخاصة .

وربما كان بيتشى قد أبقى هذا الجزء من الرسالة سراً ، لأن بلزونى كان أكثر ما يكون حماساً حين يرى نفسه الممثل الرسمى لأكبر دولة على سطح الأرض ، مكلفاً بواجب الجمع لمستودعها القومى - المتحف البريطانى . ومن غير المحتمل أن يكون سكرتير القنصل قد سمح لنسه بأن يتعامل بود مع شخص غير متعلم وممثل سابق فى سيرك ، والحق أنه أسر إلى كاتب سيرة سالت بأن «بلزونى كان ذا نزعة مستريبة لا تقنع بشئ بحيث كان من الصعب فى بعض النواحى التعامل معه كلية» . وكان بيتشى وبلزونى معاً يعرفان أنهما يتمتعان بحماية اسم القنصل البريطانى ، وأن أذون السفر والتنقيب قد أعطيت بسبب وضع بيتشى الرسمى ، وربما لم يأخذ أحدهما على محمل الجد أنهما يستكشفان المعابد والمقابر فى وادى النيل لمجرد نزوة هنرى سالت .

ولم يعد هناك جدوى من البقاء فى الأقصر فى مواجهة دفتردار معارض بشدة ، وقرر بلزونى أن يبحر فى النهر - إلى أن يأتى رد القاهرة - ليجمع الألواح الحجرية المحفورة التى تركها فى جزيرة فيلة فى رعاية الأغا . ووجدها حيث خزنها ، لكنها جميعاً كانت قد شوهت وحطمت ، وكتب شخص ما بالفحم عبارة «عملية فاشلة» بالفرنسية ، فوكلاء دروفيتى الذين منعوا نقل الألواح كما كان مقرراً ، حرصوا على أن يضمنوا أنها لن تستحق النقل فى المستقبل .

غير أن الجزيرة كان بها ما يعوض ذلك ، فقد وصلت رسالة من سالت تحوى نقوداً وموافقة على أن يستخدمها بلزونى فى محاولة فتح معبد أبى سمبل الكبير . وفى الوقت نفسه وصل زورق يحمل السيدين شارلز ليونارد إيربى وجيمس مانجلس ، وكليهما من ضباط البحرية الملكية ، وأسعدهما أن ينضما إلى بلزونى الذى وافق بسهولة ، مصرا فحسب على التوقف فى فيلة للإحتفال بالرابع من يونيو عيد ميلاد الملك جورج الثالث .

وجئ بعلم قديم ونصب على أعلى نقطة فى الجزيرة . وعند الظهر تماماً اجتمع الرجال الأربعة وأطلقوا إحدى وعشرين طلقة مدفع للتحية . وتكرر الاحتفال ليلاً ، الأمر الذى أثار خوف العرب ودهشتهم ، إذ لم يستطيعوا أن يفهموا لماذا يستخدم كل هذا البارود دون قتل أحد .

وفى أبى سمبل ظهرت المشكلات المألوفة لاستئجار العمل . وكانت الامارة فى أيدى الشقيقين داود وخليل الكاشف ، وتسبب بلزونى فى شقاق بين الاخويين بتقديم الهدايا لداود ، فقد غضب خليل واختفى فى كوخه ، ولم يوافق على حضور العشاء الا حين قدمت له هدية هى بندقية وبارود وذخيرة . وفى النهاية نظم العمال ، لكنهم كانوا يعملون ببطء إلى حد دفع بلزونى إلى أن يحاول استخدامهم بالقطعة ، فقال أنه سيدفع ٣٠٠ قرش مقابل إزالة الرمال عن الباب ، وبدأ ١٠٠ رجل فى العمل يدفعهم داود وخليل . ولما كان مقدراً أن يستغرق العمل ثلاثة أيام فقد دفع بلزونى جزء من الأجر حين بدأ العمل ، وبقيته فى اليوم الثالث حين تذكر العمال أن رمضان على وشك البدء حيث لا يسمح بالعمل ، ولم تستكمل المهمة أو تسترد النقود .

غير أن المسيحيين غير المؤمنين لم يكونوا ملتزمين برمضان . واستيقظ الضابطان البحريان قبل الفجر ، وتوجها مع بلزونى وبيتشى وينى المترجم اليونانى والحراس لتسلق التل حتى واجهة المعبد ، واستغرقوا ساعتين ونصف الساعة فى الحفر قبل أن تشتد حرارة الشمس ، وفى المساء بدأوا الحفر ثانية . وظل الفريق الصغير يعمل بثبات فى الرمال طيلة أسبوعين ، تساعده أحياناً أطقم الزوارق ، أو تنضم إليه فرق من القرويين المحليين .

وحين ظهر الركن الأعلى لبوابة غرس بلزونى جذوع نخيل فى الرمال المحيطة بها ، وصب مياها وطيناً لمنع الغبار الدقيق من التسرب منها ، وبدأ عندئذ فى الحفر

داخل هذا السياج ، وفى غسق اليوم التالى كانوا قد كشفوا الفتحة . كان الظلام فى الداخل بالغاً يمنع الرؤية ، والهواء الذى يخرج من الفتحة فاسداً ، فقرر بلزونى أن ينتظر حتى الصباح التالى قبل دخول المعبد .

وقبل الفجر مباشرة تسلق الفريق السفح وبدأوا فى العمل لتوسيع الفتحة . وبقى الطاقم نائماً ، وحين أخذ ضوء النهار يزحف على السماء الشرقية حدث هرج فى الزورق ، واندفع القبطان صاعداً السفح وهو يصيح قائلاً انهم يجب أن يبحروا على الفور ، واذا لم يصعد الأجانب على متن القارب فسيتركوهم خلفهم . وكان بلزونى وفريقه مستغرقين فى العمل حتى لم يلحظوا ، وركع الطاقم فى مجموعة وأخذوا يصرخون ويلقون بالرمال على رؤوسهم . كانوا قد تلقوا أمراً من داود وخليل بأن يصرفوا اهتمام الأجانب إذا نجحوا فى كشف الباب . وتجاهلهم القائمون بالحفر ، وأخذوا واحداً بعد الآخر ينزلقون من الفتحة .

ووجدوا أنفسهم فى قاعة هائلة يزيد طولها وعرضها عن خمسين قدماً وارتفاعها ثلاثين قدماً . وعلى كلا الجانبين أربعة أعمدة مربعة نحتت على شكل أوزيريس ، والجدران مغطاة بزخارف هيروغليفية ومشاهد المعارك . وفى نهاية القاعة حجرة صغيرة ، تفتح على الردهة الخارجية للمذبح وكانت أشعة الشمس البازغة فيها تضئ تماثيل الآلهة الجالسة .

ذهل الزوار أمام الروعة الدفينة التى كشفوا عنها . غير أن بلزونى لم يكن مستخدماً لاجراء كشوفات وإنما لينقل الآثار القيمة ؛ وفى هذا المجال كان أبو سمبل مخيبا للأمل . وكتب يقول انه لم يجد سوى «أسدين برأس صقر» ، بالحجم الطبيعى ، وتمثالاً جالساً ، وبعض المشغولات البرونزية فى الأبواب . وقام كل من مانجلس وبلزونى برسم اسكتشات ، لكن الحرارة داخل المعبد كانت شديدة الارتفاع ، ومن ثم «تركا هذه العملية للرحالة القادمين ، الذين قد يواصلونها بقدر من الراحة أكبر مما أتيح لنا ، إذ سيصبح المكان أقل حرارة» . ولما كانت مؤنهم قليلة - فلم يكونوا قد تناولوا طيلة ستة أيام سوى القمح المغلى فى الماء دون ملح - فقد قرروا أن يشحنوا التماثيل والرأس إلى الأقصر .

وقرر بلزونى أن أفضل مكان يلتقط فيه شحنتة هو منطقة طيبة . لكنه شعر بالإحباط عند وصوله إلى هناك حين اكتشف أن الفرنسيين قد استولوا على كل منطقة

الضفة الشرقية ، وأخذوا يحفرون بنشاط فوق معابد كل من الأقصر والكرنك . ولم يكن هناك عمل متاح ، وهكذا مضى بلزونى إلى الضفة الغربية ، وبدأ مرة أخرى يبحث عن مقابر غير مكتشفة فى وادي الملوك . وهو يزعم أنه فى ذلك الحين كان يفتش عن أمارات توحى بمقبرة دفينة ، ومن المؤكد أن المهارة أو الحظ كان يعمل إلى جانبه من بداية العملية ، لأنه اكتشف كثيراً من المقابر خلال ثلاثة أيام ، ورغم أنها كانت جميلة الزخارف إلا أنها لم تكن تغل كثيراً من الأسلاب ، باستثناء بعض الأوانى الفخارية ، وفى مقبرة رمسيس الأول تمثال خشبى محطم الأنف بالحجم الطبيعى للفرعون ، وعندما كشف بلزونى الغطاء عن احدى المومياءات بحثا عن طرائف غير مكتشفة لاحظ أن لفافات جديدة قد وضعت فوق اللفافات القديمة ، مما يثبت أن قدماء المصريين كانوا يهتمون بموتاهم سنوات طويلة ، ولكن لم تكن هناك مجوهرات ، وعدد قليل من أوراق البردى .

وعلى بعد نحو خمسين قدماً من مقبرة رمسيس الأول كان هناك منخفض عند قاعدة تل شديد الانحدار تصب فيه سيول المياه حين تهبط الأمطار . وقرر بلزونى أن يحفر فى هذه البقعة ، رغم أن الرجال كانوا يؤكدون أن أحد لا يمكن أن يقيم مقبرة أسفل أحد السيول . وخلال يومين كانوا قد أزاحوا الغطاء عن مدخل غير على عمق ثمانية عشر قدماً . واندس منه بلزونى ، حيث وجد نفسه فى ممر طوله ستة وثلاثين قدماً وارتفاعه ثمانية أقدام تغطى جدرانه وسقفه رسوم جميلة وحفرت فيها نقوش بالهيروغليفية . وفى نهاية الممر سلم يقود إلى ممر آخر ، مزخرف بدوره برسوم جميلة . وأدرك بلزونى أنه فى مقبرة ملك عظيم ، إلا أن الممر الجديد كانت تقطعه حفرة كبيرة عمقها ثلاثون قدماً ، وإتساعها أربعة عشر قدماً ، تمتد من الجدار إلى الجدار . وكان بوسعه أن يرى فى الجانب الآخر من الحفرة ما يشبه جدارا من الصخر المصمت ، لكنه كان فى الواقع مبنياً من الجبس والحجر ، طلى على شاكلة الصخور المحيطة لخداع لصوص المقابر السابقين ، لكنه فشل فى ذلك شأن معظم الجدران الزائفة ، فعبر الحفرة كان بوسع بلزونى أن يرى فتحة تخترق الجدار ، ولاحظ أن حبال النخيل التى استخدمها اللصوص ليهبطوا خارجين من الحفرة تركت فى مكانها ، وقد تحولت إلى رماد حين لمسها .

وفى اليوم التالى وضعوا زوجاً من الجذوع فوق الحفرة لاجتيازها ، وتمكن بلزونى من توسيع الفتحة الموجودة فى الجدار ، وتسلق داخلاً منها ، حيث اكتشف سلسلة من

الغرف مزخرفة بزخارف أروع من أى مقبرة سبق الكشف عنها فى وادى الملوك . كان هذا هو ضريح سيتوس الأول ، أو رمسيس الثانى ، الذى بنى القاعة الكبيرة المرفوعة على أعمدة فى الكرنك ومعابد أبيدوس فى القرنة . ولم يكن هناك ما يفوق جمال المكان وصيانته . ووجد وسطه شيئاً رائع الجمال كتب يقول انه :

. . . يستحق أكبر اهتمام ، إذ لا يضارعه شئ آخر فى العالم ، وما كانت لتخطر لنا فكرة وجوده . انه تابوت من أرق مرمر شرقى طوله تسعة أقدام وخمس بوصات ، وعرضه ثلاثة أقدام وسبع بوصات ، ولا يتجاوز سمكه بوصتين ، ويصبح شفافاً حين يوضع ضوء داخله ، وهو منحوت بدقة من الداخل والخارج يحوى بضع مئات من الأشكال التى لا يتجاوز ارتفاعها بوصتين . . . . ولا أستطيع أن أعطى فكرة كافية عن هذا الأثر الجميل القيم ، وكل ما أستطيع أن أقوله هو أن شيئاً يضارعه لم يجلب من مصر إلى أوربا .

وقبل أن ينجح بلزونى فى الوصول بالتابوت إلى مستقره الأخير فى قلب لندن كان قد أصبح رمزاً لكل ما هو بغيض فى علم المصريات الأولى .

فقبل أن يتمكن فريق بلزونى من تسجيل تفاصيل كل ما عثروا عليه استقبلوا أول زائر بارز للموقع . فقد اندفع العرب من الجبل إلى المخيم قائلين انهم شاهدوا فرقة كبيرة من الخيالة الأتراك يسرعون نحو الوادى ، وانزعج بلزونى لأن الأتراك كانوا عادة ما يتحاشون المكان . وبعد نصف ساعة سمع طلقات المدافع تدوى فيما بين التلال ، وأحس أن المكان سيتعرض للقصف عندما لاحت قوات من الفرسان المسلحين فى الأفق .

كانت القوات تصحب حامد أغا ، حاكم الجانب الشرقى من طيبة ، الذى سمع بالكشف الجديد وجاء ليرى الكنوز ، وحيا بلزونى بود بالغ ، وقبل بحماس عرضه بالقيام بجولة فى المقابر . وجلبت المشاعل ، واقتاد بلزونى ضيفه على طول الممرات جميلة الزخارف ، وعبر غرف غنية باللوحات المحفورة والألوان الدافئة . وبدا الأغا مشتتاً غير متأثر ، وسار رجاله فى أثره وهم يفحصون كل ثغرة وزاوية . وفى النهاية وصلوا إلى قلب المقبرة وجمال التابوت الأبيض الساكن . وجلس الأغا أمام التابوت ، وصرف رجاله ، وسأل بلزونى فى تكتم بالغ عما إذا كان يستطيع أن يريه «الكنز» ، وحين أخبره بلزونى بأنه رآه كله رد الأغا بأنه علم أنهم اكتشفوا ديكاً ذهبياً كبيراً مليئاً

بالماس واللآلىء ، وطلب أن يراه . كان الديك الذهبى جزءاً من الفولكلور العربى ، وإحتمال وجوده فى مقبرة غير مكتشفة أقرب إلى إكتشاف اناء من الذهب فى قاعدة قوس قزح . وحين اقتنع الأغا فى النهاية بأن بلزونى لم يعثر على الديك اندفع خاوجاً وهو يشعر بالاحباط . وحاول بلزونى أن يهدئه فتبعه وسأله رأيه فى كل الرسوم الجميلة ، فرد الاغا بأن المكان يصلح للحريم إذ ستجد النساء شيئاً يتفرجن عليه طيلة اليوم ، وغادر المكان .

وكان الزوار التالون أكثر تقديراً للجمال ، فقد وصل هنرى سالت ومعه ثلاثة زوارق كبيرة تحوى كل ما يمكن لدبلوماسى طموح أن يتمناه : ايرل وكونتيسة بلمونت ، وابنة عمه جوليانا ، وابناه لورد كودى وفخامة هنرى كودى ، وشقيق الايرل الكابتن أرماد لودين كودى بالبحرية الملكية ، وكانت أرواح الفريق فى رعاية قسيس الايرل الخاص ، الأب لورى ، وأجسادهم فى رعاية الدكتور روبرت ريتشاردسون ، وطافوا جميعاً بالمقبرة ، وصدرت عنهم تعليقات مندهشة طيبة . وبدا بلزونى سعيداً بالزيارة وكتب يقول ان سالت قد انبهر بالتابوت حتى لقد أنفق الأربعة أشهر التالية يحفر فى المنطقة دون نتيجة ، أو حسب تعبير بلزونى الساخر «وهو بالطبع يستطيع أن يصف ما اكتشفه بدقة أكبر منى» . وليس هناك تلميح فى كتابات بلزونى عن أى احتكاك بينهما .

غير أن سالت لاحظ أنه بعد قليل من رحيل فريق الايرل بدأ بلزونى يخاطبه « بطريقة ملتويه بعض الشىء» . والأرجح أن سالت – رغبة منه فى أن يؤثر على زواره – قد حرص على أن يحدد علاقته ببلزونى باعتبارها علاقة سيد وخادم . ومن المؤكد أنه لم يكن يريد أن يُعتبر بلزونى زميلا . ولا شك أن بلزونى شعر بذلك وأحس بالمهانة ، فطلب من سالت إيضاح علاقتهما ، وبوجه خاص التوصل إلى اتفاق عما يدفع له ، ورد سالت بأنه فكر فى أن يدفع لبلزونى راتبا يتراوح بين ٣٠٠ و ٥٠٠ قرش فى الشهر فضلا عن مصروفاته . لكن نجاح بلزونى حتى الآن كان قد تجاوز التوقعات ، مما يستدعى بوضوح إعادة التفكير . ولم يكن بوسع سالت أن يتنبأ بما قد تؤدى إليه هذه الأفكار ، فهو قد دفع مبالغا كبيرة ولم يحصل على شىء مقابلها – لكنه سيفكر فى الموضوع فيما بعد . ولا غرابة فى ألا يجد بلزونى هذا الأمر مرضيا ، وأن يعود إلى مناقشة الموضوع فى اليوم التالى ، وحين وعده سالت بدفع ١٠٠٠ قرش فى الشهر (نحو خمسة وعشرين جنيها) بأثر رجعى منذ مغادرته الاسكندرية و « بأننى سأتنازل

له فضلا عن ذلك عن أى أشياء قد أستغنى عنها وتكون مفيدة له . . . وأنه ينبغى أن يتأكد من أننى سأقدم له أدلة أخرى على تقديرى » . كان هذا ترتيبا قد يناسب كاتبا قنصليا طموحا ، ولعل ادعاء سالت أن بلزونى بدا راضيا لا يرجع إلى خداع قدر ما يرجع إلى عدم الفطنة ، لكن رضا بلزونى كان قصير الأجل .

فبعد بضعة أيام وصل بيتشى ومعه فريق آخر من الرحالة الإنجليز ، وألمح سالت عرضا وهو يريهم المقبرة إلى عدد السنوات التى قضاها بلزونى « فى خدمته » ، فانفجر بلزونى ساخطا ، وأخبر الضيوف المندهشين أنه لم يكن أبدا مستخدما لدى سالت ، وأنه يعمل من أجل الأمة البريطانية ، وأن لديه إمكاناته المستقلة ، وسيقدم خدماته للأمة بلا مقابل .

وكان الأمر الذى يثير سخط بلزونى هو ادعاء سالت المستمر لأمجاد الاكتشافات لمجرد أنه كان هو الذى مولها ، فبلزونى هو الذى حقق الاكتشافات ، وينبغى أن يحظى هو بالتكريم من أجلها ، وقد رفض وضع المستخدم غير ذى الشأن الذى يتقاضى أجرا . أما سالت فقد شجعه الفريق الإنجليزى على الاعتقاد بأنه سيتصرف بصورة معقولة تماما ، بل بسخاء ، فبلزونى - فى نهاية الأمر - إنما يخاطر برأسه أما هو فيغامر بأمواله .

ولما لم تكن هناك رابطة تعاطف بين سالت وبلزونى - فكل منهما يعتبر مسلكه معقولا للغاية فى حين يراه الآخر غير مقبول - كان من المناسب اضفاء طابع رسمى على العلاقة ، وبالتالى وقع الرجلان اتفاقا فى ٢٠ أبريل ١٨١٨ بدا أنه يوضح الأمور :

«وحيث أنه يبدو أن هناك فكرة خاطئة لدى السيد چيوفانى باتيستا بلزونى بشأن الأشياء التى تجمع تحت رعاية السيد هنرى سالت وعلى حسابه فى مصر العليا ، إذ يعتبرها موجهة إلى المتحف البريطانى ، وحيث أنه قد أوضح للسيد بلزونى أن هذه الفكرة خاطئة تماما . . . .»

وأوضحت ديباجة الأنفاق أن كل طرف إنما يعمل لحسابه ، ومضت الأحكام لتحدد أن سالت سيدفع ٥٠٠ جنيه لبلزونى خلال الإثنى عشر شهرا التالية ، وأنه سيعطى لبلزونى تمثالا ذا رأس أسد موجودا فى فناء القنصلية ، وأنه تنازل لبلزونى عن غطاء التابوت الذى أهداه إياه دروفيتى ، وأى أشياء أخرى يمكنه الاستغناء عنها ، وأن

التابوت المرمرى سيقدم إلى المتحف البريطانى خلال ثلاث سنوات من تاريخ الاتفاق بسعر عادل : «ويعتبر من حق السيد بلزونى الحصول على نصف السعر الذى يدفع مقابل هذا التابوت متجاوزا ألفى جنيه استرلينى» . ومقابل ذلك تعهد بلزونى بالتوجه إلى طيبة وجمع التابوتين اللذين بقيا هناك تحت رعاية » و « على حساب » هنرى سالت ، ولكن ليس كمستخدم لديه .

كان سالت لا يزال يقدم الأموال . وكان فى ذلك الحين يقتطع من تركة تبلغ ٥٠٠٠٠ جنيه جاءته عند وفاة أبيه فى العام السابق . ورغم أنه تمسك بالحق فى التصرف فى الآثار باعتبار أنه هو الذى دفع مقابل استعادتها ونقلها فلم يكن يخامره شك فى الغاية النهائية لهذه الآثار ، فقد كانت مجموعة سالت - باستثناء القطع التى أرسلها لإرضاء رعاته - موجهة إلى المتحف البريطانى ، ولم يكن لديه شك فى أنه سيحظى بالاعتراف الكافى والجزاء السخى من هذه المؤسسة الوطنية العظيمة .

الفصل الثالث

«من أجل المنفعة العامة للأجيال المقبلة»

حين قام أمير وأميرة ويلز بزيارة مانورهاوس ، بشيلسيا ، فى يونيو ١٧٤٨ ، قام المالك- وهو عجوز غريب الاطوار أسير مقعد متحرك على ثلاث عجلات - بالطواف بهما فى القصر وأبديا اعجابهما - بحكم الواجب - بغرفة مليئة بعينات نباتات جافة ، وتجولا دون فهم بين سلاسل من الخزائن الغاصة بالأحجار الكريمة والأسماك الغريبة والطيور المحنطة والميداليات الذهبية والفضية والطرائف غير المحددة . وكان كتالوج هذه المجموعة الهائلة يتألف من أربعين مجلدا بالحجم المتوسط ، كما كانت هناك مكتبة للكتب النادرة تحوى أكثر من ٤٢٠٠٠ مجلد . وأعرب الأمير فريدريك عما «شعر به من سرور شديد لرؤية مثل هذه المجموعة الرائعة فى انجلترا» وأضاف أن «من المؤكد أنه مما يفيد العلم . . . أن توضع من أجل المنفعة العامة للأجيال المقبلة» .

ووافق السير هانز سلون مالك المجموعة . وكان قد كتب وصية بالفعل معبراً عن رغبته فى أن هذه المجموعة :

. . . التى تكشف بعديد من الطرق عن تجليات مجد الرب ، وعن دحض الالحاد وآثاره ، وتحسين الفيزياء وغيرها من الفنون والعلوم واستخدامها لخير البشرية يمكن أن تبقى معاً . . . وذلك أساسا فى مدينة لندن وحولها . . . . ويمكن باقبال الناس الشديد أن تكون شديدة النفع . . . . وأن يراها كل من يرغب فى رؤيتها ومشاهدتها . . . . .

وكان السير هانز قد عاش حياة مليئة كطبيب للأسرة المالكة والطبقات الغنية فى

لندن . وكان أول رجل يمنح لقباً وراتباً لخدماته الطبية ، وتوفر له -إذ عاش حتى سن الثالثة والتسعين- كل من الوقت والمال لإشباع شغفه الكبير - جمع التحف .

ونصت وصية السير هانز على أن تبقى مجموعته بعد وفاته سليمة ، وتعرض على الملك مقابل مبلغ رمزى هو ٢٠٠٠٠ جنيه ، فاذا اعتذر جلالته عن قبولها انتقل العرض إلى البرلمان . ولم يكن چورج الثانى - وهو آخر ملك بريطانى يقود قواته فى المعارك - مغرماً «بالشعر والرسم» شأنه فى ذلك شأن أبيه ، وقرر أنه يستطيع أن يستخدم أمواله استخداماً أفضل ، لكن البرلمان تقبل واجبه فى تكوين مجموعة وطنية ، بالرغم من معارضة رئيس الوزراء ٠٠٠ وولد المتحف البريطانى .

وكان من المعتزم من البداية الأولى أن يكون المتحف مؤسسة رفيعة المكانة : فقد كان مجلس أمنائه - حسب القرار البرلمانى الصادر فى ٧ يونيو ١٧٥٣ - يضم اسقف كانتربرى ورئيس مجلس اللوردات ورئيس مجلس العموم أمناء رئيسيين ، يساعدهم وزير الخزانة (رئيس الوزراء) وحامل أختام الملك ، وقائد البحرية الأول وناظر الخاصة الملكية وأسقف لندن ، ومستشار الخزانة وكبير قضاة انجلترا ونقيب المحامين . والمدعى العام ورئيس الجمعية الملكية . وبعبارة أخرى لقد عهد بمتحف البلاد إلى نفس الادارة التى تدير البلاد . وفيما بعد أضيف رئيسا أكاديمية الفنون الملكية وجمعية الآثار .

وحين عرفت السيدة ديلانى ابنة أخ لورد لاندزداون - الحريصة على أن تبقى على علم بالأحداث - بوصية السير هانز كان أول تعليق لها هو إحساسها بخيبة الأمل لضياع متعة المزاد ، لكنها أضافت «آمل أن يقوم الملك . . . . ببناء متحف جدير بملك» . وبسرعة وضع أربعة مهندسين أربعة تصميمات - أحدها من طراز الدوكو والبقية من الطراز الكلاسيكى الحديث - لكن الأمناء الموقرين كانوا من البداية شديدى التحفظ فى استخدام الأموال العامة ، وقرروا أن من الأوفر تحويل مبنى قائم . ولما كان المتحف بحكم القانون «مستودعاً عاماً» يقام «من أجل المنفعة العامة للأجيال المقبلة» فقد كانوا يبحثون عن مكان فسيح ومتين . ورفضوا عرض منزل باكنجهام - سلف قصر باكنجهام - مقابل ٥٠٠٠٠ جنيه باعتباره مرتفع السعر جداً ، وابتاعوا بدلاً منه دار مونتاجو فى بلوسبيرى من ايرل هاليفاكس بمبلغ متواضع هو ١٠٢٥٠ جنيه .

وإلى دار مونتاجو - التى أصبحت الآن المتحف البريطانى - جلبت الآثار المصرية التى تشترى باسم الأمة ووضعت للعرض . كانت أشياء صغيرة - تماثيل للآلهة من

البرونز والحجر والفخار والتكوينات المصقولة والرقى وبضعة جعارين - كتلك التى يمكن أن توجد فى أسواق القاهرة والاسكندرية وانتهت إلى خزائن سير هانز سلون .

وفى عام ١٧٥٦ حصل المتحف البريطانى على أولى مومياءاته وتوابيته ، من تركة الكولونيل ويليم ليثيولية . وسعد الأمناء بقبول منح أخرى للعرض شملت مومياء ثانية وتابوتاً إلى جانب «بجعة برية» .

كانت القطع جميعاً موضوعة للعرض فى قاعات المتحف الأنيقة العليا . غير أنه وصلت فى عام ١٨,٢ الآثار المأخوذة من علماء بونابرت ، ومن بينها أشياء حجرية تزن عدة أطنان ، كان من الواضح أن الأرضية لن تتحملها ، وأودعت مؤقتاً فى سقائف فى الحديقة . وحين قرر الأمناء شراء مرمريات تاونلى - وهى آثار اغريقية ورومانية كانت معروضة فى رواق خاص فى مايفير - دفعهم ذلك إلى بناء جناح جديد فى الزاوية الشمالية الغربية لدار مونتاجو . وافتتح رواق تاونلى فى ٢ يونيو ١٨٠٨ ، وأصبح مقر مجموعات من التماثيل العارية - وكذلك بعض القطع الكبيرة من المجموعة المصرية .

ومن أجل تعزيز المجموعة المصرية حث سير چوزيف بانكز رئيس الجمعية الملكية ، وأحد أمناء المتحف البريطانى بحكم منصبه ، هنرى سالت على أن يوسع أعماله ، ونتيجة هذه المساندة ذات النفوذ شعر سالت بالأمان فى استخدام أمواله لتمويل عمليات بلزونى ، ولم يكن لديه شك فى أنه سيلقى الجزاء الكافى . لكن سالت انتظر عبثاً تعبيراً رسمياً عن الشكر على رأس ممنون الشاب ، التى أرسلها هو وبوركهارد هدية للمتحف البريطانى ، منتظراً على الأقل رسالة شكر من لورد كاسترلى وزير الخارجية . وطال الصمت ، ولم يعرف حتى ما إذا كانت الرأس قد وصلت سالمة . ورغم شعوره بخيبة الأمل لم يثنه عن غايته ما اعتبره بلا شك إهمالاً بيروقراطياً .

وكان سالت يعتبر نفسه منغمساً فى صراع وطنى للحفاظ على مصالح بلاده فى مصر ضد الفرنسيين ، فقد جاب دروڤيتى وادى النيل بحثاً عن أرقى الكنوز لمتاحف فرنسا ، وشجعه وكرّمه الزوار الرسميون وكتابات الرحالة الفرنسيين عن خدماته الكبيرة لبلاده . أما هو فقد نجح فى الحد من الأنشطة الفرنسية ؛ وتولى ضفة النيل الغربية ، وتمكن من خلال بلزونى من الاستيلاء على ممنون الشاب ، وفتح معبد أبى سمبل ، واكتشف أجمل مقبرة فى وادى الملوك . وأرسل هدايا إلى المتحف البريطانى ،

موفياً بوعده لواحد من أبرز الأمناء ؛ وكان قد استخدم أمواله الخاصة ، وأنفق جانباً كبيراً من الخمسة آلاف جنيه التى تركها له والده فى حفائر مصر العليا . وفى عام ١٨١٨ - حين سمع سالت للمرة الأولى الأنباء المقلقة القائلة ان الأمناء لم يعودوا راغبين فى تلقى مزيد من الآثار من مصر ، كانت هناك مجموعة كبيرة منها تقف فى فناء القنصلية فى القاهرة ، وقطع كثيرة مازالت ترقد فى مواقعها فى مصر العليا ، فى حاجة إلى أموال لنقلها .

ولم يعد فى وسع سالت أن يتوقف ، والواقع أنه فى هذه الفترة زاد راتب بلزونى ليبقيه فى العمل . ولاشك أنه وهو بعيد قد ظن أن الأنباء التى وصلته عن تغير هوى الأمناء قد تكون خاطئة أو مبالغاً فيها ، فكتب إلى صديقه وراعيه ويليم هاملتون - وكان عندئذ وكيلاً لوزارة الخارجية - طالباً المشورة . وأوضح سالت أنه أنفق الكثير من ماله الخاص بحيث إن لم يستطع التصرف فى المجموعة بسعر مرض فلن يستطيع أبداً التقاعد فى انجلترا : «وسيحكم علىّ أن أبقى هنا إلى الأبد ، ولابد أنكم توافقون على أن هذا ليس مصيراً مستحباً ، لأن الادخار من راتبى أمر غير مطروح ، طالما ظل الابقاء على مكانة القنصلية موضع ما هو جدير به من اعتبار» . وأخبر هاملتون أن تحت تصرفه «تمثالين خشبيين بالحجم الطبيعى ، كتلك التماثيل التى يقول هيرودوت انها كانت توضع فى المقابر ، وكذلك بعض الأبقار ورؤوس الحيوانات الأخرى والتماثيل الصغيرة . . . .» . ومضى سالت ليرتكب ما قد يكون أول خطأ له ، مدعياً أن تماثيله ستلقى الضوء على النحت المصرى و«تثبت ادعاءه التفوق الفنى الزائد ، مما يبين بجلاء أن الاغريق قد استعاروا الأسس - إن لم يكن ما هو أكثر - من هذا الشعب غير العادى» .

ورغم أن هاملتون كان يتعاطف مع الآثار المصرية ، بل كان قد كتب واحداً من أكثر المؤلفات جدية عن الموضوع ، كما كان منغمساً بشدة فى النحت الكلاسيكى ، إذ ساعد - أثناء عمله سكرتيرا للورد إلجين - فى التفاوض بشأن مرمريات إلجين . وأثار هذا فضيحة صغيرة ، لا لأنه كان من المعتقد أنها مسروقة من اليونان ، وإنما لأنها كانت غالية ، فلابد من تبرير الأموال العامة التى أنفقت على النحت الاغريقى ، وكان هاملتون حساساً ازاء كل ما يمكن أن يوحى بأن هذه المنحوتات قد لا تكون فريدة . كما أن الامناء ، الذين ضغطوا من أجل مصروفات كبيرة من الأموال فى العامين الماضيين لشراء مرمريات تاونلى (٢٨٠٠٠ جنيه) ومرمريات إلجين (٣٥٠٠٠ جنيه) ومرمريات

فيجالى (١٩٠٠٠ جنيه) لم يكونوا ليتقبلوا أى ادعاء بأن هذه المرمريات ليست أرقى إنجاز فنى بشرى .

وارتكب سالت عندئذ خطأه الثانى ، فقد كتب إلى هاملتون قائلاً ان من الصعب حساب قيمة مجموعته ، لكنه أشار عَرَضاً إلى أن الكونت دى فوربين قد ضغط عليه لشرائها لحساب ملك فرنسا ، لكنه رفض ما يعرف أنه ثمن مجز لأنه «سيؤسفه أن يرى هذه الأشياء خارج انجلترا» . واستطرد سالت طالباً مساعدة الحكومة فى شحن هذه القطع إلى انجلترا ، قائلاً انه سيسعده أن يقبل تقييم هاملتون نفسه أو أى شخص آخر قد تهتم الحكومة بتعيينه . وللمساعدة فى هذا التقييم أرفق سالت قائمة بالأسعار التى يظنها عادلة ، مضيفاً أن هذه القائمة ينبغى أن تعتبر ذات «قيمة افتراضية ، لكن من المحتمل أن أكون مخطئاً فى ذلك لأننى لا أعرف شيئاً عما يمكن أن تباع به هذه الآثار : فالواقع أن شيئاً كهذا لم يشاهد من قبل فى أوربا» .

ولا تبدو تقيمات سالت الأولية - حين ننظر إليها الآن - غير معقولة : رأس هائل لتحتمس الثالث من الكرنك مقابل ٥٠٠ جنيه ، وذراع لنفس التمثال مقابل ٥٠ جنيهاً ، وتمثالان برأس أسد ٤٠٠ جنيه ، وتمثال جالس لسيتوس الثانى من طيبة ٨٠٠ جنيه . وكان أثمن بند فى القائمة التابوت المأخوذ من مقبرة سيتوس الأول . وكان هو الذى أثار أكبر مشكلة أمام سالت ، فقد كتب يقول انه «كان مستحيلاً على أن أقيمه ، لكننى أعتقد أن ثمنه يتراوح بين ثلاثة وأربعة آلاف جنيه ، باعتباره من المرمر ، ولا يضارعه شىء فى اتقانه» .

ورغم أن رسالة سالت كانت رسالة خاصة لهاملتون فقد عرضها هذا بلا كياسة - ومعها القائمة - على عديد من الأمناء ومن بينهم سير جوزيف بانكز ، وكان هذا مازال متأثراً بجراح الجدال الذى دار حول المصروفات الأخيرة على المنحوتات الاغريقية ، ولعله كان يشعر بقدر من الذنب لأن تشجيعه لسالت واجه المتحف بمزيد من المطالب على أمواله فكتب رسالة قاسية لسالت يقول فيها :

سيدى ،

رغم أننا هنا راضون كثيراً عن ممنون ، ونعتبره تحفة من تحف النحت المصرى ، الا أننا لم نضع التمثال بين أعمال «الفنون الجميلة» بل هو معروض فى القاعات المصرية . ومازال موضع شك أن يصل أى تمثال وجد فى مصر إلى مستوى الأعمال العظيمة فى

رواق تاونلى ، ومالم تكن كذلك فان من غير المحتمل أن تتحقق فى أوروبا الأسعار التى وضعتها لممتلكاتك .

ولم تكن فكرة أن «تحفة» من تحف النحت المصرى لا يمكن أن تعتبر من «الفنون الجميلة» نابعة من سير چوزيف بانكز ، فهو رجل ثرى ذو نفوذ ، يتمتع بقدر من السمعة فى ميدان التاريخ الطبيعى لكنه لا يكاد يعتبر حكماً فى التذوق . والواقع أن هذه الفكرة كانت تعكس تحيزات كبار رجال المجتمع من ذوى التعليم الكلاسيكى ، وخاصة أمناء المتحف البريطانى الحريصون على الحفاظ على مستويات مؤسستهم ، والارتفاع بمستويات الجماهير .

وكانت المشكلة التى تواجه الأمناء مشكلة مألوفة : فقد نص قانون إنشاء المتحف على «حرية دخول . . . . كل المجدين ومحبى الاستطلاع» ولكن – على حد قول الامناء – فان «إطلاق الحرية للناس العاديين من كل رتبة وصنف ، أمر لا يمكن التحكم فيه ، وستقع كثير من التجاوزات التى لا يمكن لبضعة موظفين فى المكتبة أن يمنعوها ، بل سرعان ما سيتعرضون للإهانة من مثل هؤلاء الناس ان هم حاولوا أن يراقبوهم أو يعارضوهم» .وهكذا أدخل اجراء ادارى للمحافظة على نص القانون وان تعارض مع روحه : فكان على كل الزوار أن يتقدموا إلى البوابة ويسجلوا أسماءهم وأوضاعهم ليفحصها الموظفون قبل أن يصدروا تذكرة الدخول . ولما كانت هذه العملية تستغرق عدة أسابيع فقد حالت دون دخول الكثيرين ، لمجرد نفاد صبرهم .

غير أن عدد المتقدمين زاد ، وهكذا طبق أسلوب اصطحاب مجموعات المشاهدين في جولة سريعة تنقطع فيها أنفاسهم لمدة نصف ساعة لا يسمح فيها بالمناقشة . وقد أثار هذا احتجاج زائر من برمنجهام فى عام ١٧٨٥ :

وفى أقل من ثلاثين دقيقة أنهينا زيارتنا الصامتة عبر القصر الفاخر ، وهى زيارة كان يمكن أن تستغرق ثلاثين يوماً ، فخرجت ولم أكد أزداد علماً عما دخلت ، وإنما بذلك الاحساس الحاد بأننى – خوفاً من ضياع الفرصة – قد انتزعت نفسى من حديث شيق مع ثلاثة من السادة ، وأضعت افطارى ، ودفعت شلنين ثمناً لتذكرة ، ودُفعت بعنف عبر القاعات . . . . لقد اهتممت بزيارة المتحف البريطانى أكثر من أى شئ آخر يمكن أن أشاهده فى لندن ، لكنه كان هو المشهد الوحيد الذى أثار ضيقى . . .

وبحلول عام ١٨١٠ سمح «للأشخاص ذوى المظهر اللائق» بأن «يبقوا فى

الأجنحة أو فى رواق الآثار دون قيد زمنى» . وكان هناك تغير دقيق فى التركيز حين قرر الأمناء أن هدفهم هو تعزيز «العلم والفنون» وليس ارضاء «حب الاستطلاع . . . لدى الكثيرين . . . الباحثين عن التسلية» . وفى سياق هذا الهدف كانت الآثار المصرية تمثل مشكلة : فأغلب الناس كانوا يبحثون عن متعة و«رعشة» التحديق فى مومياء أو سيدة لها رأس أسد أكثر من مشاهدة صفوف التماثيل الحجرية الكلاسيكية . ولعل الشعبية الشديدة للآثار المصرية وطرافتها هى التى أثارت تحيز الأمناء ضدها – وربما الحاجة إلى تأكيد القيمة الفنية الأرقى للمجموعات الاغريقية والرومانية .

ووجد سالت نفسه يعمل فى مناخ غير موات من الرأى العام ، وفى مايو ١٨١٩ تلقى رسالة من صديقه ويليم هاملتون أرفق معها رسالة سير چوزيف بانكز وأضاف :

لا يمكننى الا أن أؤيد سير چوزيف فى توصيته لك بألا تحفر عميقاً بحثاً عن الكنوز الخبيئة للنحت المصرى ، وذلك أن من السهل فى هذه الأوقات الصعبة اقتصادياً أن يغلق چون بول خيوط كيس نقوده ، ولو كلفه ذلك ضياع الآثار الفريدة التى اكتشفها .

وكان سالت محتجزاً فى القاهرة أثناء نوبة وباء طاعون حين تلقى هاتين الرسالتين . وتبددت آماله فى الأمن المالى بل ربما حتى فى التكريم ، وكان مما يزيد هذا التغير فى مشاعر لندن إثارة لسخط أنه قد أسرع به على ما يبدو دليل الأسعار البرئ الذى بعثه إلى هاملتون ، مؤكداً أنه ربما كان بعيداً للغاية عن الصواب . والواقع أن هذا الدليل قد انتقل من يد إلى يد بين الأمناء المندهشين ، وبسببه سمى سالت المسكين «تاجرا» و«لورد إلجين آخر» . لقد خسر شيئاً أكثر قيمة فى نظره من رأسماله : خسر حسن تقدير أبناء وطنه هناك .

وبقيت أمام سالت وسيلة ممكنة لاستعادة كرامته ، أسرع باتخاذها ، فكتب أربعة رسائل فى ٢٨ مايو ١٨١٩ ، أولاها للسير چوزيف بانكز عارضاً مجموعته بأكملها على المتحف البريطانى دون أى شروط ، معرباً فحسب عن الأمل فى أن يرى الأمناء تعويضه عن مصروفاته ، وألا تغفل الحكومة خدماته . ووجه الرسالة الثانية إلى رايت أونوروبال شارلز يورك ، رئيس سالت فى وزارة الخارجية البريطانية . يبلغه فيها بعرضه ، ويعتذر عن «قائمة التقييمات الحمقاء» ويشرح محنته المالية . وقال انه قبل أصلاً تعيينه قنصلاً عاماً على أساس أفتراض أنه سيحصل – مثل سلفه الكولونيل

ميسيت – على معاش فى نهاية خدمته . وقد عرف بعد ذلك أن معاش الكولونيل ميسيت كان مرتبطاً بخدماته فى الوطن ، وليس كقنصل عام ، وقيل له ألا يعول على مثل هذا الآمل ، ولما «لم تكن هناك فرصة ادخار شئ من راتبى القنصلى ، على ضوء ما اعتبره واجباً وهو – المحافظة على ما يكفل الاحترام لمنصبى ، وتوفير سبل الراحة للزوار ذوى الشأن» فقد رأى نفسه محكوماً عليه بالحرمان فى مصر طيلة حياته . ورغم هذا الأفق المعتم ، وما يمكن أن يتيحه له بيع مجموعته للفرنسيين من فرج ، فانه لا يريد الا أن يهبها للمتحف البريطانى ، «ولم يقدنى إلى هذه الخطوة مجرد ميلى إلى خدمة الجمهور ، الذى غلب فى ذهنى أى اعتبار أنانى ، بل كذلك رغبتى في الامتثال لما تريد . . .» وليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن شعور سالت الوطنى كان زائفاً إلا أنه كان يدرك أن الموظفين الذين يستحقون مكافآت الحكومة هم أولئك الذين يكشفون عن اخلاص للمصلحة القومية دون انتظار الحصول عليها .

أما الرسالتان الأخريان فلصديقى سالت ، لورد فلوتونورس ووليم هاملتون يبلغهما فيها بالخطوة التى اتخذها . وكان أكثر تحديداً عن آماله فى رسالته إلى ويليم هاملتون . وفى الوقت الذى يحتج فيه قائلاً «وانى لعلى استعداد أن أهدر كل آثار العالم ولا أهدر تقدير سير چوزيف ومستر يورك وتقديركم» ، يستطرد قائلاً انه «يظل مقتنعاً تماماً بأن الحكومة يمكن ذات يوم أو آخر أن تكرم خدماتى ، وتمكننى – بترتيب ما فى المستقبل – من أن أقضى آخر أيامى فى أوروبا» . وقد كان التخلى عن أى حق فى مجموعته لمجرد الأمل فى أفضال مقبلة خطوة جريئة . ولم يكن بوسع سالت ، القابع فى منزله بينما الطاعون يعصف من حوله ، الا أن ينتظر النتائج .

وفى الوقت ذاته تمكن سالت من تسوية أموره مع بلزونى ، رافعاً دينه له – البالغ ١٦٩ جنيهاً – إلى ٢٠٠ جنيه ، ومضيفاً عدة أشياء من مجموعته شعر أنه يستطيع الاستغناء عنها . ويسجل سالت أن بلزونى «بدا راضياً تماماً ، وأعرب عن أمله وهو يرحل فى أن نظل أصدقاء» . ولابد أن القنصل قد شعر للمرة الأولى فى علاقتهما بالحسد لبلزونى ، إذ كان هذا فى طريقه إلى التكريم فى لندن .

كان اسم بلزونى يتردد بقوة فى العاصمة فى صحيفة «كوارترلى ريڤيو» – وهى صحيفة واسعة الانتشار مجدت انتصاراته على الفرنسيين فى وادى النيل ، مما أسعد جمهوراً من القراء ترضيه المعاملة اللاذعة لادعاءات الفرنسيين الأستاذية فى مصر ، وهى معاملة لم تسلم منها حتى مجلدات «وصف مصر» الرائعة :

الكل يعرف أن الفرنسيين أرسلوا مع جيشهم لمصر جيشاً صغيراً من العلماء ليحتفوا ويرتبوا «وطن البطالسة القديم الخصب» الذى لم يكونوا يشكون فى فتحه . . . ولم يكشف هؤلاء حين طردهم الجيش البريطانى من أرضهم الموعودة عن قدر أقل من الجد فى الحصول على تذكار وطنى للنصر فى شكل كتاب هائل يبقى على صيتهم وصيت قائدهم ، وهو كتاب منقطع النظير فى تاريخ الكتب من حيث عدد الأقدام المربعة فى صفحة من صفحاته .

وكانت «كوارترلى ريفيو» قد أعلنت عن اهداء رأس ممنون الشاب إلى المتحف البريطانى ، قائلة ان هذه المؤسسة يمكن – من خلال جهود سالت وبلزونى – أن تصبح أغنى مستودع للآثار فى العالم . وأسعد «الكوارترلى ريفيو» أن تنشر تعليقات سالت على تفوق بلزونى على أفضل الفرنسيين : «والواقع أن موهبته الكبيرة وعبقريته غير المألوفة فى الميكانيكا قد مكنته – بنجاح بارز – . . . من أن ينقل أجزاء هائلة تحدت – باعترافهم – جهود أقدر المهندسين الذين صحبوا الجيش الفرنسى»

ورداً على الادعاء المذهل من جانب چومار محرر «چورنال دى سافانت» الذى ذكر أنه لما كان الفرنسيون قد بذلوا كثيراً من التضحيات للكشف عن آثار مصر فانهم ينبغى أن يعتبروا ملاكها الحقيقيين ، طرح محرر «الكوارترلى ريفيو» أعمال بلزونى :

اننا لا نزعم أن بلزونى رجل عالى التعليم أو عميق العلم ، لكنه يمتلك بالتأكيد موهبة بحث عميقة ودأباً لا يكل . . . . وبجهود هذا الرجل يمكن أن يصبح المتحف البريطانى أول مستودع للفن والآثار المصرية فى العالم . ونحن على ثقة من أن كل تشجيع ممكن سيقدم لهذه الجهود بمكافأته بسخاء عما قام به ، وبوعده بمكافآت مقبلة تتناسب مع مقدار كشوفاته .

وكان مؤسس «كوارترلى ريفيو» هو الناشر چون موراى ، ولهذا كان طبيعياً أن يتوجه بلزونى إلى مكتب هذا المتحمس للطرائف بمخطوطات كتابه «قصة العمليات والاكتشافات الأخيرة فى الاهرام والمعابد والمقابر والحفائر فى مصر والنوبة ، ورحلة إلى شاطئ البحر الأحمر بحثاً عن بيرينيس(١) القديمة ، ورحلة أخرى إلى واحة چوبيتر آمون» . وأدرك موراى أن الوقت مثالى لنشر الكتاب ، فرأس ممنون تقف فى المتحف البريطانى ، اعلاناً صارخاً عن المؤلف ، وثمة آثار أخرى فى الطريق . وكان بلزونى الذى علمته مهنته على المسرح ادراكاً لثمار الاعلان ، قد خطط لاقامة عرض

يخطف الأبصار فى قلب لندن .

كانت مصر حينئذ فى بؤرة وعى الجماهير : فالحملة الفرنسية على وادى النيل ونشر «وصف مصر» آثارا الاهتمام العام ، وأشعلا ما يمكن تسميته «ببعث مصر» ، وإن كان بعض مؤرخى العمارة يزعمون أن الاهتمام بالحضارة المصرية أو شبه المصرية قد ظل حياً فى أوروبا منذ أوائل عصر النهضة . غير أن مصر لم تغد أبداً نزوة وطنية : فهى تفتقر إلى كل من مكانة الآثار الاغريقية والرومانية ، وإلى الايحاءات الوطنية للأسلوب القوطى ، ورغم ذلك فحتى فى ستينات القرن الثامن عشر ، وقبل حملة بونابرت ، كانت قاعة بليياردو قد صممت لدار كيرنس فى أبيردينشير بأشكال هيروغليفية حول المدخنة والأفاريز والأبواب ، وبنيت المدفأة على شاكلة مدخل مقبرة . وأثناء سنوات الاحتلال الفرنسى لمصر ، وقبل الضجة التى صاحبت اكتشافاتهم فى العالم أجمع – كان توماس هوب قد جمع الأثاث والزخارف «لقاعته المصرية» فى قصر فى شارع الدوقة بلندن . وهنا كان الزوار يشاهدون مخدعاً أو خدراً توجد فيه مدفأة على شكل سقيفة تحت خيمة من القماش القطنى ، وكان هناك «مقعد مصرى» يصور كهنة ساجدين وايزيس مجنحة ، وافريزاً من الأشكال المصرية ، ومومياء فى صندوق زجاجى . وكان ويدجوود ينتج دائرة واسعة من تماثيل أبى الهول وأوانى حفظ أحشاء المومياءات برسوم مصرية منذ سبعينات القرن الثامن عشر ، وكان مصممو (ديكورات) المنازل يميلون إلى اللهو بتركيبات من الأعمدة والنصب التذكارية والمسلات وأبى الهول والجعارين .

وأثار الانغماس البريطانى فى مصر والانتصارات التى حظيت بالتهليل على الفرنسيين ازدهاراً (للموضات) التى تستوحى الشرق الغامض . وفى عام ١٨٠٧ كتب روبرت ساونى شاكياً :

وفى الوقت الحالى ، وحيث عاد الجنود من مصر بأطراف محطمة وعيون مرمودة ، فإنهم يحملون ذراعاً فى جبيرة ، أو يسيرون فى الشوراع بغطاء أخضر على عيونهم . وكل شئ الآن ينبغى أن يكون مصريا : فالسيدات يتزين بحلى من جلد التمساح . وأنت تجلس على أبى الهول فى حجرة تحيط بها المومياءات والرجال الهيروغلفيون السود الطوال ذوو الأذرع النحيلة والأنوف الطويلة الذين يمكن أن

(١) اسم لثلاث من مدن البطالسة – المترجم .

يفزعوا الأطفال من التوجه إلى النوم . بل ان رفوف المحلات ينبغى أن تتحول مع (الموضة) ، وأن تحلى بالحروف المصرية التى ستدرك بلا شك أنها غريبة لأن المصريين لم تكن لديهم حروف .

وحين أخذ بلزونى يستعد للانطلاق فى لندن كان المجتمع قد دغدغته المصريات وعلى استعداد لمزيد من الاثارة . ووجد بلزونى المكان المثالى لمعرضه فى القاعة المصرية ببيكاديللى ذات الواجهة التى يقال انها تستند إلى رسوم دينون لمعبد دندرة . والواقع أن النوافذ السفلى تتخذ شكل الهرم المدرج ، والباب محاط بزوج من أعمدة اللوتس السميكة غير المصرية ، وفوقها يقف زوج هائل من التماثيل لا يستطيع أن يرى فيهما ايزيس وأوزوريس الا النحات وحده . وفى الداخل كان الرواق محمولاً على أعمدة محلاة بزهور اللوتس والهيروغليفية ورؤوس هاتور ، والسقف مزين بدائرة الأبراج الفلكية .

ووضع بلزونى داخل القاعة نماذجاً بالحجم الطبيعى لغرفتين من مقبرة سيتوس الأول ، ونموذجاً مصغراً طوله خمسين قدماً للمجمع بأكمله . كما كان هناك نموذج من الشمع ارتفاعه أربعة أقدام للهرم الثانى ، ونموذج آخر يبين الممرات والغرف الداخلية فى قطاع عرضى ، ونموذج آخر لمعبد أبى سمبل بنسبة واحد إلى ثلاثين ، وحول الجدران تماثيل من جبس باريس - لأوزوريس وحورس وأنوبيس برأس ابن آوى - والفراعنة يعبدونهم ويقدمون لهم الأضحيات ، وكلها ملونة بألوان براقة لتنسخ الانطباعات التى رسمها بلزونى فى مصر . وكانت هناك كذلك آثار حقيقية : تماثيل لسخمت ذات رأس الأسد ، ومومياءات ، وصناديق زجاجية مليئة بأشياء أصغر مثل «أوانى تحوى أحشاء المومياءات» ، وقطع قديمة من حبال النخيل ، وأحذية قديمة ، وأوراق البردى ، وأجزاء من المقابر والتماثيل والتوابيت .

وانطلق المعرض فى بداية مبشرة : فقد كانت لندن مزدحمة انتظاراً لحفل التتويج فى الصيف ، والقاعة المصرية تشغل موقعاً جيداً عند الجانب الجنوبى لبيكاديللى فى مواجهة اتصاله بشارع أولد بوند ، حيث كانت العربات عادة ما تقف لتلتقط الركاب . وفى يوم الافتتاح ، أول مايو ١٨٢١ دفع ١٩٠٠ شخص نصف جنيه ثمناً لتذكرة الدخول وازدحموا فى القاعة ، وعرضت «التايمز» وصفاً تفصيلياً :

نعتقد أن كل عين لابد أن يرضيها هذا الجمع الفريد والترتيب الماهر لأشياء بالغة

الجدة ومثيرة فى ذاتها . . . . ان العبقرية الميكانيكية والدأب الذى لا يكل اللذين تمكن بهما بلزونى من أن ينقل إلى ساحة الجدال الأوروبى حفائر مصر التى لم تكن لتنقل لولاهما ، واللتين تضفيان عليه من الفضل كفنان ما لا يقل عن حكمته ونجاحه فى اكتشاف مواضيع هذا المعرض غير العادى ، تميزانه عن كل الرحالة الأوروبين فى الأزمنة الحديثة .

واستمر المعرض أكثر من عام ، وأصبح مكان لقاء رائجاً يلتقى فيه – كما كتبت ليدى بليسنجتون – الأشخاص ذوو الشأن الذين «جاءوا ليقضوا ساعة أو لانتظار لقاء معارفهم» كما مارست آثار النيل سحرها على الأرواح الأكثر حساسية ، وانفعل الشاعر هوراسيو سميث فوضع «رسالة إلى مومياء فى معرض بلزونى» :

وهل طفت (وياللقصة الغريبة)

فى شوارع طيبة قبل ثلاثة آلاف سنة

حيث كان ممنون فى أوج امجاده

ولم يكن الزمن قد بدأ يطوح

بالمعابد والقصور والأعمدة الهائلة

التى تبدو حتى خرائبها بهذه الضخامة

ويعرب الشاعر عن تشوقه إلى المحادثة :

فلتتكلم ، فقد ظللت صامتاً طويلاً

ان لك لساناً – فدعنا نستمع إلى نغماته

وهاأنت تقف على قدميك فوق الأرض أيها المومياء !

تنظر ثانية إلى لمعات القمر

لا كشبح نحيل أو مخلوق لا جسدى

وإنما بعظامك ولحمك وأطرافك وملامحك

لكن المومياء ترفض أت تجيب :

فإذا لم تكن أسرار القبر لتزاح

أو طبيعة حياتك الخاصة لتكشف

فان قلباً قد نبض خلف هذا الصدر الجلدى
ودموعاً قد انسالت على هذا الخد المترب :
هل جلس أطفال على هاتين الركبتين وقبلوا هذا الوجه؟
ماذا كان اسمك ومركزك وسنك وعنصرك؟

وخلال صيف عام ١٨٢١ ، وفى الوقت الذى كان بلزونى يخالط فيه المجتمع الراقى فى لندن ، ويجتمع بالأسرة المالكة فى الفرع الماسونى الذى كان عضواً فيه ، ويتناول العشاء مع سير والتر سكوت فى قاعات اجتماع آلماك فى سان چيمس ، كان راعيه - هنرى سالت - يرقد فى القاهرة وقد أحالته حمى التيفوس إلى هيكل عظمى ، وبقيت رسالته إلى سير چوزيف بانكز دون رد ، وعرضه غير المشروط لكل مجموعته على المتحف البريطانى دون اعتراف .

كان أصدقاء سالت ورعاته فى لندن قد تجمعوا عند تلقيهم لتفسيره لسوء الفهم الذى سببته قائمة تقييماته . وكتب كل من ويليم هاملتون ولورد ماونتنوريس وشارلز يورك إلى بانكز يحثونه على الضغط من أجل قبول عرض سالت وتقديم تعويض معقول له . وكان بانكز متفائلاً : فرغم أنه احتج بأن اعتذار سالت عن قائمة الأسعار لا يغفر له دافعه إلى ارسالها أصلاً ، فقد قال انه سيطرح المسألة فى اجتماع الأمناء التالى ، مضيفاً أنه لا يخامره شك فى أن العرض «سيقبل فوراً» . غير أن بانكز كان مريضاً للغاية فى ذلك الحين ، وتوفى فى العام التالى دون التوصل إلى قرار .

وكان سالت قد وجد نوعاً من العزاء فى مصر ، فلطالما شعر بافتقاد شئ خطير فى حياته ، عبر عنه فى رسالة إلى لورد ماونتنوريس فى أغسطس ١٨١٨ :

غير أن أكبر حاجة أشعر بها هى صحبة زوجة ، فعواطفى قوية ، وأريد حولى أشياء أستطيع أن أحبها . ولو كان لدى أطفال لشعرت بالسعادة . أما أن أركد هكذا بعيداً عن كل علم وأدب وفن ومعرفة ورقة وذوق فهو عقاب يكاد يكفى لكى أصاب بالجنون ، ولكن أياً كان الأمر فلابد أن تدور العجلة . . . .

وفى اكتوبر ١٨١٩ تزوج سالت فى النهاية . وكانت عروسه ابنة فى السادسة عشرة لتاجر شهير من ليجهورن بإيطاليا يدعى بتسا ، كان قد جلب معه أسرته عندما انتقل للعمل فى الاسكندرية . وقابل سالت الفتاة وتزوجها هناك ، وأصيب بالمرض فى يوم زفافه ، وكان لابد من نقله فى عربة المحافظ إلى رشيد ، حيث قابله جراح من

القاهرة وأخذه إلى هناك ليموت . ولم يكن لدى الأطباء أمل فى شفائه ، ويبدو أن عزم سالت على الاستمتاع بزواج طالما تمناه هو الذى مكنه من المقاومة .

وطيلة عام ١٨٢٠ ساءت صحة سالت ، وطلب السماح له باجازة للاستشفاء فى انجلترا . ومنح الأجازة فى ديسمبر من ذلك العام ، لكن التوترات السياسية جعلت من الصعب عليه مغادرة مقر عمله : فقد كانت السفن الهندية تحاصر موانئ البحر الأحمر ، وهناك مخاوف من حدوث قطيعة مع روسيا ، وقرر سالت البقاء فى مصر إلى أن تستقر الشؤون الدولية .وأنفق القليل من الوقت المتاح له خارج سرير مرضه فى كسب ود الباشا ، وأداء واجباته الزوجية بقدر ما تسمح به صحته . وفى نوفمبر ١٨٢٠ كتب إلى لورد ماونتنوريس يقول «وسيسعدك أن تعرف أن زوجتى حامل ، لقد تعرضت لاجهاض فى شهرين ، ولكن يسعدنى هذه المرة أنها وصلت إلى شهرها الثالث» .

كما تمكن سالت من ترتيب شحنة من آثاره لترسل إلى لندن . ورغم أنه لم يكن متأكداً بعد من غايتها النهائية فقد وظف وكيلاً - هو بنجهام ريتشاردز - لايداعها فى المتحف البريطانى إلى أن يتمكن من العودة إلى لندن وتسوية المسألة . وفى الوقت نفسه واصل سالت زيادة مجموعته . وحين رقد ثانية بفعل التيفوس فى صيف عام ١٨٢١ قرر أن يتوجه إلى جو أسوان الأكثر رطوبة وبصحبته مترجمه ينى . وهناك قضى وقتاً مجزياً وهو يرتب لنقل مسلة إلى صديقه بانكز ، فضلاً عن استكشاف المقابر حول طيبة ، حيث نجح ينى فى الكشف عن مقابر خاصة لم تلحظ من قبل ، من بينها مقبرة «كاتب ملكى» غلت اضافات لمجموعة سالت :

ولدى تمثال له ولزوجته ، ومعه لوحة الوانه وجعران على شكل خاتم عليه اسمه . كما اكتشف ينى مقعداً مصرياً فى حالة جيدة ، كتلك المقاعد المرسومة على جدران مقابر الملوك ، وهو مرصع بالعاج والأبنوس ، وجميل الشكل للغاية ، وتربطه كلية أوتاد خشبية وليس مسامير أو أربطة أخرى : ووجد بالمثل أجزاء من ڤيثار سيكون من السهل جداً اعادة تكوين هذه الآلة منها . . . .

وشحنت هذه الكنوز إلى القنصلية فى القاهرة ، وانتظر سالت معها إلى أن يسمح له انهاء الحرب بين اليونان وتركيا بمغادرة القنصلية ، وأخذها إلى الوطن ، وبيعها إلى المتحف البريطانى .

وفى لندن لم يكن الأمناء قد أبدوا أى امارة على التوصل إلى نتيجة بشأن عرض سالت لمجموعته حين وصلت الفرقاطة التركية «ديانا» إلى ميناء لندن حاملة أجمل شئ استخرج من وادى النيل حتى ذلك الحين : التابوت المرمرى الأبيض الشفاف من مقبرة سيتوس الأول .

وكانت لدى بنجهام ريتشارد تعليمات من سالت بأن يسلم التابوت إلى المتحف البريطانى ، ولكن حتى قبل أن يتمكن من تفريغ «ديانا» كان بلزونى قد وصل مطالباً بحقه . فبحكم اتفاق بلزونى مع سالت كان من حقه الحصول على نصف أى مبلغ يجلبه التابوت فوق ٢٠٠٠ جنيه . وكانت السنوات الثلاث التى ينبغى أن يعرض فيها التابوت على المتحف البريطانى قد انقضت ، ولدى بلزونى عرض مؤكد من فرنسا بثلاثة آلاف جنيه . ومن ثم فليس من حق المتحف البريطانى الحصول على التابوت ما لم يدفع مبلغاً يعادل هذا العرض . واحتار ريتشاردز ، فأقنع وكلاء «ديانا» بتأخير التفريغ . وكتب إلى كل الجهات طالباً العون . ورد وليم هاملتون بأن عليه أن يتبع تعليمات سالت ، وأوضح اللورد ماونتنوريس أن التابوت قد أدخل دون رسوم جمركية لانه موجه إلى المجموعة الوطنية ، وأنه لو بيع لفرنسا فستستحق عليه رسوم ربما زادت عن الفرق بين تقييم المتحف البريطانى والثلاثة آلاف جنيه المعروضة على بلزونى ، وأثار شارلز يورك نقطة أساسية لم يشر إليها أحد آخر ، وبدا سالت ميالاً إلى تفاديها وهى : أن سالت لم يكن ليحصل على التابوت «لولا الشخصية العامة التى أضفتها عليه الحكومة البريطانية وما استمده من نفوذ بهذه الصفة على ذهن ونوايا الوالى محمد على» . ولما كان قد حصل على التابوت ، جزئيا على الأقل ، من خلال ممارسة النفوذ البريطاني الرسمى فليس من المناسب السماح بتصديره .

وجاء الخطاب الحاسم من والد ريتشاردز ، الذى كان هذا الأخير قد كتب له مبديا قلقه ، مبيناً أن بلزونى جاء بالفعل بعرض مقداره ٣٠٠٠ جنيه ، ومن ثم فانه يمكن أن يقاضيه اذا سلمه للمتحف البريطانى مقابل مبلغ أقل . وكان من رأى الأب أن الاتفاق بين سالت وبلزونى لا يعتد به ، وأنه حتى لو جاء بلزونى إلى رصيف الشحن يحمل ٣٠٠٠ جنيه نقداً فان من الخطأ تسليمه التابوت لأن هذا قد يعرض ابنه لدعوى تعويض من أمناء المتحف البريطانى . وواضح أن ما تعرض له الوكيل الذى يسلم شحنة آثار فى خطورة ما يتعرض له الوكيل الذى استخرجها أصلا . وامتثل ريتشاردز المسكين للنصيحة الابوية ، وأرسل التابوت إلى المتحف البريطانى .

وبالطبع كان بلزونى يريد أن يضع يديه على التابوت لكى يضيفه إلى معرضه شديد النجاح فى القاعة المصرية . ويلغ من حرصه أن كتب إلى الأمناء عارضاً أن يتنازل عن حقه فى التابوت إذا سمحوا له بأن يعرضه لمدة اثنى عشر شهراً أو حتى ستة شهور . واستغرق الأمناء شهرين لدراسة طلب بلزونى ، وحين درسوه فى النهاية ، تجنبوا التوصل إلى قرار ، بالكتابة إلى سالت سائلينه الرأى .

وفى هذا الوقت كان قلق سالت يتزايد ، فقد انقضى عامان منذ عرض مجموعته على المتحف البريطانى ، ولم يحدث أى رد فعل . وفى ١٠ مايو ١٨٢٢ كتب إلى الامناء مكرراً عرضه غير المشروط بهبة المجموعة كلها التى كانت فى هذا الوقت قد زادت . وأوضح سالت أن تجميعها كلفه «ما يصل إلى ٣٠٠٠ جنيه» ، وأنه أنفق ميراثه فى تجميعها ، وليست لديه وسيلة أخرى لاعالة نفسه وأسرته ، وهو يعانى المرض : «ولهذا فان علىّ أن أضع نفسى تماماً رهن كرمكم ، وسيرضينى تماماً أى قرار تتخذونه لصالحى» .

وكان هذا بالطبع هراء . فقد كتب سالت قبل أسبوعين فحسب إلى ريتشاردز يخبره أنه لجأ إلى أصدقائه ذوى النفوذ ؛ اللورد ماونتنوريس وشارلز يورك ووليم بانكز أحد الأمناء ، طالباً منهم أن يضغطوا من أجل تعويض عادل له ، ثم أضاف :

وقد يكون من الصواب أن أُسِرَّ إليك بأننى آمل أن أحصل على أربعة آلاف جنيه من الحكومة ، والا فسأشعر بأننى مهضوم الحق . ولو حصلت على خمسة آلاف جنيه فسأرضى تماماً . وأعتقد أنك تعرف أن دروفيتى قد عرض علىّ فى مصر عشرة آلاف دولار (نحو ألفى جنيه) مقابل التابوت ، وكرر هذا العرض نفسه رحالة بروسى هو البارون مينوتولى ، الذى رجانى ان رفضت الحكومة أخذه أن أبلغه بالرفض . وأستطيع أن أحصل فى فرنسا على ضعف ما قررته مقابل مجموعتى ، وان كانت هذه الحجة - كما لاحظ يورك - «ليست حجة نزيهة تماماً» .

وخول ريتشاردز سلطة الوكيل ليتصرف باسم سالت ، وأبلغ الأمناء أن مبلغ ٥٠٠٠ جنيه مبلغ معقول مقابل المجموعة والتابوت معاً . ولما كان بلزونى قد أخبرهم أنه يستطيع أن يحصل على ٣٠٠٠ جنيه مقابل التابوت وحده ، فقد قرر الأمناء بحسبة بسيطة عرض ٢٠٠٠جنيه مقابل المجموعة وحدها دون التابوت - وان كان هذا العمل قد استغرق منهم سنة بأكملها . وفى اجتماع برئاسة أسقف كانتربرى فى ١٤ فبراير

١٨٢٣ قدم عرض رسمى مقداره ٢٠٠٠ جنيه ، ورفض شراء التابوت .

غير أن بلزونى لم يعد موجوداً للتفاوض بشأن بيع التابوت . فقد أنفق عاما بلا جدوى يهدد برفع دعاوى على المتحف البريطانى ، ويحاول وضع يده على التابوت ، ويقضى وقته بالطواف فى أوروبا متقبلاً اطراء الجماهير .

وحين عاد بلزونى إلى انجلترا فى صيف عام ١٨٢٢ رتب بيع محتويات معرضه فى القاعة المصرية بالمزاد العلنى ، وحقق مبلغاً : فقد بيع نموذج مقبرة سيتوس الضخم مقابل ٤٩٠ جنيها ، وبيع تمثالان لسخمت برأسى أسد غير متقنين بعض الشئ مقابل ٣٨٠ جنيهاً ، وتمثال آخر بحالة حيدة مقابل ٣٠٠ جنيه . وحتى النماذج الشمعية كانت مطلوبة ، نموذج معبد ايزيس فى فيلة بثمانية وعشرين جنيهاً ، ونموذج أبى سمبل بأربعة وعشرين جنيها .

ومكنت هذه المبالغ بلزونى من أن يطوف أوروبا فى جولة أخرى . وفى أوائل عام ١٨٢٣ قام بتوكيل چورج آدم براون ، زميل كلية ترينيتى بكمبردج . وعرض بلزونى حنيئذ غطاء التابوت المصنوع من الجرانيت الأحمر والذى أعطاه دروفيتى على متحف فيتزويليم ، ورحل لاكتشاف منبع النيجر ، وتوفى بالدوسنطاريا فى طريقه إلى تمبكتو فى ٣ ديسمبر ١٨٢٣ .

ولفترة بدا أنه مامن مشتر للتابوت . وفى يأس كتب سالت لريتشاردز طالباً منه أن يبيع التابوت مقابل ١٥٠٠ جنيه لوأنه نجح فى بيعه بسرعة . وأرغى المتحف البريطانى وأزبد ، وفى فبراير ١٨٢٤ جاء عرض مؤكد من چون سيمون مقداره ٢٠٠٠ جنيه . وقبل أن يتصرف ريتشاردز فى التابوت نهائياً كتب إلى الأمناء فى ٢ أبريل ١٨٢٤ ، عارضاً التابوت عليهم مقابل الثمن نفسه . ولم يستغرقوا سوى ثمانية أيام فى الوصول إلى القرار الخاطئ ، ورفضوا فى ١٠ أبريل . وبعد شهر - فى ١٢ مايو ١٨٢٤ - أودع قصر سون حيث لا يزال يحظى بالاعجاب حتى الآن .

وكان عام ١٨٢٤ عاماً سيئاً لسالت ، فقد رقد مريضاً معظم الأسابيع الأولى ، ومع اقتراب عيد الفصح أنجبت زوجته طفلاً ، وأصيبت بالحمى ، ولم يتمكن الطبيب من البقاء معها الا لفترة قصيرة قبل أن يستدعى لرعاية زوجته التى أصيبت بالطاعون . وبعد عشرين يوماً توفى الطبيب نفسه بالطاعون ، ودخلت زوجة سالت فى نوبة اغماء لم تفق منها ثم توفى الطفل . واجتاح الحزن سالت لوفاة زوجته ، وبلغ به

الضعف نتيجة المرض أن أحس أنه لم يعد يستطيع رعاية ابنته چورچينا التى تبلغ عامين ، فأرسلها إلى ليچهورن لترعاها أسرة زوجته . لقد فقد سالت أوثق أقربائه ، وعاد مرة أخرى وحيداً فى أرض غريبة .

ويبدو أن سالت قد لاذ بعمله : فقد توفى القنصل فى الاسكندرية فى أكتوبر ، وكان عليه أن يقوم بمهام الوظيفتين دون زيادة فى الراتب . كما كتب قصيدة باسم «مصر» نشرها على حسابه فى الاسكندرية ، وهى قصيدة طويلة فلسفية متحذلقة ، من الأفضل تركها لهوة النسيان التى سقطت فيها على الفور .

كان سالت يشعر بالألم لأن الشهرة التى ارتبطت بعمليات الاكتشاف والنهب التى مولها فى وادى النيل قد ادعاها بلزونى ، فسعى إلى الحصول على قدر من الاعتراف بعلمه . وأرسل إلى ريتشارد «مقال عن صوتيات الهيروغليفية لدى يونج وشامبليون» ومعه لوحات مكلفاً اياه بأن ينشره بأسرع ما يمكن : «أود أن يطبع على وجه السرعة حتى لو كلفنى مائة وخمسين جنيهاً» . ومن المؤسف أنه حدثت تعطيلات ، وظهر كتاب شامبليون «موجز النظام الهيروغليفى» قبل المقال ، الذى لم ينشر حتى عام ١٨٢٥ .

واستمر سالت فى جمع الآثار ، بمساعدة ينى المخلص ، ومع بداية عام ١٨٢٥ نجح فى جمع شحنة أخرى من الآثار ، ولكنه تخوف من ارسالها إلى المتحف البريطانى ، فشحنها إلى أقاربه فى ليجهورن . وكتب فى ١٥ يونيو إلى ريتشاردز وكيله فى لندن :

وقد جمعت آثارا تبلغ قيمتها أربعة آلاف جنيه ومجموعتى الآن فى ليجهورن : أرقى مجموعة موجودة من أوراق البردى ، وأفضل مجموعة من البرونزيات المصرية ، وعدة لوحات من الفخار الملون ، وقطع فاخرة من الذهب والبورسلين - وباختصار ما يمكن أن يجعل من المجموعة الموجودة فى المتحف أفضل ما فى العالم من مجموعات مصرية ، وأنا على استعداد لأن أقدمها فوراً إلى المتحف لو استطعت أن أحصل على معاش يبلغ ٦٠٠ جنيه مثل هـــــ يمكننى أن أتقاعد استناداً اليه .

كان سالت لا يزال يبحث عن تأمين دخل يسمح له بالاستقرار فى انجلترا . ولو فكر أمناء المتحف قليلاً فى حالته الصحية ، لغامروا بثقة بتقديم معاش ما كان ليكلفهم سوى القليل جداً . لكن سالت لم يكن على استعداد للمساومة هذه المرة . وكتب مرة أخرى إلى ريتشاردز يقول «سيسرنى للغاية أن تذهب (المجموعة) إلى انجلترا ، ولكن

كفى مساومة مع المتحف البريطانى - فآل سون هم من أريد»

وقد يبدو أن أمناء المتحف لم تتح لهم فرصة بحث هذا العرض ، فبعد أقل من شهر من تقديمه كتب سالت ثانية لريتشاردز ليخبره أن أحد الوكلاء يقوم الآن بفحص مجموعته فى ليجهورن لحساب مشتر ملكى يبدو أكثر سخاء وأقل التواء من الأمناء . ومن سخريات الأمور أن المشترى الملكى لم يكن سوى ملك فرنسا ، الذى أنفق سالت طيلة عمره فى مصر فى الكيد له ، والذى عمل هو ويلزونى بلا كلل لانتزاع الآثار من قبضته . وكان سالت قد أرسل المجموعة إلى صهره بيتر سانتونى مخطراً اياه بأنه يتوقع الحصول مقابلها على ١٥٠٠٠٠ فرنك على الأقل . وتمكن سانتونى من التأثير على وكيل الملك بحيث رتب بيعها مقابل ٢٥٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠ جنيه) ، وأكملت الصفقة فى أبريل ١٨٢٦ ، على أن تدفع الأموال لسالت على فترة أربع سنوات .

غير أن سالت لم يحظ بمتعة الحصول عليها ، فقد توفي بمرض معوى فى ٢٩ اكتوبر ١٨٢٧ . ودفنت جثته فى الاسكندرية ، وكتب ابن عمه توماس بات ، - ابن العم الذى يحمل الاسم نفسه والذى قدم سالت للورد ڤالينسيا فى رواق فوسيلى ليبدأ بذلك عمله فى مصر - على شاهد قبره العبارة التالية :

ان عبقريته الحالية قد استكشفت وأوضحت الهيروغليفية وغيرها من آثار هذا البلد . وقلمه الأمين السريع ، والأصالة الحادة لأشعاره العفوية ، قد وهبت للعالم أفكاراً حية عن المشاهد التى كانت تمتعه . . . وسط واجباته الهامة وجهوده المستمرة ، وفى سن الثامنة والأربعين ، وبعد مرض قصير ، استدعى إلى ما نثق أنه موطنه الأفضل والخالد فى التاسع والعشرين من اكتوبر عام ١٨٢٧ ميلادية .

وكان ينى - وكيل سالت فى مصر ، مازال يعبئ مجموعة هناك أرسلت إلى ليجهورن قبل ثلاثة أسابيع فقط من وفاة سالت . وقد شحنت هذه المجموعة فى النهاية إلى لندن ، وبيعت بالمزاد العلنى فى قاعة سوثيبي بشارع ويلنجتون فى عام ١٨٣٥ .وتعكس البنود المتفرقة من كتالوج البيع التنوع الغريب للأشياء التى كان سالت - كغيره من (مديرى) الحفائر المصرية الأول - يدعى عليها حق ملكية غريب ، يستند إلى افتراض التفوق الثقافى ، أو ربما إلى ذلك المبدأ البسيط القديم القائل ان «الحيازة سند الملكية» :

٢ - أربعون تمثالاً صغيراً لمختلف الآلهة بعضها دقيق للغاية . . . . . ٩ شلن

١٠ - صقر ذو رأس بشرى . . . . . . ٨ شلن

٧٥ - سلة صغيرة تحوى اليد اليمنى لمومياء امرأة تضع فى اصبعها الثانى

جعراناً مرصعا بالفضة . . . . . . ١٩ شلن

١٧٠ - عدة عيون لمومياءات مرصعة بالمرمر . . . . . ٥ شلن

٢١٥ - جرس صغير من الذهب وجد حول رقبة مومياء صبى . . . . . ٦ جنيه و٦ شلن

٣٢١ - ستة أزواج من الأقراط الحمراء مختلفة الحجم . . . . . جنيه و ١١ شلن

٣٤٣ - زوج من العيون مرصع بالبرونز ، جميل ، مأخوذ من مومياء

وجدت فى ممفيس . . . . . ٦ جنيه و ٨ شلن

٣٥٤ - بجعة صغيرة ، زرقاء على خاتم ذهبى . . . . . ممفيس ، ١٧ شلن

٣٦٣ - قطعة ذهبية من النقود Cufic . . . . ١٥ شلن

٤٠٧ - مجموعة من سبع أدوات نجارة تتألف من بلطتين

مختلفتين بمقبضين خشبيين وثلاثة أزاميل وسكين . . . . . ١٦ جنيه و ٥ شلن

٥٢٢ - ثلاث عينات من الخبز . . . . . جنيه و ٦ شلن

٩٢٩ - كرة لعب أطفال ، مصنوعة من الداخل من قش القمح

ومن الخارج من الجلد ، غريبة للغاية . . . . . ١٤ شلن

١٢٠٠ - زوج صندل برسوم جميلة . . . . . ١٧ شلن

وكانت ذروة الاثارة فى كل يوم هى بيع المومياءات ، التى كانت تترك دائماً إلى النهاية حتى تتاح فسحة من الوقت للمشترين :

١٤٩ - مومياء طفل صغير ، ارتفاعها قدمان و ١٠ بوصات ،

فى صندوقها الذى حلى بصورة الوجه مرسومة بطريقة غريبة للغاية ،

بأساور حول قصبة الرجل والمعصم والذراع . . . . . ٣٦ جنيه

١٥٠ - مومياء سيدة راقية ، ارتفاعها ٥ اقدام و ٤ بوصات

وصندوقها محلى برسومات وزخارف جميلة . . . . . ١٠٥ جنيه

٨٥٢ - مومياء شخصية ملكية ، فى صندوقين . . . . ٣٢٠ جنيه و ٥ شلن

١٢٦٦ - مومياء راقصة فى حالة جيدة للغاية ، ارتفاعها

٥ اقدام . . . . . ٢٨ جنيه و٥ شلن

كان المزاد يضم ١٢٧٠ بنداً ويشمل العملات والميداليات والتماثيل الخشبية والحجرية والبرونزية ، ولفائف من مخطوطات البردى والجعارين والحلى الذهبية وأوثان من البورسلين . واستغرق البيع تسعة أيام ، وبلغت حصيلته ٧١٦٨ جنيهاً و١٨ شلناً و٦ بنسات . فاذا أضفنا إليها الألفى جنيه التى دفعها المتحف البريطانى والألفى جنيه التى دفعها چون سون مقابل التابوت والعشرة آلاف جنيه التى دفعها ملك فرنسا ، فان هذا يعنى أن ثروة سالت قد زادت أكثر من ٢١٠٠٠ جنيه من الحفائر التى مولها أول جامع آثار ودبلوماسى بريطانى فى مصر .

وحقق دروڤيتى - الذى بقى فى اللعبة فترة أطول - أرباحاً أفضل ، ففى البداية واجه مشكلات فى التصرف فى مجموعته ، التى أنشأها تحت الراية الفرنسية وبالهامها ، لأن الكهنة الفرنسيين كانوا يعارضون شراء آثار قد تهدم مرجعية الكتاب المقدس . ورغم أن دروڤيتى تلقى عروضاً من انجلترا - بل لقد حاول سالت اقناعه بالبيع للمتحف البريطانى - وعروضاً من ألمانيا ، فقد تمسك - كما فعل سالت - بألا يبيع الا للدولة التى كان يمثلها فى مصر . وفى النهاية - وكما فعل سالت أيضاً - نفد صبره ، وباع أول مجموعة كبيرة لملك سردينيا - مقابل ٤٠٠٠٠٠ ليرة (أكثر من ١٣٠٠٠ جنيه) وجهت لتأسيس المتحف المصرى فى تورينو . ثم قام الملك شارل العاشر - الذى ارتقى العرش فى سبتمبر ١٨٢٤ عازماً على اذكاء أمجاد الملكية القديمة - بشراء مجموعة دروڤيتى الثانية مقابل ٢٥٠٠٠٠ فرنك (١٠٠٠٠ جنيه) . وبيعت مجموعة ثالثة إلى متحف برلين فى عام ١٨٣٦ مقابل ٣٠٠٠٠ فرنك .

وأنهى دروڤيتى أيامه فى تورينو ، المدينة التى عمل فيها قاضياً عسكرياً ، والتى زودها بمجموعة آثارها المصرية الشهيرة دولياً . وتوفى فى عام ١٨٥٢ محتجزاً فى مستشفى للأمراض العقلية .

وفى الوقت الذى كانت فيه مجموعات سالت ودروڤيتى الكبيرة تودع فى متاحف أوروبا كانت قد اكتسبت أهمية تجاوزت الاثارة والغرابة . لقد كانت شاهداً على ماض بدأ يفهم للمرة الأولى فى العصر الحديث : فقد اكتشف نظام الكتابة الذى سجلت به باستفاضة .

الفصل الرابع

الثعلب والقنفذ والكولونيل

يبدو الشقاق الذى دار حول مجموعات دروڤيتى وسالت أقل اثارة للحيرة اذا ذكرنا أنه لا جامعى الآثار ولا المتاحف كانوا يعرفون فيم يتشاجرون . فالتماثيل هناك يمكن رؤيتها - بل ان لبعضها أسماء - لكن من هم هؤلاء الملوك والملكات ومتى حكموا ، وماذا أنجزوا ، كل هذه كانت أشياء مجهولة ، لأن اللغة التى تحوى الاجابات على هذه الأسئلة لم تكن مفهومة فى بداية القرن التاسع عشر .

ففى ذلك الحين لم تكن هذه اللغة معروفة حتى باعتبارها كتابة ، فالواقع أن كلمة «الهيروغليفية» المستخدمة لوصف أشرطة من الصور والرموز تعنى باليونانية «الحفر المقدس» وليس «الكتابة المقدسة» التى تعني «الهيروجرافية» ، وهى كلمة لم تستخدم حتى عام ١٨٥٣ حين حلت الرموز .

وكان الاغريق يعتقدون أن الهيروغليفية تكرس حكمة مصر القديمة الغيبية ، التى لم يكن يصل إلى فهمها الا الكهنة ، الذين نسوا سر الرموز قبل فتح الاسكندر الأكبر . وكان المعتقد أن الهيروغليفية هى الشاهد الأخرس على وحى ضائع . وهى تحمل هالة من السحر : فلو أمكن فحسب أداء الطقوس الصحيحة والنطق بالكلمات السليمة ، لأمكن استعادة القوة القديمة التى كانت لها ذات يوم .

وفى القرن السابع عشر كان بروفسور جزوتى قد أخذ على عاتقه مهمة حل الرموز . وكان أثناسيوس كيرشر متخصصاً فى العلوم الطبيعية ومثقفاً متنوع القدرات . فقد أدلى بحبل فى فوهة بركان ڤيزوف بعد ثورته الكبرى فى عام ١٦٣٠

ليكتشف أسباب ثورته ، واخترع آلة حاسبة ، وأسطوانة متكلمة ، وقيثارا ايولي[1] ، ومشعلاً سحرياً ، وكتب أبحاثا فى الطب وعن الزلازل ، وقام بدراسة خاصة للغات الكلاسيكية .

وبدا كيرشر مؤهلا لكشف أسرار الطبيعة أمام البشرية . وحين التقى بالهيروغليفية للمرة الأولى فى أيام دراسته عقد العزم على معالجة سرها ، وأثناء وجوده فى روما استاذاً للرياضيات فى الكلية الرومانية اضطلع بكشف رموز نصوص على عدد من المسلات الرومانية . وكان أحد هذه النصوص يشير إلى الامبراطور دوميتيان ويقول (كما أصبحنا نعرف اليوم) : «سيزار دوميتيانوس ، الخالد» . وكانت ترجمة كيرشير بعيدة تماماً عن الصواب حتى لتورد كثيراً من باب التسلية :

> الكائن الخير الذى يسود كل الأجيال ، والذى يتمتع بالسيطرة السماوية والقوة الرباعية ، والذى يتحكم فى الجو عن طريق الرطوبة الخيرة فى آمون ، وصاحب القدرة على العوالم السفلى .

واستمر تدفق تيارات الدراسات الزائفة التى جذبت أحياناً انتباه رجال الآثار إلى الهيروغليفية : ففى عام ١٧٦٢ أكد الأب تاندو أنها رموز عشوائية استخدمت كحلية للمبانى والتماثيل التى وجدت عليها ، وليس مقصوداً بها نقل أفكار أو كلمات . وعارض تاندو فى ذلك الشيفالييه دى بالن - رجل السحر والتنجيم - الذى أعلن فى عام ١٨٠٢ أنه نفذ أخيراً إلى السر : فلو أن مزامير داود قد ترجمت إلى الصينية ثم كتبت بالحروف القديمة لهذه اللغة ، فسنجد أمامنا كل الكتابات والبرديات فى مصر . وفى عام ١٨٠٦ بدا أن المسألة قد سويت مرة أخرى حين نشر جوزيف فون هامربورجستال ترجمته لكتاب «الابجديات القديمة» بقلم أحمد ابو بكر بن وحشى ، ولكن اتضح أن المؤلف دجال ، وأن الكتاب لا يعدو أن يكون تهويمات عن الرموز القبلية . ونشر عالم المصريات والعملات الفرنسى مارى - الكسندر لينوار كتابه «شرح جديد للهيروغليفية» فى أربعة مجلدات فيما بين عام ١٨٠٩ وعام ١٨٢١ . وأوضح لينوار فى هذه المجلدات أن الهيروغليفية مجرد شكل من أشكال العبرية ، لكن هذا الكشف لم يجد تربة خصبة ، شأن كشف الكونت كايلوس الذى أعلن فى عام ١٨١٢ أنه هو قد نجح أخيرا فى كشف الرموز الهيروغليفية التى تغطي سقيفة معبد

(*) نسبة إلى الشعب الايولى ، المنحدر من ايولوس سلطان الريح فى الاساطير الاغريقية - المترجم .

دندرة ، فهى لم تكن شيئا آخر سوى مزمور داود المائة الذى يدعو شعب مصر إلى دخول دار الرب .

وجاءت أول خطوة محددة نحو ترجمة الهيروغليفية فى بحث نشره عام ١٧٦١ عالم الآثار الأب چان چاك بارتلمى ، فقد اقترح الأب أن الرموز الهيروغليفية الموجودة فى حلقات بيضاوية ربما كانت أسماء ملكية ، وهى فكرة خطرت كذلك لشارل دى جوين ، المستشرق الفرنسى الذى كان يبحث عن أدلة لتأييد نظريته القائلة ان الصين كانت ذات يوم مستعمرة لمصر ، واستمدت كتابتها من الكتابة المصرية . ومن الباحثين الآخرين الذين أحياناً ماتنسب اليهم هذه الفكرة الرئيسية عالم اللغة الدنماركى چورچ زويجا الذى نشر دراسة عن المسلات فى عام ١٧٩٧ - «أصول المسلات»- وردت بها للمرة الأولى نسخ دقيقة من النصوص .

وجاء الكشف النهائى حين وجدت كتلة حجر من البازلت الأسود تبلغ نحو ثلاثة أقدام طولا واثنتى عشرة بوصة سمكا ، انتزعها من الطين فى دلتا النيل فى قلعة سان چوليان الكابتن بوشار ، واستولى عليها الجنرال هاتشنسون ، وعرضت للفحص . ووفر حجر رشيد الاجابات النهائية ، ولكن ليس بعد مناوشات علمية طويلة واصل فيها البريطانيون والفرنسيون خوض معركة النيل .

وكان الهجوم الأول على النص اليونانى فى الحجر ، الذى استسلم بقليل من الصعوبة للبروفيسور بورسون فى لندن والدكتور هاين فى المانيا ، بل لقد كان هناك تعاون بين هذين الباحثين والمعهد الفرنسى ، وملئت الثغرات التى طرأت على النص بفعل التلف ، وترجم النص بأسره .

وبقى النصان الديموطيقى والهيروغليفى اللذان اتفق الجميع على أنهما صورتين للنص اليونانى . وأرسل الفرنسيون سيلفستر دى ساسى وهو باحث مستعرب وأبرز المستشرقين فى عصره ، الذى تمكن من أن يعلن فى عام ١٨٠٢ أنه حدد فى النص الديموطيقى مجموعات الحروف التى تماثل أسماء بطليموس وأرسينو والاسكندر والاسكندرية . وكان الباحث والدبلوماسى السويدى چوهان داڤيد أكيربالد مع دى ساسى فى باريس ، ثم توجه - تحت رعاية دوقة ديڤونشاير - للعمل فى الكتابات الجرمانية القديمة والفينيقية فى روما . وكانت مع أكيربالد نسخة من نصوص حجر رشيد ، وقد نجح فى أن يحدد فى النص الديموطيقى كل أسماء الأعلام الواردة فى

النص اليوناني ، وكذلك الكلمتان المكتوبتان أبجديا مقابل «يونانى» و«معابد» . بل لقد حاول أن يضع أبجدية للديموطيقية ، لكنه لم يدرك أن الحروف المتحركة فيما بين الحروف الساكنة كانت ملغاة ، وهو أسلوب شائع فى اللغات الشرقية ، ولم يتمكن من تحقيق مزيد من التقدم . وأجرى تحسينات هامة فى أبجدية أكيربالد باحث انجليزى كانت انجازاته مثيرة لمرارة المتخصصين فى الميدان لأنه لم يصبح لغويا الا فى أواخر حياته ، وبشكل عارض .

كان توماس يونج ابن تاجر ومصرفى ميسور من طائفة الكويكر . واذ عقد العزم وهو مازال تلميذا صغيرا على أن النجاح ليس سوى مسألة مثابرة فقد تابع اهتماماته فى مجالات معرفة متنوعة ، ونجح فى أن يتميز فيها جميعا . ودرس الطب فى لندن وادينبورج ، ومنح الزمالة فى الجمعية الملكية وهو فى سن الحادية والعشرين ، ومضى للحصول على الدكتوراه فى الفيزياء في جوتنجن . ويسجل كاتب سيرة حياته انه اذ كان متحررا من الغوايات التى كثيرا ما يقع فيها الشباب فقد وجه طاقاته إلى الفروسية والتمارين البدنية و«مآثر المهارات الشخصية التى تفوق فيها إلى درجة غير عادية» ، كما كان موسيقياً ماهرا ، وكتب مقالات فى «جنتلمان ماجازين» عن النقد الاغريقى والنظريات الكيميائية وعلم النبات والحشرات .

غير أن يونج لم يكن لاهيا بالمعرفة ، فقد أجرى بحوثا هامة أصيلة فى ميدان البصريات ، وكان من أول من يكتشف «الاستجماتيزم» فى العين البشرية ، واكتشف نظرية الضوء الموجه مستبقا فريزنل ، وعين استاذا للفلسفة الطبيعية فى المعهد الملكى فى عام ۱۸۰۱ وهو فى سن الثامنة والعشرين . كما كان يعرض الكتب بانتظام في «كوارترلي ريفيو» ، وفى عام ۱۸۱۳ أرسلت له نسخة من «ميثريديت» وهى دراسة للغات الآسيوية بقلم عالم الفيلولوجيا الالمانى أديلونج . وأثارت هذه الدراسة للمرة الأولى اهتمام يونج بالهيروغليفية ، وحين عاد صديقه سير ويليم روس بوتون فى العام التالى ومعه بعض أوراق البردى من مصر بدأ العمل فى ترجمتها ، وأخذ الأوراق ونسخة من حجر رشيد إلى ورثنج حيث قضى الصيف .

وينتهى النص اليونانى فى حجر رشيد بالأمر التالى :

« . . . . أن يحفر هذا المرسوم على حجر صلب ، بالحروف المقدسة والحروف العادية واليونانية ، ويوضع فى المعابد الأولى ،

والمعابد الثانية ، والمعابد الثالثة ،حيثما قد توضع صورة الملك الخالد المقدس» .

وأكد هذا أن أشرطة الكتابات الثلاثة كانت جميعا ترجمات للنص نفسه . وبالدقة النظامية للباحث العلمى بدأ يونج فى اكتشاف المقابلات فيما بينها . ولاحظ أن مجموعتين من الرموز فى السطرين الثانى عشر والعاشر من النص الديموطيقى تتجاوب مع كلمتى «الاسكندر» و«الاسكندرية» فى النص اليونانى ، مما يمكن أن يحدد سبعة حروف . ثم لاحظ مجموعة صغيرة من الحروف تكاد تتكرر فى كل سطر ، بدا من المعقول معادلتها بحرف العطف «و» . وأن مجموعة الحروف التالية فى تكرارها تجرى بنفس تكرارها فى اليونانية وهكذا أمكن ترجمة كلمة «ملك» . وباستخدام الأسلوب نفسه اكتشف يونج أن مجموعة من الحروف تتكرر أربع عشرة مرة فى الديموطيقية واحدى عشرة مرة فى اليونانية ؛ ونجح فى ترجمة كلمة «بطليموس» ثم كلمة «مصر» .

وبعد أن توصل إلى نقاط التوافق بين النصين ، كتب يونج النص الديموطيقى فوق النص اليونانى ، محددا الكلمات التى عرفها ، ودون أن ينسى أن الديموطيقية تكتب من اليمين إلى اليسار . وباستخدام هذا الأسلوب تمكن من وضع أبجدية بدت منسقة للكتابة الديموطيقية . وساعد يونج فى أبحاثه تراسله مع دى ساسى وأكيربالد ، ويمكن أن يقال انه إنما كان يسير قدما بالاكتشافات التى حققاها ، غير أن دى ساسى وأكيربالد لم يكونا يعملان الا علي النص الديموطيقى ، ولم يكن أحد بعد قد قام بهجوم جاد علي الهيروغليفية ، وهو ما عزم يونج على القيام به .

وقد افترض في البداية أن الكتابة الديموطيقية ربما كانت قد انحدرت من مصدر مشترك لكل من المصرية والقبطية ، ومن ثم درس القبطية لكى يتابع الأبجدية الأصلية . غير أنه هجر البحث حين لاحظ أن عددا من الحروف الديموطيقية تبدو تقليدات بأسلوب الحروف المتصلة للصور الواضحة للغاية فى الهيروغليفية . وكانت هناك أشكال فى النص الديموطيقى لا يمكن أن تكون أبجدية ، بل تبدو بوضوح مستمدة من رسوم لأشياء فى الهيروغليفية .

وقاد هذا يونج إلى افتراض أن شكلى الكتابة مرتبطان ارتباطا وثيقا ، وانهما قد يكونان مجرد أشكال مصورة ومتصلة للرموز نفسها . كما وقف ضد الرأى السائد

وهو أن الهيروغليفية تتألف أساسا من عناصر صوتية ، وأنها - قبل الديموطيقية - شكل لكتابة تمثل أصواتا لا أشياء . وحقق تقدما آخر بادراك أن حروفا مختلفة ، يمكن أن تستخدم لتمثيل الأصوات نفسها - مبدأ تماثل الأصوات . واقترح يونج فى مقال كتبه لملحق «دائرة المعارف البريطانية» فى عام ١٨١٩ مفردات لأكثر من ١٠٠ شكل . ورغم أنه ارتكب بعض الأخطاء فى التفاصيل فان المنهج والنتائج الرئيسية التى كان هو أول من توصل إليها أدت إلى النجاح النهائى فى حل رموز الهيروغليفية .

ولم تحدث ضجة وطنية عند نشر اكتشافات يونج ، فقد كانت فى نهاية الأمر امتدادات لعمل دى ساسي وأكيربالد ، فى مجال بعيد عن الاهتمام العام . وواصل يونج عمله فى مجالات الطب والفيزياء والفلك والأدب اليونانى والرياضيات .

وكان فى طريقه إلى روما ونابولي فى خريف ١٨٢١ حين وقع على مجموعة الآثار التى بعثها دروڤيتى إلى ليجهورن . وطلب السماح له بالقاء نظرة عليها ، ولاحظ بينها حجرا يحمل آثار كتابات بكل من اليونانية والديموطيقية . واذ أدرك يونج أهمية ما يبدو أنه حجر رشيد ثان فقد طلب من وكلاء دروڤيتى السماح له بنسخ الحجر ، لكنهم لم يكونوا يستطيعون الموافقة دون اذن دروڤيتى .

وعندئذ كتب يونج إلى الوكلاء عارضا ان يدفع أجر فنان من فلورنسا يقوم بعمل نسختين من الحجر ، على أن تكون النسختان ملكا لدروڤيتى ، ويبقيا مع الوكيل إلى أن يقرر دروڤيتى ما إذا كان يريد بيع الحجر أو لا يريد ولمن وبأى سعر . بل عرض يونج أن يبقى النسختين فى مجموعة دروڤيتى ، بشرط واحد هو أنه اذا أرسل الحجر بحرا بعيدا عن ليجهورن يجب أن تبقى النسختان فى ليجهورن إلى أن يصل الحجر سالما إلى غايته . وكان هذا عرضا سخيا ، ولكن حين سمع دروڤيتى بأهمية الحجر رفض المخاطرة بتخفيض قيمته التجارية بالسماح بنسخه .

وفى العام التالى - عام ١٨٢٢ - دعى يونج لحضور إجتماع لأكاديمية العلوم فى باريس قرأ فيه الفيزيائى الشهير أوجوست چان فريزنل ورقة عن قوانين تداخل الضوء أثنى فيها الثناء الكريم على عمل يونج فى هذا الموضوع . غير أن ما شعر به يونج من سرور لمظهر النزاهة العلمية الفرنسية هذا فتر قليلا حين حضر في الأسبوع نفسه محاضرة فى أكاديمية الآداب ، فقد دعي للجلوس إلى جانب مؤلف ورقة عن الكتابة المصرية ، بدا أن انجازاته هو قد انعكست فيها ، وانما دون اعتراف ، واستقبلت الورقة

بالاحتفاء باعتبارها فتحا ، ومؤلفها - شامبليون - باعتباره عبقريا .

قال الكاتب الاغريقى الساخر أرخيلوس ان «الثعلب يعرف كثيرا من الأشياء - والقنفذ يعرف شيئا واحدا كبيرا . . .» وقد كان يونج ثعلبا ، ففى الوقت الذى نشر فيه اكتشافاته عن الهيروغليفية ، ظهرت له كذلك مقالات فى الصحف العلمية تمتد من صناعة الحديد إلى عادات العنكبوت وإلى حساب معدل اتساع الغلاف الجوى القمرى المفترض . وكانت هذه المقالات بالطبع بالاضافة إلى كتابات يونج الرئيسية فى الطب وفيزياء الضوء . وكتب ثلاثة وستين مقالا فى «دائرة المعارف البريطانية» فى مواضيع تمتد من الاقساط السنوية إلى الأوزان والمقاييس ، ولم يتجه لدراسة مصر إلى أن بلغ الحادية والأربعين من عمره ، وهو السن الذى توفى فيه منافسه الرئيسى فى هذا الميدان .

أما چان - فرانسوا شامبليون فكان قنفذا ؛ ولد عام ١٧٩٠ فى بلدة فيجا الريفية الصغيرة ، لأب يعمل بائعا للكتب ، وقد بدأ حياته بداية بارزة ، لكن هناك من يذكرون أن قرنيتى عينيه كانتا صفراوين منذ الميلاد كعينى طفل مصرى ، وكانت ملامحه شاحبة ، ووجهه شرقيا للغاية . وتقول الحكايات ان چان - فرانسوا قد أخذ وهو تلميذ إلى فورييه ، عالم الرياضيات الذى صحب بونابرت إلى مصر ، حيث شاهد أوراق البردى والكتابات الهيروغليفية على بعض الألواح هناك ، فسأل «هل يستطيع أحد قراءتها؟» وحين هز فورييه رأسه نافيا قال الصبى «سأفعل ذلك . وسأتمكن منه خلال بضع سنوات عندما أكبر» .

كما سجل كاتبو سيرة شامبليون قصة زيارة عالم الجماجم الشهير الدكتور فرانز چوزيف جال لمنزل چان - فرنسوا . وتحسس الدكتور جال نتوءات فى رأسه وأعلن أنه عبقرية لغوية . وكانت هناك فى ذلك الوقت بعض الشواهد على قدرة شامبليون ربما كان الطبيب الصالح قد أخبر بها : فالتلميذ ذو السادسة عشرة كان يتعلم بالفعل العربية والأشورية والكلدانية والقبطية ، فضلا عن اللاتينية واليونانية ، كما كشف عن وعى مبكر بتميزه بوضع مشروع تاريخ للعالم بعنوان «التاريخ من آدم حتى شامبليون الصغير» .

وفى سن السابعة عشرة كان شامبليون قد كتب بالفعل كتابا بعنوان «مصر فى ظل الفراعنة» ، وبدأ دراسات فى باريس مع دى ساسى . وهنا تعلم السنسكريتية

والعربية والفارسية قبل أن يتقن القبطية ، وبلغ من اتقانه لهذه الأخيرة أنه كان يكتب مذكراته بهذه اللغة . وفى سن التاسعة عشرة عين شامبليون أستاذا للتاريخ فى جامعة جرينوبل ، حيث كتب مسرحيات وكتابات سياسية ساخرة ذات صبغة جمهورية قوية ، مما زكاه لدى نابليون أثناء فترة المائة يوم ، وأدى إلى ابعاد شامبليون عن الجامعة حين انتصر الملكيون . وعاد إلى جرينوبل فى عام ١٨١٨ لكنه هدد ثانية باتهامات بالخيانة في يوليو ١٨٢١ حين فر من الجامعة .

وفى العام نفسه نشر مذكرة عن بعض نصوص «كتاب الموتى» ، حيث بدا مقتنعا بأن نظام الكتابة الهيروغليفية يعمل رمزيا ولا يمثل أصواتا . وبعد عام ألقى محاضرته فى الأكاديمية التى نشرت بعنوان «رسالة إلى السيد داسييه بشأن أبجدية الصوتيات الهيروغليفية» وهلل لها الباحثون الفرنسيون باعتبارها فتحا فى الصراع من أجل حل رموز الهيروغليفية ، واعتبرت كذلك دوليا منذ ذلك الحين .

ومن المستحيل أن نثبت ما إذا كان شامبليون قد تأثر بمقال يونج فى «دائرة المعارف البريطانية» أو لم يتأثر . فقد أنكر دائما أنه قرأه . ودفع نشر «الرسالة» صحيفة «كوارترلى ريفيو» إلى أن تدخل الحلبة لصالح أولوية يونج :

> . . . ونستطيع أن نقول ـ دون أن نقلل من شأن جهود شامبليون التى لا تكل – انه سواء وزنًا قيمتها من زاوية الجدوى أو الجدة ، فاننا لا نجد فيها كثيرا ، أو لا نجد شيئا – يمكن أن يبرر هذا الحصار المستمر الذى فرضه على منافسيه فى مصر ، لسنوات تعادل سنوات بقاء الاغريق أمام طروادة . . . . .

واستطردت «الريفيو» لتذكر قراءها بأن أكيربالد وغيره بدأوا وضع أبجدية ، واصلها يونج ومدها إلى الهيروغليفية ، وأن كل ما فعله شامبليون هو أن وسع المبدأ الذى اعتمدوه :

> وسيتضح مدى ضآلة ادعاء شامبليون للأصالة فيما يبدو أنه يعتبره اكتشافا وما نثق من أن مواطنيه سيتصايحون حول اعتباره كذلك ، من الفقرة التالية من عرض يونج لمصر الذى كتبه منذ سنوات .

ثم نشرت الصحيفة بعد ذلك نص جزء من مقال يونج فى «دائرة المعارف

البريطانية» التى حدد فيها الرموز الهيروغليفية لحروف اسم «بطليموس» فى حجر رشيد ، وقد اعترض شامبليون فيما بعد بأن يونج لم يحددها بشكل سليم تماما ، ولكن النقطة التى قدمتها «كوارترلى ريفيو» ، وهى أن شامبليون انما كان يوسع مبدأ ولا يعلن اكتشافا جديدا ، تبدو صحيحة .

وفى العام التالى - ١٨٢٣ - نشر يونج وداعه للموضوع بعنوان استفزازى : «عرض لبعض الاكتشافات الحديثة فى الادب الهيروغليفى والآثار المصرية ، بما فى ذلك أبجدية المؤلف الأصلية كما وسعها شامبليون» . وادعى يونج أنه نشر دائما نتائج أبحاثه «لاعن حرص على أن أكون المالك الوحيد لكنز سرى ، وإنما عن رغبة فى أن أحقق ، لبلدى على الأقل ، . . . . صيت توسيع حدود المعرفة الانسانية ، والاسهام فى توسيع سيطرة عقل الانسان على الزمان والمكان والاهمال والظلام» . وأنه كان سيسعده أن يبقى فى عتمة نسبية ، لكن شهرة شامبليون المفاجئة قد جرته إلى اعين الجمهور ، وشعر أن هناك ما يبرر أن يحاول الحصول ، «ومازالت أمامى بضع سنوات للعيش والتعلم ، على أى قدر من الاحترام يفترض أنه من حق الاكتشافات التى شكلت تزجية ساعات فُراغى القليلة» .

وأكد يونج فى رسالة بتاريخ ١٣ سبتمبر ١٨٢٣ أنه لن ينشر ثانية مزيدا من النصوص المصرية ، من ناحية بسبب النفقات ومن ناحية لأن المادة قد استنفدت ومن ناحية ثالثة لأن «شامبليون يعمل الكثير بحيث لن يسمح بضياع أى شئ ذى قيمة» .
وفى العام التالى - عام ١٨٢٤ - أكد شامبليون ادعاءه كل الفضل فى حل رموز الهيروغليفية فى مجلد ضخم بعنوان «موجز نظام هيروغليفية المصريين القدامى . . . .يحوى نصا طوله ٤٦٥ صفحة ، وملحقا مستفيضا من اللوحات والأشكال . وتناول شامبليون ادعاءات منافسيه فى المقدمة ، مقررا أن أكتشافاته قد تأكدت بحيث أنه لا يخشى عند اعلانها من المعارضة قدر ما يخشى من أن يحاول الآخرون اقتسام شرف اكتشافها . وقد حدث هذا بالفعل ، لا فى فرنسا بالطبع ، وإنما فى الخارج . ورغم أنه على استعداد للصفح عن هذه الادعاءات التى تستند إلى روح الوطنية فان على الكاتب أن يعارضها لصالح الحقيقة والعلم . ثم أخذ شامبليون يهاجم يونج بقوة ، محاولا أن يبين أنه لم يفهم أبدا الأساس الصوتى للهيروغليفية ، وأن الترجمات القليلة التي قام بها يونج لم تكن سوى تخمينات موفقة وليست نتيجة بحث لغوى .

وليس هناك كبير شك فى أن شامبليون قد تعلم من يونج أكثر مما كان على استعداد لأن يعترف به ، وأن الاكتشافات التى أعلنت بمثل هذه الضجة ، والتى حظيت منذ ذلك الحين بالاحتفاء بين علماء المصريات لم تكن الهاما فجائيا بقدر ما كانت توسيعا صبورا وماهرا للأبحاث القائمة . غير أن من العبث محاولة التقليل من انجازات شامبليون الكبيرة قدر ما هو من العبث محاولة الابقاء على صورة عبقرى يعمل معزولا ، وهى الصورة التى سعى انصاره إلى تأكيدها :

> وبقوة الزلزال أطاح الفرنسى الدءوب بالأبنية الهشة لأسلافه ، ومن هذه الساعة كفت حوليات مصر ، وتاريخها الذي كرمه الزمن ، وبردياتها التي تتفتت فى غبار الزمن عن أن تكون أسرارا ! ان شامبليون الشاب قد أزاح «قناع ايزيس» و«الستار الذى لا تستطيع يد بشرية أن ترفعه» والذى أعجز محاولات الاغريق والرومان طيلة ٢٠٠٠ عام وجهود علماء المصريات المحدثين الأقوى .

بهذه الكلمات حيا القنصل الامريكى فى القاهرة بعد اعتزاله جمهوره في بوسطن فى عام ١٨٤٤ ، بعد عشرين عاما من ظهور شامبليون على المسرح (وبعد خمسين عاما فقط من حفل شاى بوسطن الذى أشعل نوبة من المنافسة الدولية) . وكان چورج ر .جليدون الذى وصف نفسه بأنه «واحد من تلاميذ شامبليون» فى مصر حين اعلنت اكتشافات شامبيلون ، ولاحظ الصمت المذهول الذى أعقبها «ومثل سكون الجو الذى يعقب قصف الرعد بدت العبقرية مشلولة بفعل الحقيقة المذهل» .

ولم يكن الصمت راجعا إلى ذهول الباحثين أمام اكتشافات شامبليون المفاجئة بقدر ما يرجع إلي أن مراكزهم المستقرة جعلتهم غير متقبلين لأفكاره . كان أعضاء المجمع المصرى الذين صحبوا بونابرت مازالوا في مناصبهم العليا ، وعلى غير استعداد لأن يتعلموا من فتى جمهورى دعىّ لم يضع قدمه أبدا فى مصر . كما لم يكن المسيحيون بدورهم يرتاحون لتقدم بحث عن مصر لم يكشف دليلا على اقامة الاسرائيليين فيها أو على الخروج . والباحثون الكلاسيكيون يهزأون من استخدام الفكر والأموال فى مثل هذا الجهد البربرى .

وكوفئ شامبليون على نجاحاته العلمية فى فرنسا بارساله بعثة في عام ١٨٢٤

لدراسة المجموعات المصرية فى متاحف تورينو وليجهورن وروما ونابولي وفلورنسا . كان لويس الثامن عشر ثم شارل العاشر قد نسيا نزعته الجمهورية إلى حد تعيينه أمينا للمجموعات المصرية فى اللوڤر ، واختارته الحكومة الفرنسية لتقييم وشراء الآثار التي أرسلها دروڤيتي وسالت إلى ليجهورن .

غير أن أنباء عن الأنشطة البريطانية فى مصر بدأت تتسرب إلى باريس ، وشعر شامبليون بالقلق من أن تزاح فرنسا عن موقعها كأم للفنون وراعية لعلم المصريات . وأرسلت بعثة بقيادة شامبليون وبصحبته أربعة فنانين فرنسيين لاستعادة مصر للبحث العلمى الفرنسى . وظهرت صعوبة طفيفة حين علم أن دوق توسكانى يخطط لبعثة مماثلة ، لكن الوضع رتب بلباقة حين نظمت البعثة الايطالية كقوة معادلة تماما ، يرأسها المستشرق البارز البروفيسور ايبوليتو روسلينى ، أحد أنصار شامبليون ، ويصحبه أربعة فنانين ايطاليين . ولما كانت أهداف بحث البعثتين واحدة ، فقد تقرر أن يوحدا بداعى الوفر ، وأبحرت البعثتان إلي الاسكندرية على سفينة واحدة .

ولاحظ چورچ جليدون - الذى كان فى القاهرة فى عام ١٨٢٨ - وصول البعثة المشتركة : «انها تضيف وقودا جديدا لشعلة الغيرة الآثارية التى اتسم بها طيلة ثلاثين عاما من كرسوا أنفسهم للآركيولوجيا فى انجلترا وفرنسا» . وكان شامبليون ينظر إلى كل من الدارسين الآخرين باعتبارهم متطفلين على ما يعتبره ميدانا قاصرا عليه ، ويعتبر كل من يسجل أو يعرض الهيروغليفية فى مصر متجاوزا . وكان الباحثون البريطانيون - الذين ظلوا يعملون بدأب لسنوات قبل وصول شامبليون - يخشون لقاءه حتى لا يزعم أن كل ما سينشروه فيما بعد جاء نتيجة لهذا اللقاء . وأدى هذا إلى كثير من الحوادث الفكاهية حيث كان البريطانيون يختفون عن الأنظار عند اقتراب شامبليون لتفادى الاتهامات بالاتصال الشخصى .

وتجلت أثناء زيارة شامبليون كذلك ألوان الغش والخداع التى اتسم بها جيل من المنافسة الوطنية على طول وادى النيل ، فقد كان البريطانيون قد لاحظوا أن لوحا من البازلت الذى يشكل سجاف باب مسجد متهدم فى القاهرة منقوش بما يشبه الكتابة الموجودة فوق حجر رشيد . وطلبوا من محمد على السماح لهم بنزع اللوح لصالح علم المصريات ، وتقدموا بالطلب بالطريقة المقررة من خلال القنصل البريطانى ، عارضين تعمير المسجد كله مقابل هذه المنة . الا أن دروڤيتى سمع بالطلب وأقنع الباشا برفضه على أساس أن نزع سجاف الباب نوع من انتهاك حرمة المسجد . وتبين محمد

على أنه اذا كان قد رفض طلب البريطانيين على مثل هذا الاساس الدينى فانه لا يستطيع بالتالى السماح للفرنسيين بنزع اللوح .

وكان من الممكن أن تنتهى المسألة عند هذا الحد لو لم يأخذ أحد شامبليون لرؤية الحجر . وكانت الضجة المترتبة من الضخامة بحيث دعى دروفيتى إلى ممارسة مواهبه فى هذا الميدان . وقد فعل ذلك بالتقدم بطلب إلى ابراهيم باشا ابن محمد على للسماح له بنزع الحجر ، دون أن يذكر باطبع أن أباه قد رفض ، واستجاب ابراهيم للطلب ، مشترطا فحسب أن يقال للأهالى ان الباشا يريد الحجر لنفسه ، مما قد يثير استهجانا أقل مما لو أخذه الأجانب . الا أنه لم تكن هناك أسرار فى القاهرة ، وسرعان ما عرف البريطانيون بالخطة ، فتوجهوا ليلا إلى المسجد القديم ونزعوا السجاف ، حاملين اياها فى انتصار إلى القنصلية . وحدثت ضجة كبيرة ، وأقنع ابراهيم أباه باجبار البريطانيين على تسليم الحجر للحكومة المصرية . غير أن هذا لم يثر ما كان متصورا من ضيق : فقد كشف فحص الحجر أنه قد شوه إلى حد أفقده أى قيمة جدية ، وأخذت نسخ أرسلت إلى لندن ، وأعاد البريطانيون الحجر دون تحرج إلى المسجد . وانتهى الحجر إلى باريس . وكان الشئ الأساسى الذى تعلمه شامبليون منه هو أسلوب التغلب على منافس فى المناوشات الدولية حول الآثار فى مصر .

وقد تعلم بسرعة ، فحين عسكرت البعثة المشتركة فى وادى الملوك ، متخذة من مقبرة رمسيس السادس مقرا لها ، قرر شامبليون أن النقوش البارزة فى مقبرة سيتوس الأول يمكن أن تحلى مجموعته فى اللوفر ، وبدأ فى قطعها ، وسمع چوزيف بونومى النحات والرسام الانجليزى بذلك فكتب إلى شامبليون محتجا :

> إذا كان صحيحا أن هذا هو ما تعتزمه فاننى اشعر أن من واجبى كانجليزى ، وعاشق للآثار أن استخدم كل حجة لاثنائك عن هذه الغاية المفزعة ، على الأقل إلى أن تحصل على اذن من القنصل العام الحالى أو من محمد على .

ورد شامبليون فى استعلاء :

> كما أننى أؤدى واجبى كفرنسى حين أخبرك أننى لا أعترف بأى سلطة فى مصر الا سلطة الباشا ، وليس على أن أحصل على أى اذن آخر ، وبالأحرى اذن القنصل البريطانى ، الذى من

المؤكد انه لن يدعى هذا الادعاء الأحمق الذى نسبته إليه ، ولو تمكنت من الحصول على عمال أفضل ممن أرسلوهم من القاهرة أستطيع أن أعهد اليهم بهذه العملية الدقيقة فتأكد ياسيدى أنك ستحظى ذات يوم برؤية بعض النقوش البارزة الجميلة فى مقبرة أوزيرى فى المتحف الفرنسى ، فستكون هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذها من الدمار العاجل ، وأنا بقيامى بهذا المشروع أتصرف كعاشق حقيقى للآثار لأننى انما أنقلها بعيدا لأحافظ عليها لا لأبيعها .

ان قاعدة أخلاقية جديدة قد أدخلت عند النيل : من الصحيح تماما أن تسرق الآثار المصرية طالما أن اللصوص لا تحركهم الرغبة فى الكسب الشخصى . وسرعان ما شاع هذا السلب الايثارى ، بل أثر حتى على بونومى ، فحين تسلم هذا رسالة شامبليون وسمع أن روسلينى كان هو أيضا يقطع النقوش لصالح متحف فلورنسا ، شارك بدوره واقتطع جزءا للمتحف البريطانى .

وبرر الثلاثة جميعا سطوهم على أساس أنهم يحفظون الآثار لاعجاب العالم فى المستقبل ، وأن النقوش لو تركت فى المعبد فسرعان ما ستدمرها الامطار . الا أن شامبليون كان يريد أن يمنع الآخرين من اطلاق أيديهم فى آثار وادى النيل ، وكتب رسالة احتجاج إلى محمد على ، يبدى فيها أسفه للتجارة في الآثار ، ويقترح تطبيق ضوابط حكومية على الحفائر وعلى تصدير الآثار . وقد أثمر هذا الاقتراح فيما بعد ، ولكن ليس قبل أن يقنع محمد على بارسال احدى المسلتين الموجودتين أمام معبد الأقصر إلى باريس تذكارا لقوات بونابرت . وقد نقلت إلى باريس عام ١٨٣٠ على ظهر صندل خاص يحمل اسم «درومادير» وفى ٢٥ اكتوبر ١٨٣٦ نصبت فى ميدان الكونكورد فى احتفال كبير حضره الملك لويس فيليب و ٢٠٠٠٠٠ متفرج .

وفى ١٥ أغسطس ١٨٣٥ صدر مرسوم حكومى فى مصر كان ينبغى له أن يضع حدا لمثل هذه الاحتفالات . وقد لاحظت الديباجة أن المتاحف والجامعين فى الدول الأجنبية متعطشون لآثار مصر مما يشكل خطر اختفاء كل آثارها القديمة لاثراء بلدان أخرى .

بيد أن من المفهوم تماما أن الأوروبيين لا يسمحون فى أى

ظروف بتصدير أشياء مماثلة من بلدانهم ، بل أنهم كذلك حيثما وجدت آثار يسرعون بارسال باحثين للاستيلاء عليها ، ودائما تقريبا يحصل عليها هؤلاء مقابل مبالغ زهيدة ترضى جشع ملاكها الجهلة .

ولما كانت هذه الكنوز القديمة تسهم فى مجد الأرض التى نملكها ، ولما كانت مصر تمتلك ثروات وخبرة ، فان الحكومة ترى أن من المناسب :

١- أن يحظر بشدة تصدير آثار من أى نوع فى المستقبل .

٢- أن تودع كل هذه الأشياء التى تمتلكها الحكومة بالفعل أو التى ستمتلكها من الحفائر والأبحاث فى المستقبل فى القاهرة فى مكان خاص . . . .

٣- الا يحظر صراحة فحسب فى المستقبل تدمير الآثار القديمة فى مصر العليا بل ان على الحكومة أن تتخذ التدابير الكفيلة بالمحافظة عليها فى كل مكان .

ويقرر المرسوم وقف كل الحفائر ، وأن ينفذ المحافظون وقف العمل عن طريق مفتشين مسلحين ، وأن تراقب كل الموانىء لمنع تصدير الآثار فى المستقبل ، ويعين مفتش للاشراف على انفاذ القيود فى مصر كلها ،وأن يرسل اخطار رسمى الى كل ممثلى الدول الأوربية فى مصر ليكفلوا تعاون دولهم . . . . وأن يعين مفتش لانفاذ أحكامه بالطواف بكل المواقع الهامة .

كان المرسوم تشريعا حسن النية يمكن له وضع حد للصراع الدولى على سلب آثار وادى النيل ، غير أن السلطة العليا فى مصر فى ذلك الحين كانت فى يد رجل سرعان ما فتر اهتمامه العابر بآثار مصر ، رجل آثر أن يتجاوز القوانين التى تمنعه من ارضاء نزوات أولئك الذين يسعى الى التأثير عليهم ، ونسيت المحافظة على اثار مصر فى هدوء جيلا بأسره .

وبعد أن حلت رموز الهيروغليفية بنجاح ظل هناك سر كبير من أسرار مصر القديمة أثقل أذهان الناس وخيالاتهم طيلة قرون هو : أصل الأهرام والغاية منها . ولم يكن هناك نقص فى النظريات . وكان هيرودوت فى عام ٤٤٥ قبل الميلاد قد حدد بانى الهرم الأكبر بأنه الملك خوفو ، وذكر أن الكهنة المصريين وصفوا له طريقة بنائه ،

حين كان العمال يجبرون على العمل فى مجموعات تتألف من ١٠٠٠٠٠ رجل ، ولا يبدلون الا مرة كل ثلاثة أشهر ، طيلة عشرين عاما . وقد سجلت المبالغ التى أنفقت على الفجل والبصل والثوم لقوة العمل بالأرقام المصرية على الهرم . وترجمت لهيرودوت بأنها بلغت ١٦٠٠ تالنت فضى . كما أورد هيرودت قصة تقول انه لما بدأت أموال الملك تنفذ أمر ابنته بأن تعمل بالبغاء لتسهم فى تكاليف البناء . وبلغت من النجاح فى مهنتها حدا لم يمكنها فقط من الاسهام فى بناء الهرم الأكبر بل تمكنت كذلك حين طلبت من كل من زوارها أن يقدم حجرا إلى جانب النقود من تجميع مواد تكفى لبناء هرمها هى .

وحدد هيرودوت الاسمين الصحيحين لبانيى الهرمين الثانى والثالث بأنهما خفرع ومنقرع . لكنه قال ان المصريين كانوا يكرهون الملكين بحيث سميا الهرمين هرمى الراعى فيليتون الذى كان يرعى أغنامه فى المنطقة .

وقد دهش المؤرخ الاغريقى ديودوروس الصقلى الذى زار مصر عام ٦٠ قبل الميلاد - لأنه لم يجد أى آثار لأعمال البناء فى الرمال المحيطة بالهرم الأكبر «بحيث يبدو النسيج كله وكأنه لم يوضع فى الرمال المحيطة بالتدريج ، بعمل الانسان ، وإنما بالفعل الفورى للآلهة» . وذكر أن لدى المصريين كثيرا من القصص العجيبة عن هذه المسألة ، لكن ديودوروس سجل المعلومات الأكثر رزانة ، وهى أن العملية نفذت فى عشرين عاما ، بقوة عمل تبلغ ٣٦٠٠٠٠ رجل .

واعتقد بلينى[1] - الذى كتب بعد قرن - أن الأهرام كانت «استعراضا عبثيا أحمق للثروة الملكية» وأوضح أنها انما بنيت لسبب بسيط هو استنفاد كنوز ملوك مصر لتثبيط خلفائهم أو منافسيهم . ويستطرد بلينى قائلا انه لا ينبغى لأحد أن يعجب بالأهرام باعتبارها تكليلا لذكرى أعمال الملوك لأن أصغرها وأجملها بنته بغى هى رودوب التى كانت زميلة فى الرق لايزوب . ويرى بلينى أن الأعجب من الأهرام ذاتها هو أن بغيا قد تمكنت من أن تجمع ما يكفى لتمويل بناء واحد منها .

وكان من المقبول عموما بين الكتاب الكلاسيكيين أن الأهرام بنيت تذكارا للملوك أو مقابرا لهم . وشاعت فى العصور الوسطى نظرية بديلة تعزى للقديس جريجورى

(١) عالم طبيعة رومانى (٢٣ - ٧٩ ميلادية) مؤلف كتاب التاريخ الطبيعى فى ٣٧ جزءا ، وهو دائرة معارف لعلوم العصر القديم . وتوفى فى ثورة بركان فيزوف عام ٧٩ ميلادية - المترجم .

أوف نازيانوس[1] ، وتدعى أن الأهرام بناها اليهود المنفيين كمخازن ضخمة لتخزين القمح .

وظل الهرم الأكبر موضع زيارة منتظمة للرحالة عبر القرون ، وكان من المعروف أنه يحوى ممرا داخليا وبئرا ، وقد اشتهر بأنه آخر عجائب الدنيا السبع فى العالم القديم ، وأنه يعد لغزا ولا يمكن هدمه . وكانت الخطط الجادة الوحيدة لهدمه من بنات أفكار ابراهيم باشا والى مصر الذى أقنعه أحد السحرة الافريقيين فى عام ١٨٥٤ بأن الهرم يحوى كنوزا ضخمة . وقرر الباشا ملء البئر بالبارود ونسفه ، لكن قنصل ڤينسيا ثناه عن ذلك حين أخبره بأن الانفجار قد يعرض القاهرة للخطر .

وفى الوقت الذى دخل فيه فريدريك نوردن الهرم الأكبر فى عام ١٧٣٧ كان عدد الزوار كبيرا إلى حد أن «الممرات فى الجانبين الشمالى والجنوبى قد اسودت من دخان المشاعل التى أدلها الزوار من وقت لآخر» ، لكن بئر الهرم ظل غير مستكشف . وأخيرا قام الكابتن كاڤيليا ، وهو تاجر من جنوة استخدمه هنرى سالت ، بازالة النفايات ، ووصل البئر بالغرفة الجوفية فى عام ١٨١٨ . وفى العام نفسه كان بلزونى هو أول أوروبى حديث يدخل هرم خفرع . غير أنه ظل هناك الكثير مما ينبغى القيام به قبل أن تتكشف أسرار أكبر مبان على وجه الأرض ، وكان هذا بحاجة إلى رجل ذى رؤية ، وذى ذهن قاطع .

كان ريتشارد ويليم هوارد – فايس رجلا عسكريا ، وهو ابن الجنرال ريتشارد فايس ، وقد تزوج ابنه الفيلد مارشال چورچ هاملتون ، وأتخذ اسم وشعار اسرة زوجته إلى جانب اسرته . وكان عضو البرلمان عن دائرة ستوك بوجز فى عام ١٨٠٧ ، ثم مرة أخرى فى عام ١٨١٢ إلى عام ١٨١٨ . وعين استاذا للقانون المدنى بجامعة اكسفورد فى سن الحادية والخمسين . وأنتجت هذه الخلفية – إلى جانب العقيدة المسيحية الراسخة والكفاءة – رجلا يتمتع بالثقة فى آرائه .

وتأثرت آراء فايس فى موضوع الأهرام بكتابات چاكوب بريانت ، وهو رجل آثار بريطانى لم تزدهر سمعته منذ وفاته فى عام ١٨٠٤ . وكان بريانت يعتقد أن الأهرام من عمل الملوك الرعاة من سلالة حام ، الذين طردوا من بابل بسبب ردتهم ، وتشتتوا فى الأرض بين اليونان وقرطاجة بل وصلوا حتى إلى أمريكا حيث بقيت آثار لمبانيهم ،

(١) أحد كبار رجال الكنيسة ، وكان اسقفا لساسيما ونازيانوس ثم القسطنطينية ، ترأس المجمع المسكونى عام ٣٨١ ميلادية – المترجم .

وكانوا بشرا غير عاديين ، من جنس الجبابرة ، حكم عليهم مثلهم بالتشتت فى الأرض ، واقامة هياكل معمارية ضخمة ومحيرة وقد ربط فايس بين هؤلاء الناس والفلسطينيين ، واعتقد أن تاريخهم شاهد على يد الرب وهى تعمل فى هذا العالم :

> ويبدو أن هذه القبائل كانت فيما مضى أمثلة حية على القصاص الالهى شأن اليهود المشتتين اليوم . ويبدو أنهم فى النهاية قد دمروا تماما . . . . . وبقيت الأهرام آثارا باقية لكنها صامتة على أمجاد هذا الشعب غير العادى التى لا يضارعها شئ ، وعلى تأكد العدالة الالهية ، وصدق الوحى .

ومن الأمارات على المعايير التى طبقها الكولونيل فايس فى أبحاثه التاريخية أنه وجد نظريات بريانت مقنعة فى المقام الأول بسبب «إيمانه العميق بصدق الوحى ، وعدالة الاله التى لا تخطئ» .

وحين تقدم فايس إلى القنصلية البريطانية بطلب الاذن بفحص الأهرام قدم إلى كابتن كافيليا ، الذى قدم نفسه باعتباره رعية بريطانية موطنه هو مالطة ، وربما كانت خبرة كافيليا فى الحفر حول الأهرام ، إلى جانب عادته فى قراءة الكتاب المقدس والاستشهاد به ، قد قربتاه إلى فايس ، الذى وافق على استخدامه للاشراف على العمل ، على أن يقدم المال فايس والكولونيل كامبل القنصل البريطانى العام وشارلز سلون نائب القنصل . وأعطى كافيليا (كارت بلانش) فى الفندق لاحتياجاته الشخصية وأى بضائع قد يحتاج إلى حملها إلى الحفائر . وبعد أن تلقى فايس وعدا من كافيليا بأن يكتب إليه إذا ظهر أى شئ ذى أهمية ، وفى لا مبالاة غريبة بالأبحاث الهامة التى يبدأها ، توجه فى جولة فى مصر العليا .

وأقنعته رحلته الطويلة البطيئة فى وادى النيل بأن هذه أرض باركها الرب حقا ، كما تنبأ اشعيا النبى . وفى جزيرة فيلة حيث يتسع النهر ليشكل بحيرة واسعة ، وجد أن من المستحيل أن يتأمل دون أن يتأثر

> . . . . . . هذا المجرى القوى الرائع ، الذى يغلف مصدر زياراته الدورية نفس الغموض الذى مازال يغلف تاريخ هذه الأمم القوية التى غطت جهودها ضفافه بالخصوبة ، والتى ميزها علمها - الذى استدعاه حماسها الغيبى - بمبان بمثل هذا الجمال

الذى لا يضارع ، والتى استثارت خرائبها ذاتها اعجاب العالم عصورا متعاقبة .

وفى طيبة أحس فايس بالأسف حين لاحظ أن مخزنا للبارود يبنى على بعد ميل من المبانى القديمة ، ورأى أن مدخل الأقصر ، الذى لابد أنه كان ذات يوم رائعا حقا ، قد شوهه تراكم الغبار والقذارة و«ضياع المسلة التى أخذت إلى باريس مما أضاع أثر المسلة الباقية» .

وأثار تدمير الآثار غضب فايس ، واشتكى مرارا من أن الناس يهدمونها للحصول على الأحجار حتى فى المناطق التى توجد فيها وفرة من مواد البناء الميسورة ، وأسف لأن كثيرا من الأشياء الشيقة التى وصفها الرحالة السابقون قد دمرت ، لكنه بذلك الازدواج الغريب الذى يبدو أنه أصاب غيره من الوطنيين المتحمسين فى مصر ، ينهى الفقرة نفسها التى أبدى فيها أسفه لضياع الآثار القديمة على النحو التالى :

> ومما يؤسف له أن مسلة طيبة لم تنصب فى هذا البلد تذكارا للورد نلسون ، فلعلها تكون سجلا أكثر مناسبة وتمجيدا لشهرته من أى تمثال يمكن للعصور الحديثة أن تنتجه .

غير أن طيبة أقنعت فايس كذلك بأن المصريين القدامى قد احتفظوا بشئ من مجد انسان ما قبل الطوفان ، وهو يذكر أنه يمكن أن نستخلص من هوميروس والميثولوجيا القديمة أن

> . . . . البشرية كانت تتمتع فى الأصل – إلى جانب طول العمر – بملكات فكرية وبدنية أرقى . . . . وأن الفنون وصلت إلى كمال بالغ قبل الطوفان ؛ ويمكن عقليا أن نستخلص أن كثيرا منها قد عاش بعد هذا الحدث العظيم . ومن ثم تبدو القوة والمهارة التى تتجلى فى مختلف الأضرحة الرائعة ، وفى الأهرام ، وفى كثير غيرها من بقايا العصور القديمة الهائلة ، غير مثيرة للاستغراب . . . .

وفى دندرة ، حيث زار فايس أكثر المعابد شهرة على طول الوادى فى عام ١٨٣٨ ، صدمه التدمير ثانية ، ولاحظ انه «بقدر ما يتسع ما يسمي بالمدنية فى البلاد ، تتعرض هذه المبانى النبيلة أكثر وأكثر للخراب ، وأنه لا كمال الفن ، ولا القدم ، يمثل

أى حماية حين تظهر الحاجة إلى المواد سواء للمبانى العامة أو للقصور الخاصة» .

ورغم أن فايس قد كشف عن ذلك الاحساس بالتفوق الحضارى المفترض الذى كان شائعا بين السادة الانجليز فى الخارج فى ذلك الحين فقد كان حساسا لمرض آخر شائع بين الانجليز ويرفضون الاعتراف به وهو : العجز عن التحدث باللغة المحلية . وكثيرا ما أشار فايس إلى احساسه بالاحباط لعجزه عن ايصال اللطائف الدبلوماسية حين يدعوه أحد الأعيان المحليين أو حين يطلب منه شيئا ، وشكا من أن المترجمين يميلون إلى اغفال كل التحيات غير الأساسية . وقد تجشم مؤونة تسجيل حادث وقع له عند زيارة محافظ أسيوط «يبين الأخطاء الحمقاء التى قد تقع فى هذه البلاد بين أشخاص لا يستطيعون أن يفهموا بعضهم بعضا» ، فقد كان يركب عابرا السوق بصحبة مساعد المحافظ ومرافقيه حين التقى عند احدى البوابات بضابط عربى :

> . . . أخذ يصيح بانفعال شديد ، ويأتى باشارات عنيفة داعيا اياى للوقوف والابتعاد عن الطريق ، ولما كان حصانه مشاكسا وكان الحصان الذى أمتطيه مثله فقد استنتجت انه يخشى اصطدامهما . غير أننى كنت أعرف جيدا أن بوسعى منع أى حادث بسهولة ، وبالتالى فقد عبرت البوابة ملتزما الناحية اليسرى ومشيرا إليه بأن يلتزم الجهة الأخرى ، وفى الوقت نفسه أخذت أحييه كالمعتاد ، حين أصبح لدهشتى أكثر اهتياجا وتحدث بصوت أعلى من ذى قبل . وقد أبلغت فيما بعد بأن ما قصدت منه أن يكون تحية قد اعتبره هو أهانة ، وأنه كان منذ البداية يصر على أن أنتظر حتى يمكن أن يمر هو أولا – باعتباره مسلما – من البوابة .

ورغم أن المساعد حث فايس على أن يبلغ المحافظ عن الرجل فانه يسجل ببساطة وتواضع أنه رفض . الا أن فايس كان يمكن أن يثيره أى مساس بكرامته الوطنية : فحين أخبر بعد ذلك وهو يبحر هابطا النهر أن زورقا راسيا عند الشاطئ الشرقى ، ويبحر تحت الراية الانجليزية ، مملوك لعربى ، ولا يحمل على متنه أى أوروبى ، أصر فايس حين صعد إلى الزورق على أن ينزل العلم . وأوقفه ظهور مالطى ادعى أن من حقه أن يبحر تحت العلم . وسجل فايس الحادثة ليبلغها للقنصل العام معلقا بأنه ليس على استعداد للتسامح مع أسلوب «يعرض العلم للعار نتيجة سوء سلوك العرب الذين يبحرون تحته» .

كان الكولونيل فايس قد عمل تحت امرة ولنجتون ، وكان حساسا بوجه خاص لتسلل النفوذ الفرنسي إلى مصر ، وهو يكتب قائلا انهم أمة «كانت مصالحها دائما وستظل بالضرورة معادية لمصالح بريطانيا العظمى» . كما يذكر أن أي مراقب عارض في مصر يدرك مدى النفوذ الفرنسي في البلاد . والأرجح أن الكابتن كافيليا كان على علم باراء صاحب عمله ، وأنه أحس بأنه يستطيع آمنا أن يبلغه بأن بطء ما حققه من تقدم في الأهرام يرجع جزئيا إلى حسد الفرنسيين وتدخلهم . غير أن فايس اكتشف حين رجع أن العمل الذي كان يموله لفحص الأهرام يستخدم أساسا للحفر بحثا عن مومياءات بين أبي الهول والهرم الثاني . وكان كافيليا قد غير اتجاه العمل لأنه شعر - كما قال - بأن الحُفر يمكن أن تجلب أشياء بالغة القيمة للعالم العلمي . ومن المؤكد أنها يمكن أن تجلب آثارا قيمة وقابلة للبيع أكثر من الأهرام ، وبجهد أقل كثيرا ، لكن فايس لم يكن معنيا بتحقيق ربح ، وكان قد وافق على أن كل ما يكتشف بمقتضى فرمانه ملك للباشا . وتلت ذلك فترة صراع تذكرنا بالصراع بين سالت وبلزوني ، ادعى خلالها كافيليا أنه شريك في المشروع وليس مستخدما فيه ، وانه رغم أن فايس يملك المال فانه هو الذي يمتلك المهارات الضرورية . وافترقا بمرارة ، وشرع فايس في الاشراف على العمل بنفسه .

ولابد أنه قد بدا لفايس في البداية أن مشكلات توجيه العمل قليلة ، فالعدالة النزيهة ، ان هي طبقت بحزم وبلا تمييز ، تكسب احترام الجميع ، فضلا عن عمله الناجح للغاية كجندي محترف وله ثقته في قدراته كقائد للرجال ، فوضع جدولا بالأجور العادلة ، ومقابل ذلك يعمل الرجال والنساء والأطفال من شروق الشمس حتى غروبها ، مع راحة ساعة لتناول الغداء . وأولئك المستخدمون داخل الأهرام يتقاضون أجورا أعلى ، وهناك مكافأة أجر مضاعف عند التوصل إلى أي اكتشاف له قيمته .

ولم يؤد هذا النظام فحسب إلى أن يكسب القرويون أموالا أكثر من كل ما امتلكوه طيلة حياتهم ، لكنهم كذلك - كما يلاحظ فايس - كانوا طالما يعملون لديه معفيين من العمل العام الاجباري غير المدفوع في القناة القريبة ، وكان يتوقع تماما أن يستقبل كمستبد خيِّر .

غير أن أمله خاب ، فقد كان العمل يتعثر كل صباح ، ولا يصل الكثيرون إلى أماكن الحفر الا في الساعة السابعة أو الثامنة صباحا ، وكانت السرقة شائعة . فقد اعتاد

الرؤساء أن يدرجوا فى قائمة الأجور أناسا لا يأتون الا لتقاضى أجورهم . وبدلا من أن يعامله مستخدموه باحترام بدوا وكأنهم يبذلون كل طاقاتهم فى محاولة خداعه . وتسجل يومياته بحزن حادثة وقعت بعد ظهر أحد الأيام «حين جاء صبى محمولا على كتفى رجل ، وهو يبدو نصف ميت ، وطاقيته البيضاء وجبهته مخضبتان بالدماء والرمال ، وقيل انه سقط فى أعماق البئر فى الهرم الثالث» . ووجده فايس راقدا دون حس على كوم ترابى ، وعجوز ادعى أنه عمه يجلس إلى جواره ليهش عنه الذباب . وأسرع فايس باستدعاء طبيب من القاهرة ، لكنه استدار فجأة فرأى الغلام قد فتح عينيه ، ثم عاد فأغلقهما حالما رأى أنه يراقبه . وفى مرة ثانية ضبط فايس الغلام وهو يتحدث مع الرجل المجاور له ، لكنه عندما ظهر عاد الغلام فرقد فاقد الوعى على الأرض . وعندئذ قال فايس للرجل انه يستطيع لو شاء أن يمضى فى تمريض الغلام لكنه لن يتقاضى أجرا . فرد الرجل بأن من الأفضل فى هذه الحالة أن يأخذ مريضه إلى القرية ، ورحل الأثنان ليقابلهما حشد كبير من القرويين النائحين الذين حملوا الغلام إلى داره . وقد اتضح أن الغلام قد ضرب رأسه فى جدار البئر ، وأنه فيما عدا ذلك كان سليما . ويعلق فايس قائلا «كان هذا هو مسلك هؤلاء الملعونين ، وكانت أمثلة السلوك المماثل تتكرر باستمرار» .

وأخذت التوقعات التى جاء بها فايس إلى العمل - وهى أن الناس الذين يعاملون جيدا سيستجيبون بولاء وعرفان - تتقوض باستمرار طيلة فترة الحفر . وجاء حكمه الأخير على قوة العمل شهادة بانتصار الخبرة على الأمل :

> الا أنه رغم كل مزايا الأجور المنتظمة والاعفاء من العمل الشاق أثناء عملهم فى الأهرام ، والعناية براحتهم وبأى حوادث صغيرة قد تقع ، وتقديم الرعاية الطبية والغذاء للمرضى ، وكذلك الحظر القاطع للتدابير القاسية والعقوبات البدنية ، فان هؤلاء التعساء لم يكونوا يستجيبون أبدا لما يعاملون به من رفق . بالعكس كانوا يمارسون كل غش وخداع للحصول على المال والغذاء والأدوية الخ . . . وفى النهاية وصلت وقاحتهم وكسلهم إلى ذروة كان البديل الوحيد معها هو التوقف عن العمل . . . . وانى لعلى ثقة من أنه فى الوضع الحالى فان أى عمل لن يمكن انجازه دون التخويف بالعقوبة البدنية .

وقد وفق فايس إلى استخدام چون شاى بيرنج ، وهو مهندس يشغل منصب مساعد مدير الأشغال العامة لدى الباشا ، وأشرف فايس وبيرنج على كل أهرام الجيزة ، ثم مضيا إلى سقارة ودهشور وميدوم . وحين بدءا العمل كان داخل الهرم الأكبر قد استكشف ، والهرم الثانى قد فتح ، ونجح فايس فى فتح الهرم الثالث – هرم منقرع – باستخدام تفجير محكوم للبارود ، وهو أمر تعرض من أجله لكثير من النقد . ومن السخريات أن الانفجارات ضاعت عبثا فى الهرم الثالث : فبعد أن شق طريقه حتى المنتصف تقريبا عثر بالصدفة على المدخل الحقيقى بازاحة بضع كتل مفككة فى الجانب الشمالى ، وعندئذ اكتشف لماذا لم تنجح الأنفاق التى حفرت من أعلى : فقد كانت غرفة الدفن والممرات المؤدية إليها كلها أسفل الهرم وليست فى الداخل . وكان لصوص المقابر قد فتحوا الغرفة من قبل ، ولم يكن المركب الأزرق الطويل الذى وجدوه فى الداخل يحوى سوى بقايا رجل متعفنة . وكان هناك تابوت بدون غطاء قرر فايس ارساله إلى المتحف البريطانى لأنه سيتحطم إذا ترك فى الغرفة ، وتمكن الرجال من دفع التابوت على عربة صغيرة إلى قاع ممر الدخول ، ثم من رفعه إلى أعلى ، «وكانت تلك مهمة عسيرة نظرا لوزنه الذى يقرب من ثلاثة أطنان» . وأخيرا غلف فى خشب سميك ، ووضع فى سفينة تجارية ، الا أن السفينة فقدت عند قرطاجة فى اكتوبر ١٨٣٧ ، وبقيت حتى اليوم فى قاع البحر مع شحنتها القديمة .

ولا يحوى العرض التفصيلى الذى نشره فايس عن عمله هناك اى ذكر لحصوله على اذن بتصدير التابوت ، الا أنه أوضح أن كل الآثار التى وجدت فى الأهرام مملوكة للباشا ، وأن كل شئ قد أرسل إلى الكولونيل كامبل فى القنصلية البريطانية ، مع تعليمات بالتقدم بطلبات إلى برجس بك سكرتير محمد على الخاص عن كل القطع التى يريد فايس أن يأخذها إلى انجلترا . ولا تحوى القائمة التابوت وإنما أشياء مثل «ثلاث أوانى فخارية مهشمة ، وخمس زجاجات صغيرة ، وثلاثة طيور خشبية وتسع قطع مهشمة . . . .»

وعاد فايس بمجموعته إلى انجلترا ، وقدمها للمتحف البريطانى فى عام ١٨٨٨ . وترك بيرنج ليواصل الاشراف على الأهرام على حساب فايس ، وأشرف هو على نشر سجلات عمله فى لندن . وكانت هذه السجلات هى أدق واشمل مسح للأهرام ينشر فى القرن التاسع عشر ، وظلت مرجعا نموذجيا حتى العصور الحديثة . ورغم أن اسم فايس قد ارتبط فى تاريخ علم المصريات باستخدام البارود وأساليب الحفر العنيفة فان

ما أحدثه من ضرر كان ضئيلا ، وما حققه من نتائج كان اسهاما كبيرا فى المعرفة .
ويستحق فايس ذكرا أفضل ، وليس أقل أسباب ذلك شأنا هو أن طموحاته فى مصر لم تكن معتادة : فهو لم يكن يسعى إلى اعلاء مكانته الشخصية ولا ثروته ، ولا شأن بلاده وثروتها ، وإنما فحسب إلى توسيع نطاق المعرفة البشرية .

الفصل الخامس

اتصال حضاري

جلب الأمن الداخلى الذى أعقب وصول محمد على إلى السلطة ، وتشجيعه للمشاريع الأجنبية ، تدفقا جديدا للزوار من أوروبا إلى مصر . وبعد عام ١٨٠٨ أصبح بوسع الطبقات البريطانية الميسورة أن تتجول ثانية بطول وادى النيل . ويلاحظ سير آرشيبالد ادمونستون تغير الوضع السياسى :

> ومنذ أن حل محل طغيان البكوات المماليك المهتز حكم الباشوات الأتراك القوى ، اكتسبت الحكومة درجة من القوة والأمن لم تكد تعرف من قبل : ولم تكن نتيجة ذلك هى هبوط الفلاحين إلى حالة من التبعية الكاملة فحسب ، بل حتى برابرة النوبة التى ترتبط بمصر من الجنوب ، والأعراب الرحل الذين طالما اجتاحوا حدودها الغربية ، قد أصبحوا خاضعين وتابعين .

ولم يكن سير آرشيبالد – الذى سبق له أن استكشف واحتين فى ١٨١٩ – ١٨٢٠ وهو يرتدى زى المماليك («سروال قماش واسع ، وخف أحمر وعمامة من الموسلين الأبيض») مهتما بما كان يدور من حوله من تنافس تجارى على الآثار ، وقضى ساعاته عند النيل وهو ينسخ كتابات يونانية ، ويسجل ملاحظات فى يومياته عن عادات الوطنيين وأعرافهم الشيقة التى يمكن بها تسلية جمهور القراء فى بلاده .

أما اهتمامات چان بابتيست لولورين – المهندس – فكانت ذات طابع أكثر عملية . كان جامع الآثار الفرنسى لويس سباستيان سولنييه قد كلفه بنقل لوحة دائرة

الأبراج الفلكية الرائعة من سقف معبد دندرة وشحنها إلى باريس . ويبدو أن تبرير فرنسا لهذه العملية هو أن جمال هذه اللوحة قد أثار كثيرا الحساسية الفنية للجنرال ديزيه وأنها نسخت بشكل رائع فى «وصف مصر» العظيم حتى انها «بطريقة ما أصبحت أثرا وطنيا» . وحين تقدم لولورين طالبا فرمانه كان من الدبلوماسية بحيث أخفى الغرض من زيارته على محمد على وقدم نفسه باعتباره رحالة أجنبيا آخر متعطشا للمعرفة .

وحين وصل لولورين إلى دندرة وجد مجموعة من الزوار الانجليز يرسمون دائرة الأبراج ، وهكذا مضى إلى طيبة حيث اشترى بضعة آثار ليعطى انطباعا بأنه سائح عارض يفتش عن طرائف صغيرة ، ثم بعد أن أشاع قصة عن سوء صحته واعتزامه قضاء بضعة اسابيع للاستشفاء عند البحر الأحمر ، عاد ثانية إلى دندرة وبدأ يعمل فى قطع دائرة الأبراج .

كانت دائرة الأبراج محفورة فى كتل من الصخور بسمك ثلاثة أقدام ، واستخدم لولورين البارود ليفجر ثقوبا فيها ، ثم بدأ رئيس عمال وأربعون عاملا فى القطع باستخدام الأزاميل والمناشير ، وبعد ثلاثة أسابيع من العمل ليلا ونهاوا أزيلت الكتل وجرت على بكرات إلى أحد القوارب . وأعلن القبطان أن المياه منخفضة إلى حد لا يسمح له بالابحار شمالا بهذه الحمولة الثقيلة فى هذا الموسم . غير أن لولورين كان قد بقى فى مصر بما يسمح له بأن يدرك أن الرجل تلقى رشوة من الانجليز ، فسأل القبطان ببساطة عن المبلغ الذى عرض عليه ، ودفع ١٠٠٠ قرش ، وأبحر القارب . وعند منتصف الطريق إلى القاهرة أوقفهم وكيل انجليزى ومعه أمر من الوزير الأول للباشا يحظر عليهم نقل الأحجار . غير أن لولورين رفع العلم الفرنسى ، وتحدى منع سير قاربه ، وواصل الابحار . وفى الاسكندرية حاول القنصلان الانجليزى والفرنسى منع لولورين من شحن دائرة الأبراج ، مدركين أى اضافة مثيرة ستمثل لمجموعتيهما . غير أن لولورين أصر ، وشحنت الكتل سالمة إلى باريس ، وبيعت للويس الثامن عشر مقابل ١٥٠٠٠٠ فرنك ، وأعيد تجميعها فى اللوفر .

وأوضح سولنييه فى عرضه للعملية ، الذى نشر فى عام ١٨٢٢ ، للعالم كله أن دوافعه للأمر بنقل دائرة الأبراج الفلكية إلى فرنسا قد بعثها الايثار الجمالى : فقد كتب يقول ان الوهابيين فى شبه الجزيرة العربية يهددون مصر ، ولو أنهم نجحوا فى غزوها فسيحطمون كل آثارها القديمة : «فمن هذا الخطر الداهم ، وهو ليس خيالا محضا ،

من القوى المدمرة التى وصفناها من قبل ، انتزعت بالتوفيق دائرة الأبراج فى دندرة لتوضع تحت حماية المدنية الأوروبية» .

وفى عام ١٨٢٢ ، العام الذى وضعت فيه دائرة الأبراج فى اللوفر ، نشر عالم المعادن الفرنسى فريدريك كايو - الذى عاد من مصر بمجموعة تزيد عن ٥٠٠ قطعة - فى لندن وصفا لرحلاته فى وادى النيل ، وأبدى استياءه لما تلحقه البلدان الأخرى من دمار بكنوز مصر القديمة : «والواقع أنه لو لم يكن يخشى على الآثار الا من المياه وتتابع الفصول فلربما عاشت عصورا طويلة ، ولكن كان عليها أن تواجه عنف الأتراك . . . . بل والأكثر من ذلك أيدى بعض الأوروبيين . ولن أذكر أى أسماء ، وإنما اكتفى بأن ألاحظ أنهم ليسوا فرنسيين . . .» .

وكان هذا على الأقل موقفا متسقا : فمنذ السنوات الأولى للتنافس الأنجلو فرنسى فى نهب الآثار المصرية وكل دولة من الدولتين تلقى اللوم على الأخرى فيما يحدثه كلاهما من تلف . وفى السنوات التى أعقبت نشر كتاب كايو كان شامبليون يطوف بالمواقع الرئيسية ، ويحتج على انتهاك حرمتها فى الوقت الذى يرتب فيه شحن مسلة الأقصر إلى فرنسا . والتقى شامبليون فى رحلاته بلورد الجيرنون بيرسى ، دوق نورثمبرلاند الرابع ، الذى كان على ما يبدو مستغرقا - مع رفيقه الميجور أورلاندو فليكس - فى نسخ كتابات المقابر ، غير أنهما كانا يقطعان الوقت بعيدا عن مشاغلهما الأكاديمية فى جمع مجموعة من الآثار وصلت فى النهاية إلى أكثر من ٢٠٠٠ قطعة .

كما كان هناك رحالة فى مصر يبحثون عن الخبرة الجمالية ، فقد كانت الرومانسية التى صبغت الفنون فى بداية القرن التاسع عشر تستلهم احتقار الرجل المتحضر ، وتمجيد الوحشى النبيل ، والانتشاء بالصوفية الدينية ، والجاذبية الباطنية للحضارات المختفية أو البدائية ، ومن بينها الحضارة المصرية . وانغمس كل كبار الشعراء الرومانسيين فى ذلك الحين فى المصريات : وتثير الكلمات الختامية لقصيدة شيلى «أوزيماندياس» (١٨١٨) صمت مشهد الصحراء ووحشته :

فلا شئ يبقى إلى جواره . . . وحول أنقاض
هذا الركام الهائل اللانهائى العارى
تمتد الرمال المستوية الوحيدة بعيدا

وكان كيتز يصاب بنوبات نشوة عن مصر : فسبع من قصائده كتبت فى العام

نفسه تشيد إليها أو إلى كليوباترا ، بما فى ذلك سوناتا «إلى النيل» . أما عن بايرون فان مشاريعه لزيارة مصر ترجع إلى رحلة قام بها لأثينا فى عام ١٨١١ ، حيث حصل على فرمان بدخول البلاد ولكن اليونان صرفته عنها . وفي عام ١٨١٩ أقنع الناشر چون موراى باضافة بضعة أبيات إلى المقطوعة الأولى من «دون چوان» :

هل بقى من أمل للانسان؟
ان خوفو ملك مصر القديم
بنى الهرم الأول والأكبر
وهو يظن أنه
هو الذى سيحفظ ذكراه ويخفى مومياءه
لكن واحدا أو آخر من نابشى القبور
تسلل سارقا وحطم غطاء تابوته
فلا تدع أى أثر يمنحك أو يمنحنى الأمل
فذرة غبار واحدة لم تتبق من خوفو .

ورسم بنچامين هايدون ، أحد أصدقاء كيتز المقربين - لوحات كبيرة تفصيلية عن مواضيع ملحمية ، منها خمس مواضيع مصرية . وقد أجرى أبحاثه لهذه اللوحات بزيارة القاعات المصرية فى المتحف البريطانى ، وتابوت سيتوس الأول فى رواق سون ، وشاهد «كل ما هو مصرى فى المتحف» ، وقضى معظم وقته فيما بين عام ١٩٢٣ وعام ١٩٢٦ فى رسم «فرعون بصرف موسى فى قلب الليل عندما وجد بكره ميتا بعد عيد الفصح» ، وهو موضوع ألهمه - كما سجل فى مذكراته - لأن «أبا الهول أو أثنين ، وهرما أو اثنين ، معتمة ورهيبة ، والمجموعات الأمامية تضيئها المشاعل ، ستجعل الموضوع مخيفا ومثيرا ، فهو يجمع بين الأسى والسناء» .

واستخدم المعماريون فى ذلك الحين المعتم والرهيب ، والأسى والسناء ، الذى اجتذب هايدون وغيره إلى المواضيع المصرية فى أسلوب سمى «الفخامة التجارية» . وكانت القاعة المصرية فى بيكاديللى - التى أقيم فيها معرض بلزونى- مثالا مبكرا . كما كانت هناك دار مصرية تشبهها فى بنزانس ، بنيت كمتحف ومستودع چيولوچى ، بنوافذ مقوسة كالسلال وقباب دائرية تناثرت فيها الأقراص المجنحة .

وكان «الأسلوب المصرى» مفضلا للغاية لمثل هذه الأماكن باعتباره عابقا بعطر العصور القديمة ، كما كان يعتقد أنه يوحى بالقوة والصلابة وطول البقاء ، مما يجعله مناسبا للغاية للمصانع ومحطات السكك الحديدية والجسور . وتحمل كل من سلسلة أرصفة بريتون فى ١٨٢٣ وجسر كليفتون المعلق فى بريستول الذى صمم فى عام ١٨٣١ ملامحا مصرية ، وتضمن تخطيط برونل لكليفتون أبوابا عالية بتماثيل لأبى الهول ، وفوقها كرات مجنحة ، فضلا عن زخارف هيروغليفية ، وهى مجموعة مكتملة أثارت الكثير من الاعجاب .

وحتى رجال الصناعة فى الشمال الصناعى استهواهم اضفاء طابع روحى على مصانعهم الشيطانية بأصداء من مصر ، فبنى مصنع تمبل فى شارع مارشال فى ليدز بواجهة مستمدة من معبد ادفو ، ومبنى مصنع مستمد من دندرة ، وحليت أعمدته الداخلية برؤوس من النخيل والبردى . وغطى السقف بطبقة من التراب زرعت بالحشائش حتى ترعاها الأغنام ، واضطروا إلى ايقاف ذلك حين سقط أحد الأغنام عبرها فى احدى الآلات .

وكانت (الموتيفات) المصرية شائعة فى العمارة الجنائزية منذ عصر النهضة لكنها برزت من جديد بصورة أكبر فى أوائل القرن التاسع عشر . وفى ظل نابليون أرسى أساس مدافن بير-لاشيز فى باريس وكثير من نصبها المتميزة ذات أسلوب مصرى ، ويضم المدفن النموذجى قبوا تحت الأرض يعلوه معبد ، وكثيرا ما كان يحلى (بموتيفات) مصرية . ومقبرة جاسبار مونج - التى بناها تلاميذ مدرسة الهندسة - غنية بالمصريات بما يتناسب مع كبير علماء بونابرت . وسرعان ما اشتهرت بير- لاشيز كنموذج للمدافن العامة ، وقلدت بشكل واسع . ويلاحظ «بحث عن المدافن» نشر فى «آرشيتكتال ماجازين» فى عام ١٨٣٧ أن «الأسلوب المصرى ، باتساعه الهائل ونسبه الضخمة كثيرا ما اعتمد فى الأضرحة ، وأحيانا - فى اعتقادى - فى المبانى المرتبطة بالمدافن المغلقة - ربما على اساس فكرة البقاء والقوة التى ترتبط بالطبع بالآثار المصرية» . غير أن الكاتب يستطرد ليشير إلى تحفظ على هذا الأسلوب سبق له التعبير عنه :« . . . . ومن الأفضل تنمية تذوق الأسلوب القوطى ، لأن من الحقائق التى لا يمكن أن يغيرها أنه عمارة مسيحية ، وأن العمارة الكلاسيكية والمصرية تنتميان على السواء للوثنية» .

غير أن دوق هاملتون العاشر لم يكن يتأثر بتخوفات أقرانه المسيحيين ، ففى عام

١٨٣٧ دفع ٦٠٠ جنيه مقابل تابوت كان شامبليون قد شحنه إلى فرنسا ، لا ليعرضه بل ليوضع فيه جدثه . وأمر الدوق ببناء ضريح واسع فى أرض قصره وصفته «التايمز» بقولها «من المعتقد أنه أغلى وأفحم معبد لاستقبال الموتى فى العالم - باستثناء الأهرام طبعا» ، ودفن هو نفسه فيه بعد أن قام بتحنيط جسده أولا چوزيف بتجرو مؤلف «تأريخ المومياءات» .

واذا تركنا جانبا النزوات الفردية فقد وقعت السلطات البلدية الوقورة والشركات التجارية بدورها تحت سيطرة شعبية (الموضة) المصرية المتزايدة . ففى عام ١٨٣٩ بنت شركة مدافن لندن «دائرة المدافن اللبنانية» فى مدافن سانت چيمس فى هايجيت حيث كانت دائرة من المدافن المغطاة بالحصى الناعم على الطراز المصرى تحيط بشجرة أرز من لبنان . وكان المدخل - وهو قوس على شكل تحيط به الأعمدة المصرية تحرسها المسلات - يقود إلى «الشارع المصرى» . وتحوى «مدافن جلاسجو» التى أقيمت فى أوائل ثلاثينات القرن التاسع عشر عدة مقابر ذات ملامح مصرية ، ومسلة عليها كتابات وأقبية تودع فيها الأجساد إلى حين بناء مقابر دائمة . وجسدت عديد من الأماكن الأخرى فى ذلك الحين أفكارا مصرية فى مدافنها : كنسال جرين ونوروود وبرومبتون وبرادفورد .

ولاشك أن أغرب المشاريع كان مشروع توماس ويلسون الذى اقترح فى عام ١٨٢٤ اقامة هرم ضخم فى قلب لندن ليضم خمسة ملايين جسد ، على أن يبنى بالآجر ويغطى بالجرانيت ، ويشغل مساحة تعادل ميدان روسل و«يعلو إلى ارتفاع يفوق كثيرا» كتدرائية سانت بول . وقدرت التكلفة بمبلغ ٢٥٨٣٥٢٢ جنيها . ولما كانت كل الأقبية فى هذا المبنى ستباع بأسعار تتراوح بين ١٠٠ و ٥٠٠ جنيه لكل منها فقد حسبت الأرباح التقديرية بمبلغ ١٠٧٦٤٨٠٠ جنيه غير أنه على الرغم من ادعاء ويلسون أن «هذا الضريح الكبير سيقطع شوطا بعيدا فى استكمال أمجاد لندن» ، ورغم ربحيته الواضحة ، وأنه سيكون جميلا مؤمنا ضد الأعمال الغوغائية ومصريا فان الدعم المالى لم يأت ، وبقى التصميم العظيم دون أن ينفذ .

إن معظم الشعراء والمعماريين والفنانين الذين استلهموا مصر لم يتح لهم أن يزوروا المكان فعلا ، واكتفى البعض من أكثرهم شهرة برمزية سطحية ، مثل الأهرام التى كان ج .و .تيرز أحيانا ما يضعها عند الأفق في لوحاته الانجيلية . الا أنه كان هناك بعض الفنانين الذين توفرت لديهم الوسيلة والفراغ ليصلوا إلى الشئ الحقيقى ، ولعله

ليس بالغريب أن تتشابك حياتهم .

قام فردريك كاتروود - الذى اشتهر برسوماته لآثار المايا - بزيارة مصر فى ١٨٢٣ - ١٨٢٤ ، والتقى بروبرت هاى - الرحالة ورجل الآثار الاسكتلندى - فى مالطة وهو فى طريق عودته . وبلغ من تأثر هاى بأقاصيص كاتروود ورسوماته أنه اقلع إلى الاسكندرية ، وقضى السنوات الأثنتى عشرة التالية يزور وادى النيل بصحبة الفنانين والدارسين ، وكان من بينهم چوزيف بونومى - النحات والرسام - الذى قضى السنوات الثمانية التالية بعد أن عرفه هاى على مصر يساعد أبحاث الدارسين الزائرين ، ومنهم ذلك الرجل الذى كان أول من حفز الاهتمام بعلم المصريات فى بريطانيا العظمى .

وقد تعرف چون جاردنر ويلكنسون على أسرار الهيروغليفية وهو تلميذ فى هارو ، فقد كان الناظر فى ذلك الحين - الدكتور چورچ باتلر - صديقا وتلميذا سابقا لتوماس يونج . وبعد أن ترك ويلكنسون كلية اكستر دون أن يحصل على شهادة ، قام بزيارة ايطاليا للاستشفاء وفقا (للموضة) فى ذلك الحين ، حيث التقى بسير ويليم جيل تاجر الآثار الذى كان قد راسله بشأن الهيروغليفية واقتنع بأن يكرس نفسه للآثار المصرية .

وكان ويلكنسون يمتلك دخلا صغيرا ، واستطاع فى سن الرابعة والعشرين أن يزور مصر فى عام ١٨٢١ ، وبقى هناك الأثنتى عشرة سنة التالية . وخلال هذه الفترة زار كل موقع أثرى هام ، ووضع رسومات دقيقة ماهرة ، ودرس العربية والقبطية لمساعدته فى ترجمة الهيروغليفية ، وتوصل - فى استقلال عن عمل شامبليون - إلى كثير من النتائج نفسها .

وعمل ويلكنسون معظم الوقت فى دراسة الهيروغليفية ، ودون مساعدة حكومية ، وتمكن من تحديد كثير من الأسماء الملكية ، ووضع أول ترتيب زمنى موثوق للملوك والأسر . كما رسم أول خريطة شاملة لطيبة القديمة ، وأنتج ثروة لا يضارعها شئ من الرسوم واللوحات من المقابر ، وكتب عمله الضخم الواسع بالغ النجاح «سلوك وعادات المصرين القدماء . بما فى ذلك حياتهم الخاصة وحكوماتهم وقوانينهم وفنونهم وصناعاتهم ودينهم وزراعتهم وتاريخهم الأول ، مستمد من مقارنة اللوحات والتماثيل والآثار التى مازالت قائمة بعروض المؤلفين القدامى» الذى ظهر فى ثلاثة

مجلدات فى عام ١٨٣٧ . وكان بونومى هو الذى أعد الرسوم التوضيحية .

وفى العام السابق كان كتاب «سلوك وعادات المصريين المحدثين» بقلم ادوار ويليم لين قد ظهر فى لندن ، حيث سعى الكاتب أن يصنع للمصريين المحدثين ما سيصنعه ويلكنسون لأسلافهم . ومن بين كل الانجليز الذين ارتدوا السراويل الكتانية والقفاطين ، وأكلوا عيون الأغنام ، واتخذوا أسماء عربية ، وحاولوا عموما أن يخفوا انجليزيتهم ، كان لين هو أكثرهم علمية ويسرا فى قراءته . وهو ابن قس فى هيروفورد ، كان مقدرا له أن ينتهى إلى الكنيسة عبر كمبردج ، لكنه تخلى عن المشروع بعد زيارة قصيرة للمدينة . وبعد بضع سنوات فى لندن حيث درس الرسم والحفر والعربية أقلع فى يوليو ١٨٢٥ - وهو فى سن الرابعة والعشرين - إلى الاسكندرية فى صندل شراعى كاد يغرق فى عاصفة أمام تونس . ويسجل كاتب سيرة حياته أنه وضع الربان غير الكفء فى (كابينته) ، واندفع هو نفسه إلى عجلة القيادة ووصل بالصندل سالما إلى مالطة . وبعد وصوله إلى مصر أبدى نفس الشجاعة والاستقلال بمحاولة العيش كعربى :

> اختلطت بصورة تكاد تكون كاملة مع مسلمين من مختلف رتب المجتمع : وعشت كما يعيشون ، متوافقا مع عاداتهم العامة ، وحرصت دائما ، لكى أجعلهم يألفونى ويعاملونى دون تحفظ فى كل موضوع ، على أن أبدى اتفاقى معهم فى الرأى حيثما سمح لى ضميرى بذلك ، وفى معظم الحالات الأخرى امتنعت عن التعبير عن اختلافى ، وعن أى عمل آخر قد يثير نفورهم ، وامتنعت عن أكل الطعام الذى يحظره دينهم وعن شرب الخمر الخ . . . بل حتى عن عادات تثير فحسب استياءهم مثل استخدام السكاكين والشوك فى تناول الطعام . . . . . فى حين أننى - بالزى الذى وجدته أكثر راحة - يمكن عموما أن يخطئنى الناظر فيحسبنى تركيا .

لقد اشتهر ويلكنسون بكشف أسرار حضارة انقضت منذ أمد بعيد . واكتسب لين وضعه - مثل علماء الانثربولوجيا الاجتماعية فى أواخر القرن التاسع عشر - بسبب معرفته بحضارة غريبة طريفة . وقد راقب بدقة وسجل كل جانب من جوانب حياة المصرين ، منتجا سلسلة من الرسوم باستخدام كاميرا لوسيدا تلقى الصورة من خلال

منشور على لوح أسود يمكن تخطيط الرسم عليه .

ورفض الناشرون الذين عرض عليهم لين ملاحظاته عن مصر نشرها على أساس أن اهتمام الجمهور غير كاف فى ذلك الوقت . ومن حسن الحظ أن لورد بروجهام رأى امكانات الكتاب ، وأوصى لجمعية نشر المعرفة المفيدة . وحقق الكتاب نجاحا تجاريا ، وصدرت منه أربع طبعات فى العشر سنوات الأولى ، وربما لم يكن هذا راجعا كلية إلى اتساع الاهتمام بالانثروبولوجيا ، فثمة تعليق فى المقدمة ربما يكون قد استرعى نظر القارئ : «ان حرارة شهور الصيف تبلغ شدة وطأتها حدا يحدث الكثير من الخمول ، وفى الوقت نفسه تثير لدى المصريين انغماسا فى الملذات الحسية ، وخصوبة التربة الشديدة تولد البلادة» .

ولم يكن المجتمع الفيكتورى الأول ليجفل من أن يتسلى من حين لآخر بمظاهر «الانغماس فى الملذات الحسية» لدى الشعوب الاخرى . والواقع أنه كان هناك اهتمام شديد بمآثر هؤلاء الذين يخرجون دون عقاب على محاظير المجتمع المهذب ، وكان من الواضح أن لين مؤهل لكشفها ، فهو لم يصف فحسب المظهر الخارجى للحضارة المصرية - البيوت والزى والعادات الاجتماعية والالعاب والمهرجانات العامة - بل كذلك العالم الخفى للحريم والمخادع . وهناك طرائف عن إعداد الحشيش والأفيون وتدخينهما ، وطقوس الدراويش السرية ، وممارسة الختان ، والتعاويذ ضد العين الشريرة . وهو يكتب بحماس عن فتنة المرأة المصرية «فالعيون - باستثناءات قليلة - سوداء وكبيرة وطويلة لوزية الشكل ، برموش طويلة جميلة ، وتعبير ساحر : ولا يكاد يمكن تصور عيون أكثر جمالا . . . .» . وهو يكشف بالتفاصيل أسرار (ماكياجهن) ، والتعليمات التى يتلقينها ليصبحن أدوات لمتعة أزواجهن . وكم من رعشة لابد وأنها قد انتابت صدرا فيكتوريا أمام الملاحظة القائلة ان «الطابع الشهوانى لأغلب النساء فى مصر ، والمسلك الإباحى لعدد كبير منهن ، قد يرجعان إلى كثير من الأسباب ؛ جزئيا بسبب المناخ ، وجزئيا إلى افتقارهن إلى التعليم الصحيح ، وإلى تزجيات الوقت والمتع البريئة» .

وإلى جانب سحر الملذات الحسية ، كان هناك من لديهم مشاعر غيبية . وكان بوسع لين أن يشهد من تجربته الشخصية بأن القوى السحرية للمصريين القدامى قد انتقلت إلى سلالتهم الحديثة . فقد زار ذات مرة ساحرا فى القاهرة ، حاملا معه كما قيل له مزيجا من البخور وبذور الكزبرة . وأحرقت هذه الأشياء فى مجمرة ، وأتى

بصبى «لم يصل بعد إلى سن المراهقة» ورسم الساحر فى راحة الصبى «مربعا سحريا» يحوى أرقاما يبلغ مجموعها إذا جمعت رأسيا أو أفقيا أو محوريا خمسة عشر ، وصب الساحر وسط المربع قليلا من الحبر ، وطلب من الصبى أن يحدق فى البقعة . وطلب من لين عندئذ إذا كان يريد استدعاء أى شخص حيا أو ميتا ، فاختار لورد نلسون . وعلى الفور رأى الصبى رجلا يرتدى زيا أوروبيا أسود ويبدو أنه فقد ذراعه الأيسر . وكان هذا شيئا مثيرا وان كان غير دقيق ، وسأل لين فى محاولة للفهم إذا ما كان يمكن أن تكون الصورة التى فى البقعة شبيهة بصورة المرآة ، ومن ثم يبدو اليسار يمينا ، فأكد الساحر أن الأمر كذلك .

ولم تكن رزانة سير چون جاردنر ويلكنسون - الذى حصل على لقب فارس بعد نشر «سلوك وعادات . . . .» - أبدا موضع تساؤل . وآراؤه فى «مصر الحديثة» الذى صدر فى ١٨٤٣ هى آراء رجل انجليزى فى الخارج ، وتتناقض بشدة مع لين . وقد كان لكتاب ويلكنسون هدف مختلف بالطبع ، باعتباره دليلا شاملا للرحالة ، فهو لم يكن يسعى إلى تنوير محبى الاطلاع وإنما إلى تزويد السائح الأجنبى فى مصر بالمعلومات اللازمة لزيارة ناجحة . والكتاب واسع النطاق إلى حد رائع . ويقيّم ويلكنسون مختلف الطرق والفنادق فى الطريق إلى مصر وداخلها ، ويلمح إلى كيفية تفادى جشع الملاحين والحمارين . ويحوى الكتاب ثروة من المعلومات التى بحثت بدقة عن تاريخ وتخطيط كل المواقع الأثرية الرئيسية على طول وادى النيل ، وارشادات واقعية عملية للرحالة ، مثل أن أول ما عليه أن يفعله حين يستأجر زورقا هو أن يقوم بتغطيسه فى الماء حتى يغرق الفئران .

ويتناقض كتاب ويلكنسون «مصر الحديثة» بشدة مع كتاب لين عن «المصريين المحدثين» فى موقفه من المصريين ، فويلكنسون يعطى الرحالة نصيحة دقيقة وصائبة عن الأجور المناسبة لمختلف فئات الخدم ، ويحذره باستمرار من سوء سلوك من يستخدمهم . وعلى سبيل المثال فان من المناسب بعد بضعة أيام من الابحار فى زورق استأجرته وقمت بتغطيسه أن تأمر واحدا من الخدم الوطنيين «فى الليل أو بدعوى الاستحمام» بأن يفحص قلب القارب بحثا عن الاخشاب التى أحيانا ما تربط بعرض القارب حتى تبطئه ، مما يزيد طول الرحلة ومن ثم مقدار الايجار . ومن رأى ويلكنسون أن المصريين قد يكونون غدارين طماعين لكن المسافر الانجليزى ينبغى أن يتعود على فكرة أنه حتى الشحاذ المصرى يعتقد أنه شخص أرقى .

وحظيت رسوم ويلكنسون بالاعجاب للأمانة التى نسخت بها الآثار والكتابات ورسوم الجدران التى درسها ، فقد كان بونومى - الذى ساعد فى اعدادها للنشر - رساما ، وكان لين نقاشا بالحفر . وحتى ذلك الحين كانت وظيفة الفنان فى رحلة ما أن يعمل كالكاميرا ويسجل دون تشويه . وكان أول فنان محترف - بمعنى أنه يكسب عيشه بالرسم - يزور مصر هو دافيد روبرتز .

كان روبرتز هو الابن البكر الموهوب لصانع أحذية اسكتلندى ، وقد شق طريقه فى عالم الفن من خلال العمل كفنان مشاهد فى السيرك والمسرح . واحتفظت لوحاته بطابع مسرحى طيلة حياته ، ويمكن لها أن تجد مكانها المناسب فى مشاهد أوبرا رومانسية . وكان روبرتز يبحث عن مواضيعه فى مشاهد درامية تسمح له بأن يملأ لوحات كبيرة بألوان متوهجة . وكان من أول ما كلف به لوحة «خروج الاسرائيليين من مصر» التى قال انه اختارها بنفسه «لتكون أداة لادخال هذا الأسلوب المعمارى العظيم على بساطته ،المسمى بالأسلوب «المصرى» أكثر من أى سبب آخر» . وتبين اللوحة آلاف الناس يغادرون دار العبودية ، والمصريون يحدقون فيهم من الحدائق المعلقة فى قصورهم الفاخرة . وألوانها غنية وقاتمة ، لكن العمارة ليست مصرية تماما ، بل هى اغريقية - رومانية وفق الأسلوب الذى يفضله دينون ومعظم رحالة بداية القرن التاسع عشر ، ويشغل بناء ضخم ذو أعمدة الجانب الأيسر من الصورة ، ويمتد حتى الضباب البعيد الذى تقطعه أهرام حادة الزوايا ، وتتسم الصورة بذلك الشغف بالضخامة الذى اتسم به الرسامون الحالمون فى ذلك الحين . وقد استقبلت بقدر من الحماس مكّن روبرتز فى أول سنة عرضت فيها من أن يتوقف عن رسم مشاهد عيد الميلاد فى كوفنت جاردن ، ويكرس نفسه لأمور أرقى .

وفي عام ١٨٣٨ حج روبرتز إلى مصدر الهامه ، وبعد أن قدم نفسه إلى الكولونيل كامبل بدأ رحلة على طول النيل بصحبة الكابتن نيللى من الفرقة التاسعة والتسعين ، وهو زارع قصب سكر معتزل من جزر الهند الغربية البريطانية ، وفاندهورست المصاب بقصر النظر والنقرس ، وشخص غامض يدعى «السيد ا» التقطوه فى القاهرة . واستأجروا قاربا ليحملهم إلى الشلال الثانى ، مقابل خمسة عشر جنيها فى الشهر لطاقم من ثمانية أفراد ، لمدة ثلاثة أشهر . ورتبوا تغطيس القارب لاغراق الفئران ، واشتروا علما بريطانيا ليرفعوه على السارى . ورغم أن الرحلة لم تكن رحلة استكشافية - فالأخطار قليلة وكثير من السياح الأجانب الآخرين قد مهدوا الطريق -

فقد قدمت واقع مصر لرسام طالما تغذى خياله بأفكار حالمة :

> ففي عين الرسام لا شئ يفوق جمال هذه القوارب وهى تنساب بطول النهر ، وأشرعتها البيضاء تنتشر وترتعش فى الريح : وكبائنها الصغيرة على السطح تذكرنى بأسطح السفن الالمانية ومؤخراتها المرتفعة التى كانت منذ صباى موضع اعجابى فى القطع البحرية فى ڤندرڤيلد وباخويسين . انها أصغر حجما بالتأكيد ولكنها بسلالها البهيجة . . . . وأزياء رجالها الأكثر بهجة تفوق حتى السفن الالمانية .

وكان روبرتز الذى لم ينس أبدا بداياته المتواضعة فوق محل الاسكافى يشعر ببعض الاعتزاز والمتعة حين يتصرف كسيد بريطانى فى الخارج :

> . . . . . فهناك بالنسبة لى شعور الرضا بأن أكون للمرة الأولى قائد سفينة وتحت تصرفى طاقم من ثمانية رجال أو تسعة ، وأنا أنظر بين الحين والآخر ، بقدر ليس قليلا من الفخر ، إذ تمر بى بعض الزوارق بأعلامها الممزقة ونقوشها العربية أو علم الباشا بهلاله ونجومه .

وذات يوم – بعد أدفو – بدا أن شعور التفوق الوطنى قد تبخر حين رفرف علم الباشا – معلقا على احدى بواخره – فى الأفق . ورأى روبرتز ورفاقه أن سفينة الباشا لابد وأنها أول باخرة تبحر فى النيل ، ومن ثم هتفوا لها ثلاثا من قلوبهم «ومرة أخرى رن الشعار الانجليزى حتى صخور حجر سلسلة القديمة» . كانت لديهم رسائل تقديم إلى الباشا ، فانتابتهم حمى النشاط لامكانية تقديمها . وتوقفت باخرة الباشا فى منتصف النهر قبالة المكان الذى يرسو فيه قارب روبرتز ، وإذ اعتبروا ذلك ايماءة ودية فقد انطلقوا وكلهم أمل فى أن يحظوا باللقاء . وقابلهم مهندس اسكتلندى أخبرهم أنهم تلقوا أوامرا بالتوقف لمعرفة سبب كل هذه الضجة ، وحين سمع تفسير روبرتز هبط ليحرك الباخرة . وبقى الباشا محمد على أسفل سطح السفينة ، واضطر روبرتز وفريقه إلى الخروج على عجل وبصورة غير كريمة إذ تحركت الباخرة إلى الامام .

ويذكر روبرتز فى يومياته أن الباشا رفض الظهور لأنه ظنهم «مجموعة من الانجليز المتغطرسين» . ويبدو أن الشبان المصريين الذين كانوا يرسلون إلى انجلترا للدراسة قد

عادوا بما أسماه الباشا «استقلالية متغطرسة» لم تكن لتروق له .

وواصل روبرتز وفريقه الابحار حتى الكرنك ، حيث أحس روبرتز أن ذلك الحماس التلقائى الذى شعر به الجيش الفرنسى - كما سجله دنتون - لابد وأنه كان مفتعلا إذ ليس ثمة شئ مثير من بعد «فلن تغلبك الدهشة ، إذا أمكن القول ، الا عن قرب ، الا إذا وصلت عندها وتجولت فيها» .

ورسم روبرتز دراسة للقاعة الكبرى ، وهى بهو طويل من الأعمدة ينتصب فيه الاله مين باعتزاز فوق العمود الأيسر القريب ، وانما محروما من عضوه المنتصب احتراما لحساسيات العصر . وأبدى روبرتز أسفه لغياب المسلة ، التى انتزعت من مكانها الحق تحت الشمس بعد ثلاثة وثلاثين قرنا لتزيين «بقعة فى باريس دنستها ألف جريمة»

ومضى الفريق إلى جزيرة فيلة ، التى وجدها روبرتز - ككل الرحالة قبله - باهرة ، «فردوسا فى قلب الخراب» . ورسم دراسة درامية للجزيرة عند الغروب ، والضوء يتدفق عبر الأنقاض ، وقال انها جعلته يحس بالحنين إلى الوطن : «فأنقاضها - حتى من بعد - أروع من كل ما شاهدته ، وربما كان ذلك بفعل الصخور الجرداء التى تحيط بها ، فقد أعادت لى ذكريات «أرض الأجداد» إذ ذكرتنى بأول مرة أرتقى فيها قلعة روسلين» .

وكانت أقصى نقطة وصل إليها روبرتز جنوبا هى أبو سمبل ، حيث بقى ثلاثة أيام يرسم المعبد الكبير . وقد وجد التماثيل الأربعة الكبرى - رغم ما أصابها من رضوض - مثيرة للرهبة ، وأبدى تخوفه «لا من أن يحطمها فحسب صائدو الآثار بل من أن تغطيها أسماء مثل توبكينز وسميث وهويكنز» وغيرهم ممن بلغت بهم «الوقاحة أن يلطخوا بأسمائهم الغبية حتى جبهة الاله» .

وبعد ان عاد روبرتز إلى القاهرة تمكن - من خلال تدخل الكولونيل كامبل - من الحصول على فرمان من المحافظ يسمح له برسم أبهاء المساجد الداخلية فى القاهرة . وكان الشرط الوحيد هو أن يفعل ذلك وهو يرتدى زيا مناسبا ، فحلق عارضيه الطويلين وأطلق شاربا كثيفا ، وارتدى عمامة كبيرة وسروالا تركيا وعباءة وشريطا عريضا حول الجزء الأسفل من صدره حتى يبدو «تركيا مقبولا» . وكان الأمر المثير بالنسبة لروبرتز بالطبع هو أنه أول فنان أوروبى يحظى بميزة الرسم داخل المساجد . ولم

يكن هذا صحيحا تماما ، إذ كانت المساجد الكبرى مفتوحة أمام الزوار منذ بداية القرن ، لكن بوسع روبرتز أن يقول انه كان أول فنان محترف يحصل على تصريح رسمى باختيار ما يروق له من مساجد القاهرة .

وكان روبرتز يشعر دائما بأنه يشغل مركزا خاصا ، وعمل جادا لتبريره . فكتب يقول : «اننى أول فنان – على الأقل من انجلترا – يأتى إلى هنا . . . . وأستطيع الآن أن أقول ان عمل الفرنسيين لا يعطى أى فكرة عن هذه الآثار الرائعة» . ووجدت متعته بمصر تعبيرا عنها فى المجموعة الكبيرة من الرسومات التي اكتنزها فى القاهرة ، والتى كتب عنها بحماس إلى أحد أصدقائه قائلا :

> «ولا غبار على أن أقرر أننى أعتقد (وستقول أن ذلك طبيعى تماما) أنها أهم ما غادر هذه البلاد ، وأعنى كرسوم فنية ، ولما كنت أعرف تقريبا كل الأعمال عن مصر القديمة قبل مجيئى إلى هنا فان علىّ أن أقول انه مازال هناك الكثير الذى ينبغى القيام به سواء لبيان عظمتها أو رشاقة تكوينها . . . . . .وكلها أشياء أعتز لا بأننى قد أوفيتها حقها – فما من رسم يمكن أن يفعل ذلك – وإنما بأننى أعتقد أننى أقتربت منها أكثر من أى شئ يمكن أن يستغرق سنوات فى الاقتراب منها . . .» .

وتعلو هامة داڤيد روبرتز كثيرا هامات كل الفنانين الذين عملوا فى موضوع مصر أو عنه فى ذلك الوقت ، سواء من حيث جودة عمله المطلقة أو مهارته وعرضه . وقد نشر كتابه «مصر والنوبة» – الذى يحوى مجموعة ليثوغراف رائعة من أعماله – فيما بين عامى ١٨٤٦ و ١٨٤٩ . وحظى الكتاب بشعبية واسعة ، وكان مما أضفى عليه مكانة كبيرة أن من بين المشتركين الأصليين فيه الملكة ڤيكتوريا وأسقفا كانتربرى ويورك . كانت الصورة مرسومة جيدا ، ومعروضة بدرجة عالية من الدقة ، ولم يكن هناك ما يعيبها الا حين يغلب على روبرتز ميله الشديد إلى ما هو مسرحى ؛ فالرسم الأصلى لواحدة منها بعنوان «مشهد للصحراء عند مشارف سيمون» هو تكوين درامى يبين أبا الهول وخلفه هرم ، يغمرهما الوهج الأرجوانى لشمس غاربة . ويكشف أبو الهول عن جانبه الأيسر ، وتشغل الشمس قلب المسرح ، وهى زاوية مستحيلة لأن أبا الهول – تجسيد رع – هيراختى ، أى الشمس المشرقة – يواجه الشرق . كما أن وضع الهرم غير دقيق . وقد أثارت تجاوزات روبرتز ضيق هولمان هانت ، لكن شارل ديكنز

الذى عرض عليه روبرتز الرسم الأصلى أعجب به واعتبره «تصورا شاعريا» .

كان روبرتز - شأنه شأن لين وويلكنسون - شخصية شديدة الفردية يعمل وحده ، وكان مدى فهم هؤلاء الرجال لمصر محدودا بمفاهيمهم المسبقة ، وبقيود الزمان والأموال ، الا أن كلا منهم أنجز قدرا كبيرا من العمل رغم هذه القيود .

وفى أوائل أربعينات القرن الثامن عشر كانت هناك خطط لرحلة ليس أمامها عوائق ، لأنها جاءت لتدفع إلى الأمام بسمعة دولة أوروبية طموحة .

فقد تولى فردريك ويليم الرابع عرش بروسيا هام ١٨٤٠ ، وعرف بأنه رجل ذو اتجاهات ليبرالية وميل إلى ما هو قديم وطريف . وكان صديقا قديما للبارون كريستيان ڤون بونسين ، العلامة والدبلوماسى ، الذى قضى أربعينات القرن التاسع عشر فى بلاط سانت چيمس فى لندن ، ووضع خمس مجلدات عن «مكان مصر فى التاريخ العالمى» . ونتيجة مراسلات الملك فريدريك المنتظمة مع ڤون بونسين فقد تبين الشهرة التى حققتها انجلترا وفرنسا فى ميدان الاكتشافات المصرية الرائجة حينئذ ، ومجموعات اللوڤر والمتحف البريطانى التى تحظى بالتقدير الدولى . وقرر الملك فريدريك أن الوقت قد حان لكى تقوم بروسيا بدفع المعرفة الانسانية - وكذلك مكانتها الوطنية - إلى الامام - ومن ثم فقد قرر اعداد بعثة إلى مصر تكون أكبر البعثات فى تاريخ استكشافات تلك البلاد وأفضلها تنظيما .

وبناء على نصيحة بونسين والعلامة هيولد عين الملك كارل ريتشارد ليبسيوس ، من جامعة برلين ، رئيسا للبعثة . وكان ليبسيوس قد قضى أربع سنوات يطوف بالمجموعات المصرية فى انجلترا وفرنسا وهولندا وايطاليا ، ويتعلم فن رسم الاسكتشات وتطريس الكتابات ، وكذلك الحفر على النحاس والليثوجرايات وقد ساعده هذا كله كثيرا فى مصر .

ورحلت البعثة من انجلترا ، حيث كان ليبسيوس قد عين چوزيف بونومى والمهندس البريطانى چيمس وايلد ، ووصلوا إلى الاسكندرية فى سبتمبر ١٨٤٢ .

ومن خلال المساعى الحميدة للقنصل السويدى العام - الذى كان يقوم برعاية شؤون بروسيا فى مصر - رتبت لهم مقابلة مع محمد على . وأعلن الباشا سروره بالزهريات التى جاء بها ليبسيوس هدية من الملك فريدريك ، واعتزازه بتلقى رسالة شخصية منه . وكان الباشا «يبدو نشيطا فتيا فى حركاته وحديثه . ولم يكن أى ضعف

ليبدو على محيا هذا الرجل ذى الثلاثة والسبعين ربيعا أو فى عينيه اللامعتين» . وسأل ليبسيوس كيف يسير متحف القاهرة ، الذى تأسس بقانون عام ١٨٣٥ . ورد الباشا بأنه ليس مزدهرا بسبب المطالبات الكثيرة غير العادلة التى تأتيه من أوروبا ، ثم وافق على اعطاء فرمان لليبسيوس يعطيه حقا غير محدود فى الحفر ، وفى تكوين المجموعات التى يريدها .

وفى ١٥ اكتوبر احتفلت البعثة كلها بعيد ميلاد الملك فريدريك بالقيام بأول زيارة للهرم الأكبر ، وركبوا فى موكب طويل ، وتناولوا طعام الافطار فى مقبرة قريبة بينما كان العمال ينصبون لهم خيمة كبيرة جئ بها من القاهرة :

> وجعلتهم ينصبونها عند الجانب الأيمن من الهرم ، ويضعون الشعار البروسى الكبير الذى كان فنانونا قد أعدوه فى الأيام القليلة السابقة - النسر الأسود ذو الصولجان والتاج الذهبيين وسيفا أزرق على أرضية بيضاء - أمام باب الخيمة .

واصطف نحو ثلاثين بدويا عند قاعدة الهرم ، وعند اعطاء اشارة بدء الصعود أحاط عدد من البدو بكل واحد من أفراد البعثة ورفعوه عبر الدرجات إلى الذروة :

> وبعد بضع دقائق كان علمنا يرفرف فوق قمة أقدم بناء انسانى نعرفه ، وقمنا بتحية النسر البروسى بثلاثة هتافات لمليكنا ، وكان النسر وهو يحلق نحو الجنوب يدير رأسه المتوج نحو الوطن فى الشمال . . . .

وبقيت البعثة ثلاث سنوات فى مصر ، تسجل اكتشافاتها بدقة ومنهجية ، وقضت ستة أشهر فى ممفيس ، وسبعة أشهر فى طيبة ، حيث أعرب ليبسيوس عن شكره لويلكنسون وهاى لترميمهما بعض المنازل القديمة التى اتخذتها البعثة مساكنا لها : «وعند طرف الفناء مازال هناك برج مراقبة وحيد رفرف عليه العلم البروسى ، وعلى مقربة شديدة منه منزل صغير ذو طابقين ، كنت أنا نفسى أقطن فيه ، وهناك أيضا مساحة للمطبخ والخدم والحمير» .

وأثناء فصل الشتاء ، الذى أسماه ليبسيوس «فصل الاجتماعيات» كانوا يستقبلون كل أسبوع زوارا من أوروبا . وكان الانجليز - حسب قوله - «أكثر تمثيلا بالطبع» ، أما الفرنسيون فكانوا أقل ترددا .

وفى أوائل أربعينات القرن التاسع عشر كان وادى النيل قد كف عن أن يكون المنطقة النائية الخطرة التى كانها قبل نصف قرن ، وكان فى طريقه لأن يصبح مسار السياح المطروق الذى نعرفه اليوم . وكانت البعثة فى موقع طيب للغاية فى طيبة عند احتفالها بعامها الثانى :

> فى جوهرة كل المبانى المصرية ، فى قصر رمسيس سيزوستريس الذى أقامه أعظم الفراعنة هنا بطريقة تليق به وبالاله . . . فوق شرفة مرتفعة قليلا ، أقيمت بحيث تطل على الوادى الواسع فى هذا الجانب ، وعلى الجانب الآخر للنهر الجليل ، احتفلنا بعيد ميلاد مليكنا المحبوب بالتحيات والأعلام وأغانى الكورس والأنخاب الحارة التى تبادلناها على زجاجة من نبيذ الراين الألمانى الخالص .

ولم يسجل ليبسيوس شيئا عن رأى العمال المصريين فى كل هذا القصف حول المعابد القديمة ، ولاشك أنهم كانوا قد اعتادوا مسلك الزوار الأوروبيين الغريب . ولا يبدو أن ليبسيوس قد واجه مع مستخدميه الصعوبات التى عاناها غيره ، وربما لم يهتم بتسجيلها ، أو ربما كان لرمز مكانته الأثر الذى نسبه إليه : «وكنت أرتدى كذلك قبعة من اللباد رمادية ذات حافة عريضة ، كرمز أوروبى ، حظى باحترام العرب» .

كان البحث دقيقا ، والسجلات شاملة ، وقد دخلت بعثة ليبسيوس التاريخ باعتبار أنها غيرت طابع الاستكشاف المصرى إذ فرضت النظام فى قلب الفوضى ، لكن هذا لم يكن هدفها الوحيد ، ويسجل ليبسيوس أن غايتها المكرسة ملكيا كانت «بحثا تاريخيا وآثاريا للآثار المصرية القديمة في وادى النيل وشبه جزيرة سيناء وجمعها» . ولم تهمل البعثة واجبها فى الاستيلاء ، وأرسلت إلى الوطن ما مجموعه ١٥٠٠٠ أثر ولوح من الجبس ، شكلت مجموعة متحف برلين ، ومن بينها ثلاث مقابر كاملة من منطقة الهرم الأكبر ، قام بتقطيعها بعناية وشحنها أربعة عمال استدعوا خصيصا من برلين لهذا الغرض .

وقدمت لليبسيوس قوارب حكومية لشحن آثاره من المحافظات الجنوبية من جبل باركال حتى الاسكندرية ، الأمر الذى أثار احتكاكا مع المنقبين من البلدان الأخرى ، الذين كان القانون يحظر عليهم تصدير اكتشافاتهم أو حتى ادعاء ملكيتها . وكان

التبرير الذى قدمه ليبسيوس لهذا النهب الواسع غير العادى للآثار القديمة متمشيا مع الاخلاقية الجديدة التى تتحدث عن اسهام ايثارى فى غاية أعظم :

> لأننا لم نكن نحفر ونستخرج الآثار التى كان أغلبها خبيئا تحت السطح ليلا وعلى عجل وبالهوجة - كما كان يفعل كثير من منافسينا - وانما (على راحتنا) وبالتعاون الصريح مع السلطات . . . . . ولم نكن لنتعرض لأن تعمينا المصلحة الذاتية ، لأننا لم نكن نختار الآثار لإنفسنا ، وانما باعتبارنا وكلاء لحكومتنا ، للمتحف الملكى فى برلين ، ومن ثم لصالح العلم وجمهور الباحثين .

وعين ليبسيوس أستاذا فى جامعة برلين فى عام ١٨٤٦ ، بعد عودته بقليل ، ثم فيما بعد أمينا للمجموعات المصرية . ونشر الكتابات الأثرية والمواد التصويرية الأخرى للبعثة فى عام ١٨٥٩ ، فى اثنى عشر مجلدا ضخما بعنوان «آثار من مصر واثيوبيا» لعله أضخم عمل كتب عن مصر .

ومع منشورات ليبسيوس الضخمة ، ومنشورات لين وويلكنسون ، كانت الشهرة الدولية لبروسيا وانجلترا فى مجال علم المصريات فى تصاعد . غير أنه فى الوقت الذى ظهر فيه كتاب ليبسيوس كانت السيطرة على الآثار المصرية قد انتقلت منهما وبحزم إلى أيدى الفرنسيين ، فقد استيقظ الضمير الوطنى - ثم الدولى - بشأن تدمير الآثار . وفى النهاية أقيمت مؤسسة لحفظها وحمايتها ، ووصف مؤسسها ومديرها بأنه «المارد الأكبر فى تاريخ علم المصريات بأسره» .

الفصل السادس

العـــين الغيـــورة

حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت مصر أرضا مباحة للجامعين الأوروبيين والمتاحف الأوربية المتنافسة . وكان الرواد الأفراد العاملون فى الحفر يساومون الفلاحين والتجار فى منافسة صريحة مع بعضهم بعضا . وعلى حد قول هوارد كارتر - مكتشف مقبرة توت عنخ آمون - «كانت هذه هى أيام التنقيب العظيمة ، فكل ما يخلب الهوى - سواء كان جعرانا أو مسلة - كان يمتلك ببساطة ، واذا نشب خلاف فى الرأى مع منقب شقيق كان المرء يتوجه إليه حاملا بندقية» . ثم حدث تغير كبير من خلال جهد رجل واحد : فأنفذ القانون الذى يحظر تصدير الآثار ، والذى ظل حبرا على ورق طيلة عشرين عاما ؛ وفُتشت المواقع ، وحظر التنقيب دون تصريح . وسيطر هذا الرجل الواحد على وادى النيل بأسره ، من الدلتا حتى الشلال الثانى . وأصبحت الآثار المصرية حماه الخاص . وفى احدى المناسبات الشهيرة لم يدّع الباشا نفسه سوى المرتبة الثانية . وتبدو طفولة أوجست مارييت - على عكس مواطنه المتميز شامبليون - خالية من أى بشارة . كان ابن محام بحرى فى بولونى -سير-مير ، وأبدى موهبة مبكرة فى الرسم ومقدرة عامة فى دراساته ، ولكن لم يكن يبدو أن هناك بؤرة خاصة لطموحاته . وذهب إلى انجلترا وهو يحاول أن يقرر ما الذى يريده من حياته ، وقام بتدريس اللغة الفرنسية لمدة سنة فى مدرسة خاصة فى ستارتفورد - أون - آفون . ثم بعد ذلك وجه مرييت مواهبه الفنية للاستخدام التجارى بتصميم الأشرطة فى كونفنترى ،لكنه سرعان ما عاد إلى فرنسا فى نهاية عام ١٨٤٠ ليقوم بالتدريس فى المدرسة التى تعلم فيها فى بولونى .

وأخذ مرييت (يلغوص) في كل شئ : فكان يصمم ويرسم المشاهد لمسرحيات المدرسة ، متلقيا تعليقات سارة فى الصحف المحلية ، ثم بدأ يكتب مقالات عن التاريخ المحلى ، متفرعا إلى الفنون بمقالات عن وفاة جيوتو ، وتاريخ الأغنية الفرنسية ، ومرثية شعرية عند وفاة دوق أورليانز ، وحتى قصيدة فى الاحتفال باقامة تمثال لنابليون أسماها «تمجيد نابليون» . وفى عام ١٨٤٢ نشر مرييت رواية رومانسية باسم «حسن الأسود» لم تكشف عن أى موهبة أدبية . وفى العام نفسه عضته البطة المصرية ، وهو التعبير ذاته الذى استخدمه وهو يعرض قصة أول اتصال له بمصر : «والبطة المصرية حيوان خطير . انها تحييك برقة ، لكنك ان تركت نفسك تستسلم لهيئتها البريئة ، وتعاملت معها بطريقة ودية ، فقد ضعت : فنقرة واحدة من منقارها تغرس فيك سمها ، وتصبح عالم مصريات طيلة حياتك» .

وتصادف أن كان الرسام نستور لوت - الذى صحب شامبليون فى رحلته إلى مصر - هو ابن عم مرييت . وقد توفى لوت بالدوستاريا هناك . وأعيدت أوراقه إلى اسرته . وكانت كثير منها رسومات للآثار تحوى كتابات بالهيروغليفية . وطلب من مرييت - الذى لا يعرف شيئا عن الموضوع لكنه اشتهر باعتباره مثقفا متفتحا - أن يقوم بفرزها .

وسرعان ما خلب لب مرييت ، وبدأ يقوم بتدريس مبادئ علم المصريات . وطيلة سبعة أعوام كان مرييت يعمل وحده فى وقت فراغه ، مستخدما الكتب القليلة المنشورة ، فى جهد لفهم الكتابات . وعاقه إلى حد خطير «وصف مصر» العظيم - الذى كان متحف بولونى قد اشتراه - لأنه افترض أن اللوحات الفاخرة كانت كتابات هيروغليفية دقيقة . وبالطبع فقد وجد فيها تناقضات وأوجه عدم اتساق ، بل كاد يتخلى عن محاولة التعلم . وبعد سنوات طويلة أدرك مرييت أن فنانى حملة نابليون - وهم على ثقة من أن أحدا لن ينجح فى ترجمة اللغة - كانوا يرتجلون من وقت إلى آخر ، ويضعون أقساما من الكتابات الهيروغليفية لتناسب تصميماتهم .

وفى عام ١٨٤٧ وصف مرييت وحدد المقتنيات المصرية فى متحف بولونى فى «كتالوج تحليلى للآثار التى تشكل الرواق المصرى في متحف بولونى» ، الأمر الذى وصل باسمه إلى دائرة من القراء أوسع من قراء الصحف المحلية . وكان أكثر هؤلاء نفوذا هو شارل لينورمان الذى توجه إلى مصر مع شامبليون وكان أستاذا للآثار المصرية فى كوليج دى فوانس . وقد بلغ من تأثر لينورمان بمرييت أنه نجح فى الحصول له على

وظيفة ثانوية فى اللوفر . وفى عام ١٨٤٩ انتقل مرييت إلى باريس ، وكان حينئذ فى الثانية والعشرين من عمره .

ورغم أن منصب مرييت المتواضع كان خطوة أدنى من وضعه كمدرس وشهرته المحدودة فى موطنه فقد استشاره أن يكون فى النهاية خارج الريف ، وفى قلب الدراسات المصرية . وقد أعطى وظيفة وضع كتالوجات بالمقتنيات المصرية الجديدة ، ولصق أوراق البردي بالكرتون حتى يمكن تناولها دون تلف . وحذّر من أن وظيفته مؤقتة ، وكان أجره ضئيلا . غير أن خطاب - تعيينه - وان كان يأسف لهذه المتاعب - يذكّر مرييت بأنه سيسعد بالعمل على مقربة من الآثار المصرية ، وسيشعر بالرضا لتقديم خدمة شخصية لمؤسسة عظمى . وحاول زيادة راتبه - فقد كان حينئذ متزوجا ولديه ثلاث بنات - بعرض قيامه بوضع كتالوج وتنظيم كل مجموعة أوراق البردى فى وقت فراغه ؛ ورفض طلبه على أساس أنه إذ يحصل بالفعل على راتب شهرى فليس من المقبول أن يدفع له المتحف المزيد ، فليس لدى الموظفين المدنيين وقت فراغ .

وكان مرييت قد جاء بأسرته لتعيش معه فى باريس . وقد وجده صديق جاء لزيارته يجلس فى شقة نصف مؤثثة ، أمام مائدة كبيرة مغطاة بالكتب ، واحدى بناته على ركبتيه ، والأخريان تلعبان حول ساقيه . وقال مرييت «لم أعمل أبدا بطريقة أفضل من هذه الطريقة : فأنا أحب أن أشعر بعالمى الصغير على مقربة منى» . وطيلة بقية حياته المهنية كان يحيط نفسه - وسط كل الأخطار والمتاعب - «بعالمه الصغير» هذا .

كان روبرت كيرزون - بارون زوش الرابع عشر - دارسا ورحالة طاف بمصر وسوريا وفلسطين عامى ١٨٣٣ - ١٨٣٤ باحثا عن المخطوطات فى مكتبات الأديرة . وفى الاسكندرية لقى الترحيب فى دير قبطى ، ثم عاد إليه ليلح على الرهبان بكميات كبيرة من العرقى ، تاركا مضيفيه سكارى ، وآخذا معه مجموعة كبيرة من المخطوطات . وبعد خمس سنوات وجد الأب هنرى تاتام - وهو باحث بارز للقبطية وخورى سانت كوثبيرت ، بدفورد وجريت وولستون - بيركز - الوقت ليترك واجباته الرعوية مدة تكفى لزيارة الدير نفسه ، ومستخدما الأسلوب نفسه فى تخدير ملكه الحذر لدى الرهبان رحل ببقية المكتبة . ورغم أن هذا أثار ما يشبه الفضيحة فى الدوائر الأكاديمية فقد بقيت سمعة الأب تاتام سليمة حتى لقد عين قسيسا خاصا للملكة فيكتوريا ، وحصل على دكتوراهات فخرية من جامعات دبلن وجوتنجن وليدن .

وتلقى مرييت تعليمات بأن يبحث عن مخطوطات فى الأماكن نفسها ، وان لم يكن بنفس أساليب التملك ، فصوت المال مرتفع كصوت العرقى ، وتقرر تخصيص مبلغ ٦٠٠٠ فرنك للبعثة لتمويل جمع المخطوطات ، واقترح مرييت أن يقوم - كهدف ثانوى - بقليل من أعمال الحفر والتنقيب على الهامش «لاثراء متحفنا» . وتمت الموافقة على ذلك ..

وسرعان ما تحول الهدف الثانوى إلى هدف رئيسى . فما أن هبط مرييت فى مصر فى سبتمبر ١٨٥٠ حتى اكتشف أن كل المخطوطات التى كانت فى الأديرة القبطية قد أرسلت بأمر البطريرك إلى القاهرة ، ووضعت فى قاعة كبيرة بعيدا عن متناول المغامرين الأجانب ، وقيل انه كاحتياط اضافى أغلقت كل الأبواب المؤدية للقاعة بجدران . واستقبل البطريرك مرييت بكثير من الرقة - فقد كان فى نهاية الأمر ممثلا رسميا للحكومة الفرنسية - وقدم له وعودا غامضة بالمساعدة فى المستقبل . وسرعان ما رأي مرييت أنه يراوغ ، وتخلى عن كل أمل فى حيازة المخطوطات القبطية .

وحلّ مرييت ضيفا على ولائم الجالية الفرنسية فى القاهرة : أرنولد لومواين القنصل العام ولينانت دى بلفوند ، وهو مستكشف وفنان بحث عن الذهب فى خدمة محمد على ، وكوفئ بلقب البكوية ، وانطوان كلوت - وهو بدوره بك - الذى عينه محمد على كبيرا للجراحين فى مصر . ولاحظ مرييت أن حدائقهم تحوى تماثيل لأبى الهول من طراز رآه فى الاسكندرية . وحين رأى تمثالا مشابها فى منزل تاجر الآثار سولومون فرنانديز وعلق علي ذلك قيل له ان كل هذه التماثيل تأتى من مكان واحد هو : سقارة .

وقرر مرييت أن يبدأ حفائره هناك وهو يسجل كيف أنه ذات يوم عثر على رأس نصف مدفون لتمثال لأبى الهول يشبه تماما التماثيل التى رآها فى القاهرة والاسكندرية :

> وفى تلك اللحظة عادت إلى ذاكرتي فقرة من سترابو[1] :
> «كما يوجد فى ممفيس معبد سيرابيس[2] فى بقعة رملية حتى أن الرياح تكوم الرمال فى أكوام نرى تحتها تماثيل أبى الهول

(١) جغرافى اغريقى ولد عام ٥٨ ق.م . توفى فيما بين ٣٢ ، ٢٥ ميلادية ، ومن مؤلفاته مذكرات تاريخية والجغرافيا - المترجم .

(٢) اسم اله اغريقى دخل إلى مصر فى عهد البطالسة - المترجم .

> مدفونة ، بعضها جزئيا ، وبعضها حتى رؤوسها ، ويمكن منها أن نحدس أن الطريق إلى المعبد لن يخلو من أخطار اذا فاجآتنا هبة الرياح» ، أفلا يبدو أن سترابو قد كتب هذه العبارة ليساعدنا على أن نجد ثانية - بعد ١٨ قرنا - المعبد الشهير المكرس لسيرابيس؟

وانتهى مرييت إلى أن تماثيل أبى الهول التى رآها فى حدائق أصدقائه والتى وجدها مدفونة فى سقارة ، يمكن أن تكون جزءا من طريق أبي الهول الذى كان يؤدى إلى السرابيوم فى ممفيس ، وكل ما عليه ان يفعله هو أن يتبع خط تماثيل أبى الهول لكى يكشف المعبد :

> ونسيت فى هذه اللحظة مهمتى ، نسيت البطريرك والأديرة والمخطوطات القبطية والسريانية وحتى لينانت بك نفسه . وهكذا ففى الأول من نوفمبر ١٨٥٠ ، وفى شروق من اجمل ما رأيت فى مصر ، وجد ثلاثون عاملا أنفسهم مجموعين تحت أوامرى ، بالقرب من أبى الهول الذى سيغير تماما اقامتى فى مصر .

كان مرييت يقامر بالكثير على سانحة خطرت له . فالأموال التى أعطيت له موجهة بالتحديد لشراء البرديات ، ولم تكن الحفائر التى خطط لانفاقها عليها عارضة فحسب - بل كانت مكلفة وغير مشروعة فى آن واحد ، فمرسوم عام ١٨٣٥ مازال ساريا فى مصر ، وكل ما يكتشف من آثار فى التربة المصرية مملوك للحكومة . الا أن المرسوم كان مع ذلك يعامل باعتباره حلية غير فعالة ، ففى سقارة وحدها كانت هناك حفائر موزعة فى الوادى يمولها قنصل النمسا العام وتاجر الآثار فرنانديز والمبشر الألمانى الأب رودلف ليدر ونصف دستة ممن هم أقل شأنا ، وما من أحد قد حصل على اذن ، وهم لن يكادوا يرحبون بمنافس فى الموقع ، ولن يتسامحوا مع مرييت الا طالما ظل غير ناجح . ومن الناحية الأخرى كان مرييت بحاجة إلى نجاح سريع وخاطف للأبصار لاقناع المسئولين الفرنسيين بأن أموالهم - وان أسئ توجيهها - لم تذهب هباء .

وكما كان يأمل فقد كشفت الحفائر عن خط من تماثيل أبى الهول يبعد كل منها عن الآخر عشرين قدما . وطيلة شهرين ظل العمال يصارعون الرمال المتحركة للكشف عنها ، وبحلول منتصف ديسمبر كانوا قد وجدوا ١٣٤ منها فى طريق

يتجه غربا ، ويبدو أنه يقود حتما إلى المعبد المختفى . ثم فجأة حدثت فجوة ، وحفر العمال حتى عمق خمسين قدما دون أن يجدوا شيئا . وبدا وكأن الطريق يتوقفف ولا يقود إلى شئ ، ان مقامرة مرييت قد خسرت .

وليلة عيد الميلاد اكتشف مرييت أن خط تماثيل أبى الهول يستدير فجأة بزوايا قائمة ويتجه نحو الجنوب ، ووقعت مفاجأة أخرى حين اكتشفوا - بدلا من تماثيل أبى الهول التى تظهر على مسافة منتظمة تبلغ عشرين قدما - تمثالا مغطى جالسا للشاعر الاغريقى بندار ، وإلى جواره مجموعة من الفلاسفة الاغريق يتأملون وهم جالسون على أريكة نصف دائرية . كان من المخيب للآمال أن يعثروا على تماثيل اغريقية فيما كان يبدو أنه ذروة طريق أبى الهول المصرى ، لكن مرييت واصل العمل . وسرعان ما نجح فى الكشف عن معبدين ، احدهما اغريقى والآخر مصرى ، والأخير باسم نكتانيبو[1] ، وهو واحد من أواخر الحكام المصريين الوطنيين فى العصر القديم . وظل معبد سيرابيس العظيم دون أن يكتشف ، فى حين أخذت أمواله تنفد .

وأمل مرييت أن يساعد تقرير عن اكتشافاته المسئولين فى وزارة الداخلية على تقبل فكرة أن الأموال التى قدموها لشراء المخطوطات قد ابتلعتها رمال سقارة ، وأن يرسلوا له المزيد . ومن ثم فقد وضع رسوما دقيقة للحفائر ، وأرسلها بالتفاصيل الكاملة إلى باريس على يد القنصل الفرنسى فى الاسكندرية الذى كان متوجها إليها فى اجازة . وحتى يبقى مرييت على استمرار العمل فقد باع بضع مجوهرات وجدها فى المعبدين ، واقترض من تجار الاسكندرية ومن القنصل أرنولد لومويان . ومع انتشار أنباء نجاحه بسرعة بين منافسيه بدأت المؤامرة ضده .

وقدم الأب ليدر شكوى رسمية إلى الباشا بانتهاكه للقانون ، وكان ليدر قد اشتهر بمساوماته العنيفة فى مشترياته غير القانونية للآثار التى يقوم بها فيما بين محاولاته غير الناجحة لتحويل الاقباط إلى البروتستانتية . وتردد أن الباشا على وشك التدخل ، وقام مرييت - الذى كان قد بنى لنسه بيتا من حجرتين فى سقارة - برفع العلم الفرنسى ليضفى عليه الحصانة . وذات مرة اقترب منه أربعة من الخيالة يعملون لدى رئيس محلى وطالبوه بأن يسلم كل اكتشافاته باسم الحكومة المصرية ، لكنه طردهم إلى الخارج «بضربات السوط» .

(١) أحد فراعنة الأسرة الثلاثين (٣٧٨ - ٣٦٠ ق.م.) - المترجم .

وفى باريس اجتمعت لجنة المتاحف الوطنية بوزارة الداخلية لتستمع إلى تقرير نشاط مرييت تأييدا لطلبه مزيدا من الأموال ، ورغم ما شاب سلوكه من خروج على الأصول فقد تأثرت اللجنة بقوة تدليله :

> ورغم ما ساد عمليات المستكشف الفرنسى من حيطة وحذر فقد ثار الانزعاج بين الأجانب . وسيكون من الصعب منعهم من الاقتراب من المعبد . ويعنى وقف الأبحاث التى أجريت بكل هذا القدر من النجاح أن نسلم إلى المتاحف المنافسة ما ينبغى أن نحتفظ به للمجموعة الوطنية . وأدت هذه الدوافع باللجنة المالية إلى اقتراح اعتماد قدره ٣٠٠٠٠ فرنك . . . .

وأقر الاعتماد ، وأبلغ القنصل الفرنسى فى القاهرة به وبالأغراض المحددة التى سيستخدم فيها : «للتنقيب عن معبد سيرابيس ، الذى اكتشف بين أنقاض ممفيس ، ونقل القطع الفنية التى تستخرج منه إلى فرنسا» .

ورغم سرور مرييت بما حصل عليه من سيولة فقد أثارت الرسالة قلقه لأن القطع الفنية التي تلقى مقابلا لارسالها إلى فرنسا تنتمى للحكومة المصرية بمقتضى القانون المصرى . وكان عباس باشا - ابن أخ محمد على الذى تولى حكومة الباشاليك - أقل ليونة من عمه فى مسألة الفرمانات . وقرر القنصل الفرنسى أن الرسالة الرسمية - إلى جانب العمل الواضح الذى يقوم به مرييت فى سقارة - تجعل من الأفضل طلب تصريح رسمى وان يكن متأخرا . وقام بذلك بطريقة تهدئ الباشا : «ان السيد مرييت لا ينازع بأى حال حقوق ملكية الوالى لكل الآثار المصرية الموجودة فى التربة المصرية ، ويتعهد مقدما بألا يأخذ شيئا مما اكتشفه بالفعل أو مما سيكتشفه» . وأصدر عباس باشا الفرمان بشرطين واردين صراحة فى قانون عام ١٨٣٥ ، ولكنهما لم يؤكدا من قبل : أن تسلم كل الأشياء المنقولة التى يكتشفها مرييت إلى المسئولين ، وأن يعين خمسة حراس فى مواقع الحفر للاشراف على العمليات .

وشعر مرييت بالاحباط الكامل من هذا الوضع ، فهو أسير بين تعليمات حكومته وتعليمات الحكومة المضيفة ، فالفرمان يعنى أنه يستطيع قانونا مواصلة حفائره ، لكن وزارة الداخلية الفرنسية لن تنظر بعين العطف إلى انفاق مرييت ٣٠٠٠٠ فرنك لكى يكتشف كنوزا للباشا . وأوقف مرييت العمل ليعطى انطباعا بالامتثال ، ومقابل ذلك

اتخذ عباس باشا موقفا وسطا حيث قرر أن يحتفظ الفرنسيون بكل ما اكتشفوه قبل تاريخ الفرمان طالما يسلمون كل المكتشافات التالية للمسئولين وفقا للقانون .

وعند هذه النقطة كان الوضع قد ازداد تعقدا باكتشاف ضريح ابيس فى سقارة أثناء سير المفاوضات ، فقد تجاوز هذا الاكتشاف كل التوقعات ، فخلف باب فخم من الحجر الرملى يمتد مدفن مشترك دفنت فيه الثيران التى كانت تجسيدا لأبيس . ووجد أربعة وعشرون كفنا ضخما من الجرانيت فى رواق طويل تتفرع منه ممرات وقاعات من الجانبين . وكان الممر غاصا بالنصب والتماثيل المكسورة ،كنوز من كل نوع . ومن حسن حظه أن مفتشى الباشا كانوا بعيدين عن الموقع عند اكتشاف المدخل ، وأمر مرييت بأن يدفن المدخل ويظل سرا ، فأيا كان الاتفاق الرسمى النهائى بين الدبلوماسيين والباشا فقد قرر مرييت أن يجرى ترتيباته هو .

وأقام مرييت غرفة عمل فى معبد نكتانيبو ، وأثناء النهار - وتحت عيون المفتشين الرسميين ووفقا للقوائم التى أقروها - بدأ يحزم كل الأشياء التى تم التنازل عنها لفرنسا . وأقيم ممر سرى مغلف بالخشب يقود من هذه القاعة إلى غرفة أعلاها . وفي الليل كانت كنوز السيرابيوم تنقل عبر الممر لكى تحزم وتنقل إلى الاسكندرية علي ظهور الحمير . وعندما يتم تطهير كل مقبرة كان مرييت يقدم تقريرا رسميا عن اكتشافها ، ويقود المسئولين المحبطين عبر غرفها الفارغة .

واستمرت الخدعة شهورا . وتمكن مرييت من أن يرسل إلى اللوفر مجموعة رائعة تشمل ذهب ومجوهرات خامويس ابن رمسيس الثانى وشريكه فى الحكم التي اكتشفت فى مقبرة سجل مرييت أن رمالها كانت لاتزال تحمل خاتم عمال الجنازة .

ولأنه أصبح من المستحيل مواصلة الادعاء بأن كل المقابر خالية تماما فقد استخدم مرييت زميلا - من المفارقات أن اسمه هو بونفوا [1] - ليصنع نسخا من النصب والتماثيل التى وجدت في السيرابيوم ، بل قام بنسخ بعض الهيروغليفيات بنفسه . كما دعم مرييت صناعة الآثار الزائفة المزدهرة بمشتريات فى تكتم لمتحف القاهرة . وطالما بقيت المظاهر مصونة ، كانت الجهات الرسمية راضية ، والمفتشون متعاونين . وأبدى الباشا ارتياحه الشخصى بالأمر بتقديم المساعدة الرسمية لبحارة «لابرادور» و«الباتروس» فى شحن صناديق الكنوز المهربة إلى اللوفر .

* تعنى بالفرنسية حسن النية - المترجم .

وانقسم سكان القاهرة الأوروبيون حول نشاط مربيت . وكان من مؤيديه كلوت بك ولينانت بك والقنصل والرسام الايطالى ڤاسالى الذى كان يحاول رسم لوحة حية للباشا وبرونر وهو طبيب وعالم أنثروبولوجيا ومساعد لكلوت بك . ووقف ضده التجار - مثل الأب ليدر وفرنانديز - فضلا عن القنصلين العامين لانجلترا والنمسا ، شارلز أوجوستوس موراى والبارون ڤون هوبر الذى كان يردد لكل من يصغى أن «هذا الفرنسى فى سقارة ليس سوى لص» .

وكانت هناك مشكلات فى الموقع : فذات مرة دس له أحد الخدم السم فى الطعام وكاد يموت ، ونصبت له الكمائن مرارا . غير أن هذه كانت هى الأخطار العادية للنجاح فى الحفر ، وقد حظي بوسام اللچيون دونير برتبة فارس الذي منحه فى ١٦ اغسطس ١٨٥٢ اعترافا باكتشافاته .

وانضم الباحث الألمانى هنريك بروج - الذى أرسلته الحكومة البروسية لمصر - إلي مربيت فى سقارة لمساعدته فى كتابات السيرابيوم . وأصبح الرجلان صديقين حميمين . وعاش بروج مع أسرة مربيت ، ووصف ظروف العيش هناك :

> كان نحو ثلاثين قردا يعيشون حول المنزل أو يعسكرون فى السقف . . . . والشعابين تنساب على الأرض ، والعناكب أو العقارب تزحف من شقوق الجدران ، ونسيج عنكبوت هائل يتدلى من السقف كالأعلام . وما أن يحين الليل حتى تأتى الخفافيش - وقد اجتذبها الضوء - إلى غرفتى الصغيرة من مصراعى النافذة ، وتقلق نومى بطيرانها كالأشباح . وقبل النوم كنت أضم أطراف الناموسية تحت الوسادة ، وأترك نفسى لرحمة الله وكل القديسين فى حين تعوى بنات آوي والضباع والذئاب حول المنزل .

وكان مربيت يضحك ساخرا من كل متاعب وضعه . ويذكر بروج أن مصدر الحزن الوحيد فى حياته هو أنه سيكون عليه ذات يوم أن يترك كوخه ويعود إلى فرنسا . وأخيرا جاء ذلك اليوم حين قرر مربيت - بعد أن شحن أكثر من ٧٠٠٠ أثر إلى باريس - أن يمضى فى أثرها ، ويستمتع بالشهرة التى كسبتها له اكتشافاته وعمليات تهريبه الناجحة . إلا أنه كانت هناك مهمة أخرى عليه أن يؤديها قبل أن يرحل . فقد كان دوق

لوينز يشعر بالحيرة أمام فقرة لبلينى يذكر فيها الشاعر أن المصريين يعتبرون أبا الهول الكبير مقبرة لملك قديم يسمى هرميس ، ويعتقدون أنه قد أقيم بمواد نقلت إلى المواقع . ولم يكن بلينى يصدق القصة لأنه يعرف أن أبا الهول محفور فى بروز صخرى طبيعى . غير أن الدوق يتساءل ألا يمكن أن تكون مقبرة الملك داخل جسم أبى الهول أو قريبا منه . ومقبرة غير مكتشفة لملك مصرى تستحق بعض النفقات ، وأرسل الدوق ٦٠٠٠ فرنك لمرييت وطلب منه أن يعثر عليها .

واكتشف مرييت علامات على طريق حجرى يقود إلى الجنوب ، بعيدا عن امتداد جسم أبى الهول ، وقرر أن يتبع هذا الطريق ، حيث عثر على ساحة من الجرانيت ، بداخلها جدران معبد . وقرر أنه لا يمكن أن يكون قد بناه الا الملوك الذين بنوا الأهرام ، وبدأ فى تطهيره حتى أساسه ، على أمل أن يجد كتابة منقوشة ، لكن ارض المعبد الممهدة كانت على انخفاض سبعة وعشرين قدما ، والرمال مفككة متحركة ، وهناك كمية كبيرة من الأنقاض ينبغى تطهيرها .

ومرة أخرى نفدت النقود ، وكتب مرييت إلى أكاديمية الآداب طالبا مساعدة الحكومة . وتقدم السكرتير بطلب إلى وزير الدولة ، الذى اتبع الحجة الأكثر احتمالا لأن تطلق خيوط الكيس : العزة الوطنية . وذكّر الوزير المسئولين أن اكتشاف السيرابيوم يعنى «تجديدا لمجد فرنسا فى مصر ، فى ذات الوقت الذى تمكن فيه عضو فى اكاديمية برلين من أن يرفع اسم بروسيا عاليا» . ومرييت الآن على حافة اكتشاف جديد :

> . . . . وتشعر الأكاديمية بالقلق الشديد إذ تعرف . . . . .
> أى كنوز من كنوز العصر القديم تتعرض فرنسا لخسارتها للافتقار إلى قدر قليل من المال . وكم سنأسف لو أن هذا المنجم الذهبى ، الذى هو من حق فرنسا بحكم قانون أنها أول من اكتشفه ، أصبح مملوكا لدول أخرى لن تتردد فى أن تتملكه وتستغله لصالحها .

ولم يكن الوزير مرتاحا لتقديم مزيد من الأموال الحكومية للبعثات العلمية التى يبدو أنها تجد من المستحيل عليها أن تمسك حسابات دقيقة ، ومن المؤكد أن مرييت لن يكون استثناء .وحوّل الطلب إلى مدير عام المتحف ، الذى وافق على تقديم ١٠٠٠ فرنك على أن تكون «الاعانة الأخيرة تماما» . وفى الوقت الذى وصل فيه المبلغ إلى

القاهرة كان مرييت قد أنفق المال بالفعل ، من خلال مبالغ مقدمة رتبهاالقنصل ، وكان لابد من وقف العمل بينما المعبد يرقد نصف مكشوف . وكما سيكتشف مرييت فيما بعد كان يرقد تحت الرمال مباشرة على بعد عشرة أيام عمل فحسب من المكان الذى أوقف فيه الحفر تمثال الديورايت الرائع للملك الذى بنى الهرم الثانى ، وكتب يقول «بضع مئات أخرى من الفرنكات فحسب وكان يمكن لتمثال خفرع أن يكون اليوم فى فرنسا» .

ورحب اللوفر بعودة مرييت وعينه فى عام ١٨٥٥ مساعد أمين فى إدارة الاثار المصرية وسمح له بزيارة المتاحف الأوروبية الأخرى ، لكى يفهم اكتشافاته ويصنفها على نحو أفضل ، وبدأ بألمانيا حيث رد بروج الضيافة المتواضعة التى تلقاها فى سقارة . وقام الملك فريدريك ويليم الرابع - الذى كان قد أبدى اهتمامه بمصر بتمويل بعثة ليبسيوس والذى كان قد أرسل مع بروج دون علم مرييت اسهاما مجهول المصدر للعمل فى السيرابيوم - بدعوة مرييت إلى العشاء ، ومنحه وسام النسر الأحمر من الدرجة الثالثة .

وحين عاد مرييت إلى باريس كتب رسالة عن الديانة المصرية كما تكشف عنها الكتابات التى وجدها فى السيرابيوم . وحاول مرييت فى هذا العمل إيضاح أن المصريين كانوا يؤمنون باله واحد . وأن أبيس كان تجسيدا له ولد بمعجزة عن أم عذراء دون أب أرضى ، أن أبيس كان هو الكلمة التى حجت فترة إلى الأرض فى شكل ثور . وكان تطبيق مفاهيم مثل الميلاد عن عذراء على الديانة المصرية أمرا تفوح منه رائحة كتابات القرن التاسع عشر الصوفية أكثر منه حصيلة عالم مصريات جاد ، ولم يرق الأمر لرئيس مرييت فى اللوفر - دى روجيه - وهو كاثوليكى مخلص . ونصح مرييت بأن يتحول إلى مجالات أقل أثارة للجدال فى كتاباته فى المستقبل .

وزار مرييت تورينو فى مايو ١٨٥٧ ليفحص المجموعة الموجودة هناك . واحتفى به المتحف والأسرة الملكية ، ومنحه الملك وسام سانت موريس ولازاروس ، واختارته أكاديمية العلوم فى تورينو مراسلا . وكان مرييت بالفعل مراسلا لأكاديمية الفنون الجميلة فى ريو دى چانيرو ، وانتخب فى جمعية الآثار فى لندن . والواقع أنه كان قد أصبح من أشهر علماء المصريات الفرنسيين وأكثرهم احتراما فى الخارج . غير أنه لم يجد فى باريس فرصة لمزيد من التقدم المهنى . كان المنصب الرئيسى هو أمين اللوفر ، وقد أوضح المتحف لمرييت أنه لا يمكن أن يرقى إلى هذا المنصب الا عند وفاة أو نقل

شاغله الحالى – دى روچيه – الذى لم يبد أى أمارة على الحركة ، ولم يكن يكبر مرييت الا بعشر سنوات ، ويتمتع بصحة جيدة . وكان راتبه البالغ ٤٠٠٠ فرنك كأمين مساعد هو كل ما يملك لاعالة أسرته التى يبدو أنها تزيد كل عام .

وكان أحد الحلول هو أن يترك الحياة الغالية فى باريس ويتوجه إلى مصر . ومع مرور الشهور كان مرييت كثيرا ما يفكر فى المثل العربى القائل «من يشرب من ماء النيل يعود له ثانية» . وكان يقول لأصدقائه انه يجد من الصعب عليه أن يركز فى عمله وهو فى اللوڤر ، فهو يجلس فى مكتبه ليترجم الهيروغليفية على قطعة آثار جلبها معه ، وبينما هو يقلب فى القطعة كان ذهنه يعود إلى الموقع الذى اكتشفها فيه ، ويتنفس ثانية هواء الصحراء النقى ، ويسمع صيحات العمال . وفجأة يحس بالكراهية لعملية الترجمة ودى روچيه واللوڤر وكل ما يحيط به ، ويتوق إلى أن يعود ثانية إلى مصر . ووسط كل هذا الاحباط خطرت لمرييت فكرة أن يعمل لمصر لا للوڤر . بل راوده حلم أن يقيم ادارة لحماية الآثار هناك لصالح العلم – ادارة يكون هو بالطبع رئيسها .

وجاءته الفرصة فى أوائل عام ١٨٥٧ ، فقد كان الأمير نابليون ، ابن عم الامبراطور ، يشكل نوعا من الحرج للامبراطورية الثانية ، فهو قلق مستخف ناقم على وصول نابليون الثالث إلى السلطة . ومن حسن الحظ أن الامير كان يهوى السفر . وكان الامبراطور على استعداد دائما لأن يشجعه على السفر للخارج بأى ذريعة ، وحين أعرب الأمير عن اهتمامه بمصر ، ذللت كل الأمور لتحقيق نزوة قد تبعده عن فرنسا خمسة أو ستة أشهر .

وكان عدو مرييت القديم عباس باشا قد اغتيل على أيدى قواته ، وخليفته سعيد باشا حريص على تحسين علاقاته بالدول الأوروبية ، كما كان واقعا تحت تأثير الدبلوماسي الفرنسى فرديناند ديليسيبس – الذى عرفه فى شبابه – وهكذا عادت فرنسا إلى الحظوة ، ولا يمكن لزيارة ابن عم الامبراطور الا أن تلقى الترحيب .

وأخبر ديليسيبس الباشا بأن الأمير عاشق للأشياء الجميلة والتاريخ القديم ، ومن ثم فإنه ينتظر أن يطوف به حفائر وادى النيل شخص قادر على أن يشرح له دلالتها ، وأن يغادر مصر بمجموعة من الآثار تليق به . وكان الأرشيدوق النمساوى فرديناند ماكسيمليان قد قام بزيارة قبل عامين ، وأصر على أن يرحل ومعه أفضل ما فى

مجموعة القاهرة ، ومن ثم فان هناك سابقة - يعرفها الأمير - لاهداء أفضل آثار مصر للزوار الملكيين . والرجل الوحيد الذى يمكن أن يصحب الأمير نابليون فى جولة ، والذى يمتلك الطاقة والتنظيم لتكوين مجموعة جديرة بأن يأخذها هو مرييت . وطلب سعيد باشا من ديليسيبس أن يقنع مرييت بالعودة إلى مصر .

غير أنه كان هناك شئ يثير الضيق فى هذه الدعوة ، فلم يكن مرييت قد دعى للعودة إلى مصر كمدير لادارة لحفظ الآثار القديمة كما كان يريد ، وانما كمدير لجولة أمير . وبدلا من انفاذ القانون الذى يحظر تصدير الآثار كان مكلفا بأن يضرب به عرض الحائط . وكتب له ديليسيبس - الذى كان يعرف طموحات مرييت - يشرح له صعوبة أن يدخل فى رأس سعيد باشا فكرة أن عليه التزاما بأن يرعى الآثار . الا أن ديليسيبس استطرد قائلا انه إذا نجحت زيارة الأمير فانه يستطيع أن يطلب ما يريد من الوالى .

ومنح مرييت اجازة أربعة أشهر من المتحف ، ووصل إلى مصر فى اكتوبر ١٨٥٧ ، واستقبله سعيد باشا بحرارة ، ووضع تحت تصرفه قاربا بخاريا «سمنود» وعليه طاقم من الرجال المسلحين . وتلقى مرييت تعليمات بأن يبحر فى النيل ويبلغ الرؤساء المحليين أن الباشا يأمرهم بألا يلمسوا حجرا أثريا واحدا ، وأن يلقوا القبض على أى فلاح يتجاسر بوضع قدمه فى أحد المعابد . كان واجب مرييت مزدوجا : منع أى شخص من رفع الآثار من المواقع القديمة ، وجمع أفضل القطع للأمير الزائر . وبدأ عمله بحماس ، وكان قد اكتسب وضعا لا يحلم به أكثر أسلافه طموحا : الحق فى أن يستولى على كل ما يريد ، فضلا عن السلطة فى منع أى شخص آخر من أن يأخذ شيئا .

غير أن بروز مرييت الفجائى قطعته فجأة أنباء جاءت فى يناير ١٨٥٨ بأن الأمير غير رأيه والغى الزيارة . ووصلت هذه الرسالة إلى القاهرة ومعها خطاب من اللوفر يبلغ مرييت بأنه إذ لم يعد مطلوبا منه الاعداد للزيارة الملكية فقد ألغيت أجازته ، وعليه أن يعود فورا إلى المتحف حيث مكتبه فى انتظاره .

وبدا الوضع مثيرا لليأس : فقد كان حرص سعيد باشا على آثار بلاده نابعا فحسب من رغبته فى التودد إلى الامبراطور ، واذ ضاعت منه الفرصة فليس هناك ما يدفعه إلى الابقاء على مرييت فى خدمته . وأمام امكانية العودة إلى الوظيفة الكئيبة

المملة قدم مرييت اقتراحا يبقيه في القاهرة : لما كان تطلع الأمير لزيارة مصر ناشئا عن حبه للأشياء الجميلة ، واهتمامه الشديد بتاريخ الانسان الأول أفلا يود الأمير أن يمتلك مجموعة من أجمل اثار البلاد كذكرى لرحلة لم تتم وان تعلقت بها كل هذه الآمال المشرقة؟

ورد السكرتير الخاص معربا عن سرور صاحب السمو الملكى باقتراح مرييت ، وطالبا قائمة «بالمجوهرات والتماثيل الصغيرة وعينات الفن المصرى» التى يمكن - دون أن يثير ذلك استهجانا - اضافتها إلى مجموعة نابليون الباهرة أصلا . وأرسلت القائمة ومعها اقتراح بخدمة صغيرة قد يود الأمير تقديمها بشأن الوصاية على مثل هذه الكنوز فى مصر في المستقبل . وكان رد السكرتير الخاص هو كل ما يأمله مرييت : «لن يتردد الأمير نابليون فى تعريف الوالى أنه اذا طلب جلالته من فرنسا المساعدة بارسال أحد العلماء لتأسيس متحف فى مصر فان الحكومة الفرنسية لن تختار بالتأكيد شخصا آخر غيرك» .

وفى أول يونيو ١٨٥٨ عين مرييت مديرا للآثار فى مصر . ومنح مكافأة شخصية تبلغ ١٨٠٠٠ فرنك سنويا ، وسلطة تعيين زملائه واستخدام الزورق البخارى . واعتبر العمل فى حفرياته من الأشغال العامة التى يمكن قانونا جمعه بالتجنيد ، واعتبر مسئولا مباشرة أمام الوالى ، ولم تخصص له ميزانية وإنما منح الحق فى طلب الأموال عند الحاجة إليها .

وكان واجب مرييت الأول هو اغناء متحف القاهرة الذى جرده الأرشيدوق ماكسميليان ، وكان أول طلب له هو تخصيص مبنى تودع فيه مجموعات البلاد الحالية والمقبلة . وخصصت له مخازن فى ميناء بولاق كانت مملوكة لشركة البواخر التى تعمل بين الاسكندرية والقاهرة والتى توقفت بعد افتتاح السكك الحديدية . وهنا نصب مرييت صديقه بونفوا أمينا للآثار التى ستأتى . وكان هناك منزل منخفض رطب فى الموقع جاء إليه بأسرته ، كان منزلا معتما تسكنه الحشرات يكاد يتساقط حولهم ، لكن مرييت أسعده أن يصبح «عالمه الصغير قريبا منه» ثانية .

وفى حين ابتهجت الجالية الفرنسية فقد شعر الآخرون بالضيق من هذا الانتهازى الذى أخذ على عاتقه منع كل حفائر غير حفائره ، مهددا عيش التجار والمزورين على السواء . ووسع مرييت عمله فى الوادى بأسره ، وفى وقت من الأوقات كان هناك

سبعة وثلاثون موقع حفر من الدلتا حتى الشلال الأول . وأخلى أكثر من ٣٠٠ مقبرة فى الجيزة وسقارة ، وفى ادفو نقل مرييت قرية بأسرها من فوق سقف المعبد المدفون ، كاشفا المبنى الرائع للمرة الأولى فى العصر الحديث ، وفى طيبة أزاح الرمال عن جزء من المبنى الرائع لمعبد الملكة حتشبسوت فى الدير البحرى ، واكتشف الجدار الذى صورت عليه «فينوس هتنتوت» الشهيرة . وأثار هذا اعجاب ماركيز دوفيرين الذى تصادف قيامه بزيارة فى ذلك الحين ، حتى لقد أخذ قوة عمل ليلا وهدم الجدار ، على أمل أن يتمكن من شحن الألواح وأرسلت بدلا من ذلك إلى متحف القاهرة . وفى الكرنك عبر النهر كشف مرييت معبد أمون العظيم ، ونقل من هناك . . . ماقطعه آثار . وفى أبيدوس - وبعد دراسة قصيرة للسطح - أدهش مرييت العمال حين رسم لهم الخط الذى ينبغى أن يحفروا عنده ليكشفوا جدار الحد . وحين ظهر الجدار فى المكان الذى توقعه بدقة تجمع القرويون لمشاهدة المعجزة :

> وجاء عربى عجوز وقال له : «أنا لم أغادر هذه القرية أبدا ، ولم أسمع أبدا بوجود جدار هنا . فكم يبلغ سنك حتى تتذكره؟» فأجابه مرييت دون اضطراب «ثلاثة آلاف عام» فقال العجوز «حسنا ، لابد وأن تكون قديسا حتى تبلغ هذه السن وتبدو بهذا الشباب ، فدعنى أنظر إليك» . ولمدة ثلاثة أيام كان يأتى ليحدق فى هذا القديس الذى يبلغ من السن ثلاثة آلاف عام ، وهو يوجه ضربات عصاه بنشاط لا يضارع إلى العمال الذين لا يعملون على هواه .

وطيلة هذه السنوات كان مرييت هو القوة العليا فى ميدان التنقيب ، وقد كتب بعد ذلك يقول انه كان يفكر فى مصر القديمة باعتبارها ملكية شخصية له ، واقطاعية موروثة سيسلمها لسلالته ، وتوجه إلى كل مكان ومعه زوجته وابنه الأكبر أوجوست - الذى كانت لعبه هى التماثيل الصغيرة والتعاويذ من المقابر القديمة ، والذى كان يشير إلى تماثيل طيبة الكبيرة باعتبارها «عرائس بابا الكبيرة» .

غير أنه كان هناك خطر دائم على مركز مرييت ، فلم يكن سعيد باشا ليعبأ كثيرا بالتماثيل الحجرية الأثرية . وكان ديليسيبس والأمير نابليون قد أقنعاه بانشاء مصلحة الآثار ، لكنه يمكن أن يغير رأيه فى أى وقت . وكانت الأموال التى تبقى مرييت فى العمل منحة يقدمها الباشا بناء على طلب ويمكن فى أى وقت أن تسحب ، والمجموعة

- التى كانت تزيد ببطء - يمكن أن تعطى ارضاء لنزوة أى ضيف كبير . ولكن إذا لم يكن الوالى حساسا لاحتياجات المعرفة فان من الممكن أن تستثيره الاكتشافات إذا شملت ذهبا وجواهر . وكان مرييت تحت ضغط مستمر لانتاجها ، ولم يكن ليتردد فى استخدام الديناميت للاسراع بالعمل .

وفى فبراير ١٨٥٩ سمع مرييت من وكيله عن اكتشاف تابوت غير عادى الثراء . كان التابوت محلى بالذهب ، وعليه كتابات تحدد أنه تابوت الملكة آ-حوتب . ومن المؤسف أن الحاكم المحلى كان قد نبش التابوت واستولى على كمية من الذهب والمجوهرات كان يعتزم ارسالها هدية إلى الوالى لتعزيز مكانته . وعندما سمع مرييت بالنبأ أسرع فاستقل «سمنود» وانطلق فى النيل ليعترض قارب الحاكم . ويصف أحد شهود العيان لقاء السفينتين على النحو التالى :

> رأينا السفينة التى تحوى الكنز وهى تتجه إلى ناحيتنا . وفى نصف ساعة كانت الباخرتان متحاذيتان . وأعقبت ذلك مناقشة حادة . وحين رأى مرييت أنه لن يصل إلى شئ ونفد صبره ازاء عنادهم استخدم الأساليب الوحيدة المعترف هنا بفاعليتها : فوجه عدة لكمات عنيفة ، وقال انه سيلقى رجلا فى النهر ، ويطلق النار على رأس رجل آخر ، ويرسل ثالثا إلى السجن ، ويشنق رابعا ، ويعامل الجميع بالطريقة نفسها . وبفضل هذا كله وافقوا على نقل كل الآثار إلى سفينتنا مقابل إيصال .

وتمكن مرييت من كسب عرفان الوالى باهدائه صندوقا من المجوهرات الرائعة ليتحلى بها هو وزوجاته ، وأتخذ هذا الشكر شكل بناء متحف وطنى جديد .

كانت مجموعة بولاق جديرة بمكان أفضل . وكان چورچ هوسكينز الرحالة الانجليزى قد زار القاهرة فى عام ١٨٣٣ ، وتوجه إلى هناك ثانية فى عام ١٨٦٠ وكتب يقول : «ان متحف الآثار المصرية التى جمعها السنيور مارتينى والذى أصبح الآن مرتبا للغاية يستحق الزيارة حقا» . غير أن قليلين فى ميدان علم المصريات ، سواء فى انجلترا وفرنسا ، هم الذين أسعدهم هذا . فقد كان يبدو أمرا شاذا أن يخامر حاكم مصرى طموح التمسك بالكنوز التى تكشف عنها الجهود الأوروبية ؛ ولم يكن المتحف البريطانى ولا اللوفر يعتقد أن من الأفضل أن تودع فى القاهرة النائية - حتى ولو كان

بطريقة مناسبة - كنوز ينبغى أن تحظى بتقدير العالم بأسره .

وفى هذا الوقت كان كل من الفرنسيين والبريطانين يغازل سعيد باشا ، وكان هو حريصا على أن يوازن أفضاله فيما بينهم ، كان قد منح صديقه القديم ديليسيبس امتياز شق قناة السويس - وان كان لورد بالمرستون قد نجح فى تأجيل تصديق الباب العالى عليه سنتين ، ومن الناحية الأخرى وافق أن يدع البريطانيين يقيمون شركة التلغراف الشرقية وبنكا . وكان البلدان يقدمان قروضا لسعيد ، ووجه كل منهما دعوة له للقيام بزيارة رسمية . وبدا أن فرنسا قد حققت تقدما فى النزاع الدبلوماسى حين بعث الامبراطور بدعوة خطية للباشا سلمها له مرييت . وبلغ من انفعال سعيد بهذا الشرف أنه قبل الرسول بحرارة ، وعرض أن يحقق له أعز أمانيه ، ورد مرييت بأن كل ما يريده هو انهاء بناء متحفه الجديد . وأعطيت الأوامر بذلك .

وكان مرييت فى معية الباشا عند زيارته لباريس فى عام ١٨٦٥ ، وشعر بقدر من السرور إذ يستقبل فى الأماكن الراقية ، وان شاب ذلك اجباره على اصطحاب سعيد - للحفاظ على التوازن الدبلوماسى - فى امتداد لزيارته الرسمية فى لندن .

وعاد الفريق عن طريق بولونى ، مسقط رأس مرييت ، حيث أسعدت الاحتفالات الباشا إلى حد دفعه لأن ينعم على مرييت بلقب البكوية ويمنحه معاشا ، كما صرح علنا بأنه مسئول شخصيا عن تعليم أولاد مرييت . لقد أصبح المستقبل مؤمنا فى النهاية .

غير أن سعيد باشا توفى فجأة بعد ستة أشهر ، وتعرض عمل مرييت باشا فى مصر للخطر ثانية . ولم يبد اسماعيل باشا - الذى حل محل سعيد - اهتماما بعمل مصلحة الآثار ، وقد اشتهر باحتياجه إلى كل الأموال لتغطية اسرافه . غير أن اسماعيل بدوره كان حريصا على التحديث وعلى اقامة علاقات طيبة مع الدول الأوروبية ، وهكذا أخبر مرييت أن شيئا لن يتغير - وستوفر الأموال لسير مصلحة الآثار ، ويستمر العمل فى بناء المتحف الجديد .

وكان الاشراف على أعمال البناء يشغل وقت مرييت طيلة بقية العام . أما القليل من الوقت الذى يبقى له فكان ينفقه فى الطواف بكبار الضيوف حول الحفائر . وكان من هؤلاء الأمير نابليون - الذى حقق فى النهاية أمله فى أن يرى الاكتشافات العظيمة التى قام بها مواطنوه فى وادى النيل . ولما كان الجو حارا متعبا فان الأمير لم ير الا

القليل ، إذ كان يقضى كل وقته فى كابينته الفاخرة على ظهر السفينة «المنشية» ، ولم يخرج الا فى فيلة حيث أثار حنقه ما علمه من أن أحد السياح قد أتلف النقش الفرنسى الذى وضعه الجنرال ديزيه ، وأمر الأمير بأن تحفر الكلمات مرة أخرى ، وأضاف لها تعليقا شخصيا يقول «ان أحداً لا يلوث صفحة من صفحات التاريخ» .

وحين اكتمل المتحف فى النهاية فى اكتوبر ١٨٦٣ كان واحدا من أجمل مبانى القاهرة . وكتب فريدريك دى سويس عضو الأكاديمة تقريرا عن زياراته له لصحيفة «ريڤو آركيولوچيك» :

> فناءان مرتبطان على ضفة النيل ، تصل بينهما بوابة مشغولة بالحديد ، الأول ملئ بالأشجار الجميلة ، ويضم المنطقة السكنية بما فيها مسكن مرييت بك نفسه . وهناك يتجول غزال رشيق ، يسمى «فينيت» باحثا بحماس عن أعقاب السيجار التى يعشقها ، ويعض القرود الصغيرة الجميلة تتقافز فى صحبته . والفناء الثانى جزء متكامل بالفعل من المتحف ، لأنه يحوى تمثالين كبيرين لأبى الهول من الكرنك وثلاث توابيت رائعة من البازلت .

وكانت هناك بعض الصعوبة فى اقناع اسماعيل باعلان افتتاح المبنى . واستراب مرييت فى مؤامرات أعدائه فى القاهرة ، لكن الباشا كان دائما فاترا فى حماسه للمكان ، لأن المومياءات - أيا كانت قيمتها التاريخية - ليست فى نهاية الأمر سوى جثث ، ولم يكن هو يحس بالراحة فى حضور الموت . وأخيرا افتتح الباشا المتحف فى ١٦ اكتوبر ١٨٦٣ ، لكنه حرص على ألا يجتاز العتبة ، وأصبح من عاداته أن يصحب كبار الضيوف حتى البوابات ثم ينتظرهم فى الفناء بينما مرييت يطوف بهم أنحاء المبنى .

وفى عام ١٨٦٧ نظم المعرض الدولى فى باريس ، وكان الجناح المصرى فى أيدى مرييت . وحقق الجناح انتصارا ، وازدحم المعبد المصرى بالزوار ، الذين جاء كثير منهم - كما كتب أحد النقاد - بدافع الفضول فحسب ، لكنهم غادروه باحساس بالاعجاب بالحضارة التى أنتجت هذه الآثار الرائعة المعروضة . وحصل مرييت على وسام النسر الأحمر البروسى من الدرجة الثانية واللچيون دونير برتبة كوماندور .

غير أن روعة العرض أحدثت تحولا فى مصير مرييت ، فقد انبهرت الامبراطورة أوچينى بعرض المجوهرات ، وألحت لاسماعيل أنه سيسرها أن تتلقاها هدية . واذ أخذ الباشا على غرة لم يكن يستطيع الا أن يرد بأنه يسعده أن يلبى رغباتها ، لكنه أضاف «هناك رجل أقوى منى فى بولاق ويجب أن تتقدمى إليه بطلبك» ، وعهد إلى مدام مورنو - أخت الامبراطور فى الرضاعة - بمهمة الحصول على موافقة مرييت ، وقدمت طلبها بعبارات محددة لا تسمح له بأن يدعى عدم الفهم ، وعرضت عليه مقابلها ادارة المطبعة الامبراطورية أو المكتبة الامبراطورية أو مقعد فى مجلس الشيوخ أو مكانا بين الباحثين الذين عهد إليهم بتقديم مواد لكتاب الامبراطور «حياة قيصر» . ورفض مرييت موضحا لمدام كورنو أنه وان كان يود من كل قلبه أن يرى أجمل آثار مصر فى أمان فى فرنسا فانه مكلف بابقائها فى أرض مصر ، وحمايتها من كل مطالبات أجنبية حتى من مواطنيه ، ولو أنه سمح بمطالبات فرنسا اليوم فكيف يستطيع أن يعارض مطالبات انجلترا غدا ثم ألمانيا والنمسا؟

كان هذا قرارا شجاعا ، خاصة لأن مرييت كان يعرف أنه سيكسب له أعداء فى فرنسا ، دون أن يكسبه احترام اسماعيل ، الذى كان كأسلافه يعتقد أن الفضيلة الرئيسية لكنوز مصر هى قدرتها على شراء صداقة الأجانب . وبدأت مصلحة الآثار التى كانت تقوم على اقتراحات مختلفة - تفقد الحظوة ، ووجد مرييت أن العمال الذين جندهم أمروا بالابتعاد عن الحفائر ليعملوا فى قناة السويس ، بل لقد خسر استخدام باخرته ، التى حولت إلى مهام أخرى ، ولم تعد الا حين هدد بالاستقالة .

وروج أعداء مرييت فى القاهرة شائعات عن أنه متواطئ مع الامبراطور لوضع مصر تحت السيطرة الفرنسية ، وأن لتودده لاسماعيل باشا دافعا سياسيا خبيثا . وانتهز من كانوا يحسدون مرييت على نفوذه ، أو من فقدوا دخلهم نتيجة إنفاذه للحظر على تجارة الآثار ، كل فرصة للتقليل من شأنه . ويسّر عجزه عن ادارة الأموال الايحاء بأنه يسئ استخدام أموال الحكومة . وقد كان دائما أعزلا أمام مراقبى الحسابات . وقد كتب لأحد أصدقائه فى ذلك الحين يقول :

> وكلما كبرت فى السن ، تحولت إلى فيلسوف مع ابيضاض لحيتى . وفيما مضى اعتدت أن تمر بى فترات من اليأس الأسود يعقبها غضب أسود . أما الآن فأنا أتصور الحياة رحلة فى قارب تقطعها فترات من دوار البحر . وحين يكون الجو صحوا أصعد

إلى سطح القارب لأستنشق نسيم البحر ! وحين يكون سيئا
أذعن وأتوجه إلى السرير وأتقيأ . . .

ورغم أن شق قناة السويس كان يحرم مرييت مؤقتا من امدادات العمل فقد تحول إلى مناسبة لصالح مرييت مع اسماعيل باشا . فقد كان مفروضا أن يكون افتتاح القناة مهرجانا دوليا ، يدعى إليه الملوك والعلماء من العالم المتحضر . وكان الباب العالى قد رفع اسماعيل إلى مرتبة الخديوى ، وكان هذا عازما على أن يستغل أمجاد مصر القديمة لاجتذاب نبلاء أوروبا إلى القاهرة ، بما يزيد من رفع مكانته لدى السلطان . وكان اسماعيل بحاجة إلى مرييت فى هذا الأمر . وفجأة قدمت الأموال لأعمال الحفر والمطبوعات ، وأعطى مرييت المسئولية المنفردة عن برنامج جولات الضيوف ى مصر العليا ، وحتى الأموال لنشر دليل لارشادهم .

وكانت الاحتفالات باهرة : فقد افتتحت الامبراطورة أوچينى القناة فى اليخت الملكى «إيجل» فى ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ ، ثم أبحرت من بورسعيد إلى السويس فى أربعة أيام تتبعها ثمان وستون سفينة من مختلف الجنسيات . وطيلة شهرين استضاف الخديوى زواره البارزين بسخاء ، ثم أرسلوا بعد ذلك لمرييت لتنظيم جولات بين المعابد . وكتب مرييت لابنه يقول «عدت لتوى من جولة فى مصر العليا والسويس وسقارة ، بصحبة كثير من الامبراطورات والأباطرة والأمراء والوزراء حتى لم أعد أعرف أين أنا . فالوقائع مشوشة فى ذهنى ، وقدماى لم تعودا تحملانى . . . .» .

لكنه نال مكافأته ، فقد كانت الامبراطورة أوچينى ساحرة لطيفة ، بعد أن غفرت له رفضه اعطاءها المجوهرات ، ومنحه الخديوى الوسام المجيدى برتبة قائد ، وأعلن أنه سيتلقى ٤٥٠٠ فرنك سنويا لرعاية أولاده الثلاثة ، ومبلغا اجماليا قدره ١٠٠٠٠٠ فرنك يوزع بين ابنتيه الأكبر . لقد جاء الزمان الصحو - ان لم نقل المشرق - فى حياة مرييت .

وكلف الخديوى حينئذ مرييت بوضع قصة لأوبرا تعرض للمرة الأولى على مسرح فى القاهرة بني للاحتفال بافتتاح قناة السويس ، علي أن يتم الاتصال بأشهر وأغلى المؤلفين الموسيقين ، ڤيردى أولا ثم اذا لم ينجحوا جرنر ثم ڤاجنر . وعاد هذا بمرييت إلى (لغوصاته) الأولى فى التصميم المسرحى والروايات الرومانسية ، ثم خرج بالفكرة الأساسية لأوبرا «عايدة» ، وقبل ڤيردى الملخص .

وطيلة نحو عام انهمك مرييت فى الأوبرا . وتوجه إلى فيلة ليضع رسوما للمبانى يجعلها أساسا لتصميماته للمشاهد ، ونسخ تفاصيل الملابس والأسلحة من فوق جدران المعبد والمقابر والتماثيل . ورحل إلى باريس برسوماته ليتحقق من أن تجميع المشاهد والأزياء حقيقى صادق ، ووجد أن المحترفين قد تولوا الأمر ، فقد أعاد كاميل دولوكل صياغة قصته الأصلية ، وترجمت إلى الايطالية بناء على اصرار ڤيردى ، مع اجراء تعديلات فى كل مرحلة . وكانت المشاهد والأزياء فى أيدى المصممين المسرحيين الذين لم يرحبوا بتدخل مرييت ، وكانت لدى ڤيردى أفكار قاطعة عن الموسيقى لم تكن لتثنيه عنها أى أفكار عن الأصالة . وترك مرييت المشاهد والملابس فى باريس ، التى وقعت فى براثن الحرب الفرنسية - البروسية التى بدأت فى يوليو ١٨٧٠ حين حوصرت المدينة .

وكان أول عرض لأوبرا «عايدة» - التى عرضت أخيرا فى عيد الميلاد فى ١٨٧١ - مناسبة رائعة شارك مرييت فى أمجادها . وكانت بداية العقد الأخير فى حياته ذروة رفيعة ، أخذ ينحدر منها نتيجة سوء الصحة ، وفقد أطفاله ، والصراعات لمنع مصلحة الآثار من أن تقع ضحية لتبذير الخديوى . كانت شهرة مرييت قد ذاعت فى الخارج ، وكان كبار الرحالة والعاملون فى مجال المصريات يزورونه دائما فى متحف بولاق . وقد زاره الڤيكونت دى ڤوج - الدبلوماسى والمؤلف - فى عام ١٨٧٢ :

> رجل طويل القامة عريض البنيان ، مسن وليس عجوزا ، رياضى منحوت بخشونة من الصخر كتلك الأعمدة الضخمة التى يشرف عليها . وعلى وجهه الملون تعبير حالم ملتبس . . . . ومن السهل أن تتصوره باشا تركيا . وحين يعبر زائر الحديقة يقطب هذا المالك فى استعلاء وضيق ، ويتابع المتطفل بعين غيور كعين العاشق حين يرى غريبا يدخل دار محبوبته ، أو الكاهن حين يرى كافرا يدخل المعبد .

وبلغ من غيرة مرييت على المصلحة والمتحف اللذين أقامهما أنه حين توفى دى روچيه فجأة فى ديسمبر ١٨٧٢ ، وعرض عليه أخيرا منصب أمين اللوڤر ، فقد رفض المنصب . وإلى جانب هذا العرض جاءته أنباء عن مقاعد شاغرة فى أكاديمية الآداب وكوليج دى فرانس ، فضلا عن عرض باجازة مفتوحة تتيح له أن يجرى الترتيبات اللازمة فى بولاق قبل أن يشغل أيا من هذه المناصب . غير أن مرييت كان يعتقد أن

«الترتيبات اللازمة» فى بولاق تستلزم استمرار وجوده ، لا للحفاظ على المصلحة التى أسسها فحسب وإنما - وهو أمر يعادله فى الأهمية - لمنعها من أن تسقط تحت سيطرة دولة أخرى . وقد رد على العرض القادم من باريس قائلا :

> فهل تسمحون الآن أن يمثل علم المصريات - الذى مثله فى مصر حتى الآن فرنسى - رجل ألمانى ؟ اننا الآن نصارع بشدة فى مصر ضد النفوذ الألمانى الذى يفرض نفسه فى كثير من الاتجاهات ، فهل تعتقدون حقا أننى ينبغى أن أكون الوسيلة التى يتمكن بها الألمان من الاستحواذ على واحد من أكثر المراكز التى يرغبونها فى مصر؟

وبقى مرييت ليبقى الآثار المصرية في البلاد ، وتحت السيطرة الفرنسية ، بل لقد أقنع الخديوى بألا يرسل كنوز متحف بولاق إلى فيينا لمعرض عام ١٨٧٣ ، على أساس أنه إذا استرعى أى منها أنظار امبراطور النمسا فسيجد اسماعيل منَ الصعب عليه رفض الطلب الامبراطورى .

وحين قدم القنصل الأمريكى العام طلبا رسميا بالسماح له بتصدير مسلة ، وحول الطلب إلى مرييت للنظر فيه ، أوضح رده أن شيئا لم يثنه منذ رفض طلب الامبراطورة أوچينى :

> هناك متحفان فى مصر : أحدهما هو متحف بولاق ، والآخر هو مصر بأسرها ، التى تمثل بكل خرائبها المنتشرة على كلتا ضفتى النيل من الدلتا حتى الشلال أجمل متحف فى العالم بأسره . . . . فلماذا نقلل من أهمية هذا المتحف الثانى الذى يأتى العالم كله - كل شتاء - لتأمله؟ ان هناك مبدأ عاما ساريا فى كل المتاحف ، هو أن المتحف يمكن أن يتلقى لكنه يجب الا يعطى . فماذا لو طلبت مصر ڤينوس ميلو من اللوفر أو حجر رشيد من لندن أو أى أثر من مجموعة آبوت فى نيويورك . أن أحدا لن يعطيها هذه الهدية ، فلماذا تعامل مصر بطريقة تختلف عن المتاحف الأخرى؟

وحين انزلقت مصر فى الفوضى المالية كافح مرييت بشدة من أجل بقاء متحف

بولاق ومصلحة الآثار . وأجريت أول سلسلة من لجان التحقيق فى وضع البلاد المالى بالاشتراك بين بريطانيا وفرنسا فى عام ١٨٧٥ . وبعد عامين نفذ نظام الرقابة المزدوجة حيث يشرف مسئول بريطانى على ايرادات البلاد ومسئول فرنسى على مصروفاتها . وأدى رفض اسماعيل السماح بالتدخل المباشر إلى تنظيمه تمردا عسكريا فى القاهرة ، ولجأت الدول الأوروبية إلى سادته الأتراك طالبة العون . وفى ٢٦ يونيو ١٨٧٩ تلقى اسماعيل برقية من السلطان تخاطبه باسم خديوى مصر السابق . وعين ابنه توفيق خلفا له .

وفجأة طلب من مرييت والمتحف مراعاة ميزانية ومسك حسابات . وفى حين أن الأموال المتاحة قد خفضت فقد كانت على الأقل تدفع بانتظام ، وفى شكل جنيهات حقيقية لا تعهدات كتابية . وظل مرييت قادرا على استخدام قاربه «المنشية» . وهبط العمل فى الحفر ، وأدى سوء صحة مرييت إلى صعوبة قيامه بالاشراف . وقد قضى شهوره الأخيرة يعيد تنظيم المتحف ، ويحاول أن يتأكد من أن نفوذ فرنسا فى مجال علم المصريات لن يأفل بوفاته . وبدا من المؤكد أن من سيحل محله هو هنرى بروج صديقه الحميم وزميله ، ومن ثم وافق مرييت على مضض على وضع مخطط لبعثة آثار فرنسية فى مصر ، تضم علماء المصريات والمستعربين ، للحفاظ على النفوذ الفرنسى فى الميدان بفرض منصب المدير الحاسم من فرنسا . ووصلت البعثة إلى القاهرة فى أوائل يناير ١٨٨١ .

وتوفى مرييت فى ١٨ يناير ١٨٨١ . وأقيمت له جنازة رسمية ، ودفن فى حديقة متحف بولاق ، عند الباب الأمامى مباشرة . واذا كان المتحف قد أصبح أكبر وأشمل مجموعة للكنوز المصرية فى العالم فالفضل فى ذلك لمرييت . وحين نقل المتحف إلى موقع آخر حرصت الحكومة على أن تتبعه بقايا مرييت ، حيث ترقد الآن فى مقبرة من الجرانيت والرخام الأبيض ، وإلى جوارها تمثال برونزى نقشت عليه عبارة «إلى مرييت باشا ، من مصر العارفة بالجميل» .

الفصل السابع

الأركيولوجيا العاطفية

وخلال سنوات السيادة الفرنسية فى ميدان الحفائر فى وادى النيل ، وبينما أوجست مرييت - مدير مصلحة الآثار - يتأمل مجموعاته المتزايدة ، او يقود جولات ملكية حول الحفائر ، كان مؤسس المصريات البريطانية يقضى أيام عمله فى حجرة صغيرة فى الزاوية الجنوبية الغربية من رواق نينوى فى المتحف البريطانى .

ولم يكن الدكتور صمويل بيرس من ذوى المزاج العصبى ، غير إنه كان ينتابه ايمان بأنه- شأنه شأن علماء الآثار الرواد الذين يصارعون ضد شدة المناخ وقسوة التربة فى مصر - يعمل فى وضع من الخطر الدائم . ورغم هذا الشعور بعدم الأمان ، فقد كان يدير مجموعة واسعة من الآثار - مسجلا كلا منها بيده - ونشر أكثر من ٣٠٠ مؤلف ، وألقى كثيرا من المحاضرات عن علم المصريات ، وارتبط بمراسلات كثيرة مع علماء العالم كله فى ميدانه .

ولم يتلق صمويل بيرس تعليما أكثر من خمس سنوات فى مدرسة ميرشانت تايلور التى غادرها فى عام ١٨٣١ فى سن الثامنة عشرة . وهذا أمر يمكن أن يثير الدهشة لأن والده كان عالم رياضيات وباحثا كلاسيكيا اختير زميلا فى كلية سانت چون بأكسفورد قبل أن يقبل مناصب كهنوتية ، ولعل صمويل قد صرفه عن دراساته اهتمامه باللغة الصينية ، الذى بدأها فى سن مبكر ، وربما كان الأمل فى منصب فى الصين قد ثناه عن الذهاب إلى الجامعة .

واستخدم صمويل مهارته فى أول وظيفة له فى المتحف البريطانى ، واضعا

كتالوجات لمقتنياته من العملات الصينية . وكان يشغل ما يسمى حينئذ منصب مساعد فى ادارة الآثار ، تحت رئاسة ادوارد هوكينز . وكانت الادارة تحوى تقريبا كل المجموعات الاغريقية والرومانية أكثرها قيمة ، فلم تكن آثار مصر تعتبر بعد من الفنون الجميلة ، لكنها لم تكن من البدائية بحيث تعتبر من الاثنوغرافيا . وكانت المشكلة هى أن أحدا لم تكن لديه مهارات تحديدها وتصنيفها جيدا ، وقدر هوكينز أن يوجه طاقات بيرس الشاب فى هذا الاتجاه بالتحديد .

ووجد فيه هوكينز طالبا مستعدا ، وبحلول عام ١٨٣٨ بلغ من معرفة بيرس بالهيروغليفية أن وضع بحثا عن قطعة من تابوت أهداها إلى المتحف ڤايس وبيرنج ، بل وخطط لوضع قاموس للهيروغليفية . وظل فترة يشك فى صحة نظام شامبليون ، لكنه اقتنع بصحته بالتدريج بمواجهة أخطاء خصومه .

وكان أهم ما عمل فيه بيرس فى ذلك الوقت هو نشر أوراق البردى . وفى البداية كان أمناء المتحف قد أصروا على أن توضع كل البرديات - لأنها وثائق مخطوطة - فى ادارة المخطوطات رغم أن احدا هناك لم يكن يفهمها . ولما كان بيرس - فى ادارة الآثار - حريصا على أن يضع يده عليها فقد نقلت «البرديات الهيروغليفية والهيراطيقية والديموطيقية» . وكانت النتيجة مطبوعا جمعه بيرس وأشرف عليه ، ويمثل بداية كفاح استمر طيلة حياته لوضع النصوص الموضوعة فى رعاية المتحف تحت تصرف عالم الدارسين .

وأصبحت شهرة بيرس فى هذا العالم دولية راسخة . ورغم أنه لم يضع قدمه أبدا فى مصر فقد كان محررو الصحف العلمية يستشيرونه فى الأبحاث المتعلقة بالآركيولوجيا المصرية ، وكثر الطلب عليه لتقديم العون فى الترجمات واعداد المحاضرات وتصحيح المخطوطات ، وفى المقام الأول كان بيرس يتعرض بانتظام لازعاج تجار الآثار الباحثين عن تقدير صحيح لمقتنياتهم .

وفيما سبق كانت أفضل طريقة لضمان صحة قطعة آثار مصرية هى استخراجها ، ومولت المتاحف والملوك والحكومات والأفراد على السواء بعثات هدفها الوحيد هو تملك كنوز لا مطعن فى أصلها لأنها استخرجت من الأرض ، غير أنه بحلول منتصف القرن التاسع عشر كانت الحفائر قد انتشرت ، وكثير من الكنوز قد وجدت طريقها إلى السوق ، بحيث أصبحت أيسر طريقة لتملكها هى شراؤها من التجار . وتطلب هذا خبرة من نوع جديد غير خبرة المنقب الميدانى : فلم تكن الحاجة إلى الاكتشاف بل إلى

التمييز ، وكانت مهارات المزيفين حينئذ قد شحذت جيدا ، وعلى سبيل المثال كانت «الجعارين» تتبادل بالمئات فى الغرف الخلفية فى محلات الأقصر ، وقد موهت بمهارة بتغطيتها بطلاء مصنوع من مسحوق خرز مأخوذ من اكفان المومياءات ، ويضاف إليها فعل الزمن باطعامها للديوك الرومية التى يبدو أن أجهزتها الهضمية تؤثر على الوانها بنفس الطريقة التى يؤثر عليها دفنها ألفى عام فى التربة .

وبدا وكأن لدى بيرس غريزة اكتشاف المزيفات ، ربما لإنه تعرف طويلا على القطع الأصيلة قبل أن يغرق المزيفون السوق . وكان من الصعب منازعة آرائه ، وأصبحت مقبولة بشكل واسع باعتبارها مرجعا لدى كل من التجار والعملاء . وأصبحت الغرفة الصغيرة الخلفية فى رواق نينوى مصدر شهادات لا غنى عنها بالأصالة فى سوق آخذ فى الاتساع ، وكثيرا ما حوصر بيرس فيها .

وطلبت آراؤه كذلك فى مسألة تثير الكثير من الجدال العام ، فالشهرة التى حظيت بها الاكتشافات فى مصر قد اقترن بها اهتمام شديد من جانب أولئك المهتمين بابراز أو إيضاح الحقيقة المعصومة للكتاب المقدس ، فخلال النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت انتقادات الباحثين الألمان الذين شككوا فى دقة العهد القديم قد تسللت إلى انجلترا . ولم يكن لهذا أثر فى البداية ، من ناحية لأن جمهور المترددين على الكنيسة لم تكن تثيره حذلقة المثقفين الأجانب ، ومن ناحية أخرى بسبب عقيدة راسخة بأن الكتاب المقدس فوق مستوى النقد . وفى عام ١٨٣٠ دعا الدكتور توماس أرنولد إلى أنه يجب ألا تخلط العقيدة المسيحية «التى هى دليل حياتنا ومصدر راحتنا» «بكل مسائل العلم والتاريخ والنقد» . وأضاف أن الكتاب المقدس لا يمكن أن يفهم حق الفهم إذا اعتبرت «كل أجزائه متساوية فى حجيتها . . . وإذا اعتبر أنه كالقرآن قد وضع كله فى وقت واحد ووجه إلى أشخاص فى وضع متماثل» .

وبلغ القلق العام حدا دفع ايرل بريد چواتر إلى أن يوصى بمقدار كبير من المال فى عام ١٨٣٩ للجمعية الملكية لاجراء سلسلة من الأبحاث يكتبها خبراء فى اللاهوت والعلم تبين أن الدين المسيحى يتمشى مع اكتشافات العلم الجديدة . وكان من بين الباحثين الذين نشروا واحدا من «أبحاث بريد چواتر» الچيولوچى ويليم باكلاند ، الذى أعلن أن الكتاب المقدس لا يحوى «معلومات تاريخية عن كل عمليات الخالق» ، فعمر الأرض – كما تؤكده الچيولوچيا – والتطورات التى جرت فوقها ، تبين أن قصة الخلق فى سفر التكوين لا تتمشى مع اكتشافات العلم .

وشاركت دور النشر الدينية فى الضجة بانتاج كتيبات تدعو إلى ايجاد براهين آركيولوجية لدعم حجية العهد القديم . وفى خمسينات القرن التاسع عشر نشر ويليم أوسبورن - عضو معهد الآثار - ثلاثة كتب استشهد فيها بلوحات الجدران فى المقابر المصرية كدليل على أن الاسرائيلين قد عاشوا هناك حقا . واوضح كانون چورج رواالينسون - الذى شغل فيما بعد كرسى كامدن كأستاذ للتاريخ القديم فى جامعة اكسفورد ، والذى كتب مجلدين عن «تاريخ مصر القديم» - أن الدراسة التاريخية الحديثة جعلت من المستحيل معاملة حملات قيصر على نفس مستوى أعمال روملوس[1] ، مضيفا أن هذا لا ينطبق على سفر التكوين لأن من الواضح من الحوليات أن خمسة أجيال فقط قد انقضت بين آدم وموسى ومن ثم «فقد يكون موسى قد عرف تاريخ ابراهيم من التقاليد الشفاهية وحدها . وحتى الطوفان بالسماع عن ثلاثة أجيال وقصة الاغراء والسقوط بالعنعنة عن خمسة أجيال» ، وينتهى قائلا «فاسفار التوراة الخمسة ليست فحسب أكثر ما وصلنا من عروض عن العصور القديمة صدقا ، بل هى تاريخ صادق صدقا مطلقا وفى كل جانب» .

وفى العام نفسه صدر فى انجلترا الجزء الأخير من مؤلف من خمس مجلدات نازع حكم روالنسون اليقينى . ففى الكتاب العظيم «مكان مصر فى تاريخ العالم» بدأ بارون كريستيان بونسين - الذى كان نفوذه على الملك فريدريك هو الذى دفعه إلى ارسال ليبسيوس إلى مصر - يعيد بناء «تاريخ مصر الصحيح» ، و«يعيد إلى تاريخ العالم القديم الطاقة الحيوية التى حرم منها طويلا» . والمجلدات ضخمة ومشوشة ؛ وربما كانت قد مضت دون أن تترك أثرا لو لم تكن تتحدى صدق الكتاب المقدس وتاريخه . وسخر رجال الكنيسة من أفكار بونسين بالحرارة التى استقبلها بها غير المؤمنين . ولقيت هذه الأفكار مصداقية اضافية فى انجلترا بتأييد بيرس ، الذى لم يبخل بمشورته على الكاتب ، بل وكتب «قواعد وقاموس اللغة المصرية» الذى ظهر فى المجلد الخامس .

وسرعان ما اهتزت الكنيسة الراسخة بهجمات على مبادئها من الخارج باسم الداروينية ، ومن الداخل باسم التقدم . وفى عام ١٨٦٠ أثار نشر «أبحاث مراميات» وهو مجموعة من سبعة أبحاث تدعو إلى ضرورة التفكير الحر ، حتى فى العقائد الدينية - انقسام المسيحيين إلى معسكرين متعارضين بشدة . وأعربت الأبحاث عن

(١) مؤسس روما - التى أخذت اسمها منه - وأول ملوكها وكان مكروها من الارستقراطية ، وقيل انه اختفى أثناء عاصفة - المترجم .

الايمان بأن على الكنيسة الانجليزية أن تتوافق مع الأساليب النقدية التى استقرت منذ عهد طويل فى ألمانيا ، والتى تدرس نصوص الكتاب المقدس باستخدام آخر تقنيات التحليل الأدبى ، وعلى ضوء الاكتشافات الآركيولوجية .

ومع طرح مثل هذه المسائل لم يكن مما يثير الدهشة أن تستدير جماعة المؤمنين إلى مكان آخر بحثا عن الطمأنينة . كانت شواهد التاريخ القديم القوية تقف خرساء فى القاعات المصرية فى المتحف البريطانى ، وتيار من الزوار يطالب بيرس بأن يهدئ شكوكهم بأن يريهم العشرين قطعة من الفضة التى بيع بها يوسف كعبد رقيق ، أو مجموعة الكتب التى أشيع أنها بقيت فى فلك نوح . وإذ بدت تواريخ الاكتشافات فى مصر تهدد بصورة متزايدة تواريخ النسخة المعتمدة أصبح تاريخ الكتاب المقدس وسواسا ، وألحف المتطفلون على بيرس بشأن كل حدث سجله الكتاب المقدس .

ورقى بيرس إلى منصب أمين الآثار الشرقية فى عام ١٨٨٠ . وكان هذا هو أيضا العام الذى ظهرت فيه «أبحاث ومراجعات» عن الجدال الدائر فى اكسفورد حول نظريات داروين ، وبداية عقد دارت فيه المعركة بين العلم والدين فى انجلترا بعنف بالغ . ولم يكن غريبا أن يلجأ كل من الطرفين إلى بيرس ليرجح حججه . ولأن الكتاب المقدس يشير اشارات خاصة إلى مصر والتاريخ المصرى فان من يؤيدون قضية عصمة الكتاب المقدس كانوا يتطلعون إلى الحفائر لتأكيد ما هو مكتوب ، بينما يبحث خصومهم عن تفنيدها . وكان هناك كذلك ميل بين علماء المصريات (وقد صيغت الكلمة للمرة الأولى فى عام ١٨٥٩) إلى النظر إلى حضارة مصر القديمة باعتبارها ذروة فى التطور الانسانى ، أخذت البشرية تنحدر بعدها .

وجاءت وجهة نظر أخرى عن المصريين القدماء - أكثر استساغة لدى باحثى الكتاب المقدس - من مرؤوس لبيرس هو ريجينالد ستيوارت بول فى اسهامه فى «قاموس الكتاب المقدس» الشهير الذى أصدره سميث فى عام ١٨٦٣ :

> كان المصريون القدماء بطبيعتهم شديدى التدين والتأمل ، لكنهم غارقون فى الخرافة ، وطنيين ، يوقرون المرأة ، كرماء ، مقتصدين - وان مالوا أحيانا إلى الترف ، حساسين للغاية ، كذابين ميالين للسرقة ، مخادعين ، خانعين ، شديدى التعصب - بسبب اعتزازهم بعنصرهم - ضد الاجانب وان كانوا رحماء بهم .

ويستطرد بول قائلا ان ديانتهم كانت نوعا من الوثنية ، أقسى نوع من عبادة الطبيعة ، ولم يكن فى تنظيمهم الاجتماعى شيئا يمكن أن يتعلمه الاسرائيليون : «ففكرة أن القانون ابتداع مصرى من أسوأ أمثلة النقد المعاصر الطائش» .

ويبدو أن بيرس كان حذرا فى اسهامه فى النزاع ، فرغم أنه كان ابن قس ، فقد ظل كتوما بشأن ايمانه ، فسيخسر الكثير ان هو عارض الكنيسة صراحة . رغم أن آراء أكثر أعضائها رجعية لابد وأنها كانت تثير ضيقه . وفى نوفمبر ١٨٧٠ أخذ خطوة لابد وأنها طمأنت كل من كان لديهم شك فى ولائه بالدعوة مع بونامى - وكان عندئذ أمين متحف أسوان - إلى تأسيس جمعية الآثار الانجيلية . وأهدافها هى :

> . . . .دراسة الآركيولوجيا والجغرافيا والتاريخ القديم والحديث لآشور والجزيرة العربية ومصر وفلسطين وغيرها من أراضى الكتاب المقدس ، وتشجيعع دراسة آثار هذه البلدان ، والامساك بسجل مستمر للاكتشافات ، الآن وفى المستقبل .

وأصبح بيرس أول رئيس للجمعية . وضم مجلس الجمعية ستة من رجال الكهنوت ، وسيكون من نواب رئيسها فيما بعد جلادستون ولورد هالسبرى ودين ستانلى .

وحين كان بيرس يُسأل بالحاح عن معتقداته الدينية كان يكتفى بأن يقول «انى أؤمن بكل العلم وكل الدين» . وقد قام فى خطابه الرئاسى أمام الجمعية فى ٢١ مارس ١٨٧١ باستعراض ما تحقق من تقدم فى الميدان ، ملاحظا أن نطاقه هو نشر معارف الباحثين فى ميدان الآركيولوجيا الساميّة «لا بالنسبة لمواضيع الكتاب المقدس فحسب بل كذلك بالنسبة للتاريخ الأوسع لهذه الأمم العظيمة فى آسيا الوسطى التى لعبت دورا بالغ الأهمية فى تاريخ المدنية ، وشديدة الارتباط بتقاليد أوروبا الغربية وتاريخها» . وقد جاءت كل المعرفة السابقة بهذه الأمم من الكتابات المقدسة أو من الكتاب الاغريق القدامى ، لكن اكتشافات الآركيولوجيا ، وعلم اللغة بوجه خاص ، جعلت من الممكن «أن نرتقى إلى أبعد الأزمنة القديمة ، وندرس الآثار المعاصرة لهذه الأمم الكبرى» . ويبدو أن بيرس - بشئ من الحذر وبطريقة تثير الدهشة لدى أمين الآثار الشرقية - قد وقف إلى جانب الكتابات المقدسة ، فهو يقول ان من الممكن بعد فحص الآثار «أن نختبر ما تقدمه من معلومات بما هو معروف من صفحات الكتاب

المقدس والتأريخات الاغريقية والرومانية» .

وليس فى هذا ما يثير انزعاج الأساقفة المحافظين ، حتى حين استطرد بيرس ليقول ان تقدم الحفائر فى مصر بلغ حدا يصبح «من المستحيل بعده أن نوضح بصورة كافية تاريخ العهد القديم دون اشارة إلى آثار مصر المعاصرة» .

ولعل النقاد التأويليين - وكانت قوتهم تزيد فى البلاد - قد أحسوا ببعض الراحة حين لخص بيرس مقاصد الجمعية بالنسبة للآركيولوجيا الانجيلية : «ان نطاقها هو الآركيولوجيا لا اللاهوت ، لكنها ستكون عونا للاهوت» . فالجمعية لا ترمى إلى اثبات أو دحض الكتاب المقدس ، وتتناول أعمالها وموادها المنشورة مواضيع جغرافية ولغوية وآركيولوجية ، وبقدر من التفصيل لا يتوفر لأى من الجانبين .

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه فى انجلترا هذه الابحاث الهامة عن مصر القديمة كان الوجود البريطانى عند النيل ممثلا فى الرحالة والمقيمين المؤقتين غريبى الأطوار لا بمخيمات علماء الآركيولوجيا . وفى عام ١٨٦١ رحلت ليدى لوسى داف جوردون عبر النهر إلى طيبة ، ولاحظت أنه «أصبح مياها انجليزية ، هناك الآن تسعة قوارب راسية فيه ، والهدف الأكبر هو دراسة النيل» . واعتادت ليدى لوسى قضاء شتائها فى الأقصر ، حيث استأجرت «دار فرنسا» وكان سالت قد بناها فى عام ١٨١٥ ، واستخدمها بلزونى أثناء تنقيباته فى طيبة (وقد بنيت جزئيا فوق المعبد) ثم بيعت للفرنسيين فى عام ١٨٢٠ ، لكى يستخدمها فيما بعد شامبليون وروسولينى فى بعثتهما المشتركة . كانت مبانيها جيدة لكنها لا تكاد تكون فاخرة . وذكرت لوسى فى رسالة لها عام ١٨٦٧ أن نصف الدار قد انهار فى المعبد الواقع أسفلها . الا أنها أصبحت مركزا للسياح البريطانين ، وخاصة بعد أن نشرت رسائل لوسى فى بريطانيا فى عام ١٨٦٥ .

وكان هناك ضيوف كبار : فقد جاء ادوارد لير ليرسم اسكتشا للدار الفرنسية لحساب زوج لوسى ، وفى عام ١٨٦٩ زارها أمير وأميرة ويلز . ورغم أن مواهب لوسى كانت تكمن فى ملاحظة المشهد المعاصر ووصفه أكثر منها فى دراسة مصر القديمة فقد لعبت دورها الصغير فى توزيع الآثار : فقد كانت تشتريها كهدايا وترسلها إلى أسرتها .

وفى عام ١٨٧٠ كان هناك خط بحرى منتظم بين ايطاليا والاسكندرية . ولم تكن

الرحلة تستغرق الا ثلاثة أيام ونصف - وكانت القوارب الرومانية تستغرق ستة أيام . وفى ذلك العام سجل ٣٠٠ سائح أسماءهم فى قنصلية القاهرة ، ولعلهم قد جمعتهم رواية مارك توين «الأبرياء فى الخارج» التى ظهرت لتوها . وكان فندق شبرد مزدهرا فى القاهرة ، وينظم جولات منتظمة إلى الاهرام .

ومن بين السياح العابرين فى سبعينات القرن التاسع عشر شخصية قدر لها أن تكون أم علم المصريات البريطانى . كانت اميليا آن بلاندفورد ادواردز ابنة ضابط جيش عمل تحت امرة ويلنجتون فى حرب شبه الجزيرة ، ولديها موهبة مبكرة فى الكتابة ، فقد نشرت أول قصيدة لها وهى فى سن الثامنة . وكانت تنشر مقالات وقصصا قصيرة فى «ساترداى ريفيو» و«شامبرز چورنال» و«هاوسهولد وردز» و«ذى مورنينج بوست» و«ذى أكاديمى» بوفرة مكنتها - إلى جانب كتبها الرائجة فى التاريخ والفنون وحفنة من الروايات المبكرة - من أن ترحل فى يسر من حصيلة قلمها . وفى عام ١٨٧٣ بدأت اميليا جولة فى القارة ، لكن الجو أمطر فقررت أن تتجه جنوبا بحثا عن الشمس . ووصلت إلى مصر -كما سجلت فى كتابها «ثلاثة آلاف ميل على طول النيل» - بالصدفة البحتة :« . . . . والحقيقة أننا قد انسقنا بالصدفة ، دون مبرر من الحاجة أو العمل أو أى هدف جاد أيا كان ، فقد لجأنا إلى مصر كما قد يتحول المرء إلى (بواكى) بيرلنجتون أو ممر الباناروما - ليتفادى المطر» .

وسرعان ما أصبح اللجوء وسواسا . وفى البداية انغمست اميليا فى صيد الآثار : ففى سقارة وجدت الأرض مفروشة بشظايا الخزف وحجر الجير والرخام والرمال ، ونبشت الرمال بحثا عن الكنوز ، دون أن تجد بين الحين والآخر سوى رأس بلا أنف بين الانقاض والعظام المتآكلة : «ثم فجأة ، وفى صدمة لن تنساها الكاتبة بأي حال سريعا ، اكتشفنا فجأة أن هذه العظام المبعثرة عظام بشرية ، وأن هذه الخرق الكتانية هى خرق أكفان - وخلف الكتل الرمادية غريبة الشكل مزق مما كان ذات يوم لحما حيا !» .

وأدهشتها السرعة التى تغلبت بها على شعور الاشمئزاز ، وسرعان ما وجدت نفسها تنبش بين البقايا دون تبكيت كأى من نابشى القبور المحترفين . كانت شهوة صيد الآثار سريعة العدوى تماما مثل ما يصّحبها من خشونة ؛ وهى تسجل أن العاطفة السائدة بين الرحالة فى مصر فى ذلك الحين كانت هى صيد الصفقات بلا غضاضة .

ولو سئل معظم الرحالة فى مصر لأدلوا باعتراف مماثل ، فهم

> فى البداية يصدمون ، ويندددون فى رعب بكل نظام الحفر عن التوابيت ، القانونى منه وغير القانونى ، الا أنهم يكتسبون ميلا إلى التماثيل والأنصبة الجنائزية ، ويبدأون فى شراء أسلاب الموتى بحماس . وأخيرا ينسون كل تحرجاتهم السابقة ، ويغدو أفضل ما يطلبون هو أن يكتشفوا بأنفسهم مقبرة ويصادرونها .

وفى طيبة لم تكن هناك حاجة للنبش : فقد كان التجار يجلبون الكنوز إلى قارب اميليا ، أناس وقورون يرتدون عباءات سوداء طويلة ، ويخرجون من جيوب مستترة حزما من الجعارين أو من التماثيل الجنائزية . وكانت معظم المعروضات مزيفة ، لكن المنقبين والتجار والمزيفين كانوا يعملون معا . والمنقبون والتجار وحدهم هم الذين يعملون بصورة غير قانونية ، لأن الحظر القانونى للتنقيب والتجارة لم يكن ينطبق الا على الآثار الحقيقية ، أما المزيفون فلا يخشون إلا من ضيق السياح ان كشف أمرهم ، وكان الكشف فى أيام اميليا مسألة لا يستطيع القيام بها الا الخبراء .

كانت الحياة فى طيبة مليئة بالمفارقات : فهم ينفقون صباحهم فى دراسة جادة للمعابد ، وبعد الظهر فى اصطياد الكنوز المحظورة : «والحق أننى أستطيع أن أقول ان حياتنا هنا كانت سعيا طويلا إلى متع الصيد ، صحيح أن اللعبة محظورة ، ولكن عدم قانونيتها لم يكن يقلل من متعتنا بها ، بل ربما كان يزيدها» .

وكانت حفائر مرييت تجرى أثناء زيارة اميليا . وصدر أمر بأن ترسل كل صناديق المومياءات دون أن تفتح إلى متحف بولاق . وذات صباح سمعت اميليا أن مقبرة جديدة على وشك أن تفتح عبر النهر ، فقفزت إلى أحد القوارب لتشهد الاكتشاف . كانت المقبرة إلى جوار الرامسيوم ، وحين وصلت كان المحافظ يراقب بالفعل الحفارين فى الهوة وهم يزيحون الرمال عن صندوق مومياء نصف مدفون . ورأت اميليا التابوت وهو يكشف فى بطء ، وذراعاه معقودان على صدره ، وهو منقوش بالهيروغليفية . وسقط الغطاء . وفى الداخل كان صندوق صغير يرقد عند قدمى المومياء ، وسلم الصندوق إلى المحافظ الذى وضعه جانبا دون أن يفتحه . ورفعت المومياء إلى السطح :

> ان المرء ليشعر بنوع من الصدمة حين يراها فى البداية راقدة تماما كما تركها المشيعون ، ثم تجرها إلى الخارج أيد خشنة

لتفتش وتفرد وربما تحطم باعتبارها غير جديرة بأن تشغل ركنا فى مجموعة بولاق . وحالما تودع وتصنف فى أحد المتاحف يأتى الناس ليشاهدوها «كعينة» ، وينسون أنها كانت ذات يوم بشرية إلى حد يثير الدهشة ، راقدة فى أسى فى قاع مقبرتها تحت أشعة شمس الصباح .

ولم تكن اميليا نفسها تطمع فى حيازة احدى المومياءات ، ولكن كان هناك ما وصفته بأنه شغف متزايد بها بين رحالة النيل فى ذلك الحين . وكانت خمس عشرة مومياء قد هربت بنجاح عبر دار الجمارك فى الاسكندرية فى ذلك الشتاء .

ورغم أن اميليا أصابتها حمى الآثار بعد قليل من وصولها إلى مصر فقد أنهت جولتها بالتزام بالمحافظة عليها ، واعجاب بمتحف بولاق ومؤسسه . لقد أعجبت بمرييت ، وأبدت أسفها لأن الباشوات اللامبالين سمحوا بأن تنقل كنوز مصر إلى متاحف أوروبا وأمريكا . وكانت الثروات التى بقيت فى بولاق فى أغلبها تماثيل لأفراد وألواح جنائزية وتعاويذ وبقايا شخصية :

وهى بالضرورة أقل ثراء من تلك التماثيل الضخمة التى تملأ الرواقات الكبيرة فى المتحف البريطانى ومتحف تورينو واللوفر ، فهذه التماثيل - باعتبارها فوق الأرض وقليلة نسبيا فى العدد - قد استولى عليها منذ أمد طويل ونقلت إلى أوروبا ، أما تماثيل بولاق فهى نتاج المقابر .

وكان مرييت قد لاحظ فى الدليل الذى نشره للضيوف الذين جاءوا لافتتاح قناة السويس أن مقبرة تى قد عانت من التلف على أيدى السياح فى العشرة أعوام التى انقضت منذ اكتشافها أكثر مما عانت فى الستة آلاف عام السابقة ، ورجا قراءه أن «يمتنعوا عن الأسلوب الطفولى لكتابة أسمائهم على الآثار» . وتعترف اميليا بأنها نقشت اسمها داخل بوابة معبد أبى سمبل ، لكنها شعرت بالخزى لهذا الخطأ ، وأسفت لما سببته من ضرر :

وهذا هو مصير الآثار المصرية كبيرها وصغيرها ، فالسياح يحفرونها بأسماء وتواريخ وأحيانا برسوم كاريكاتيرية . وطلاب المصريات حين يأخذون نسخا بالورق المبلول يمتصون كل أثر

من آثار الألوان الأصلية . ويشترى «جامع الآثار» وينقل كل شئ
له قيمة يستطيع أن يحصل عليه ، والعرب يسرقون له . وفى
الوقت نفسه كانت أعمال التدمير تسير قدما . فما من أحد
يمنعها ، ما من أحد يردعها ، وفى كل يوم يشوه مزيد من النقوش
- وينبش مزيد من المقابر - ويلطخ مزيد من اللوحات
والتماثيل .

وكانت مصر ناضجة للدعوة ، ولدى اميليا ادواردز الحماس والاصرار وقوة الاحساس بالهدف لأداء هذا الدور . وعند عودتها إلى انجلترا فى عام ١٨٧٥ بدأت تراسل كبار الشخصيات فى ميدان المصريات ، لزيادة معرفتها فى الموضوع وتعزيز نفوذها على مستقبله فى آن واحد .

وتحوى ملفات المتحف الوطنى منذ ذلك الحين رسائلا منتظمة من اميميا إلى صمويل بيرس . ولم تحفظ ردود بيرس ، لكنها لابد كانت سريعة ومساعدة إلى حد شجع هذه المراسلات الممتدة . ولم تكن كل تساؤلاتها أكاديمية بل ألحت على بيرس فى طلب العون لتملك برديات تضيفها إلى المجموعة الصغيرة من القطع الفنية المنقولة التى هربتها من مصر .

وسرعان ما اتضح أن اميليا تريد أن تنقذ الآثار المصرية من أيدى مصطفى على ولى العهد ومن أيدى المتحف البريطانى ، فلا عجب أن تجد صمويل بيرس غير متحمس ، وذكر البعض أنه كان يقول الا وقت لديه «للآركيولوجيا العاطفية» - أى كل ما لا يكون هدفه هو جلب القطع للمتحف البريطانى . وحين كتبت له اميليا طالبة عونه فى انشاء صندوق الاستكشافات المصرى ، المفترض أنه سيحفظ الآثار المصرية فى وطنها ، رفض تأييدها :

لقد أخرت ردى بسبب الصعوبة الكبيرة التى أشعر بها حين
أوصى الجمهور بالاشتراك فى أعمال حفر ستكون النتائج التى
تخرج منها مملوكة للحكومة المصرية ، وتثرى متحف بولاق ،
ومن ثم لا أستطيع أن أوقع الورقة التى أرسلتها لى .

ولم يفت هذا فى عضد اميليا فمضت فى طريقها . واتخذت حليفا وثيقا لها - بل يقول البعض انه كان هو أبو المشروع - ريجينالد ستيوارت بول الذى أسهم فى

«قاموس الكتاب المقدس» باشراف سميث . وكان بول هو ابن عم ادوارد لين ، مؤلف «سلوك وعادات المصريين المحدثين» . وكان لين مسئولا إلى حد ما عن تعليم بول ، وقد أثار فيه اهتماما مبكرا بالآثار المصرية والعملات الشرقية . ولما كان قد وضع كتابا عن تاريخ مصر القديمة فقد عين فى ادارة الآثار فى المتحف البريطانى عام ١٨٥٢ وهو فى سن العشرين ، وفى عام ١٨٦٦ حين قسمت الادارة ، وتولى بيرس مسئولية الآثار الشرقية ، نقل بول إلى ادارة العملات والميداليات المنشأة حديثا ، وان استمر يكتب ويحاضر فى الجوانب الأوسع للتاريخ المصرى ، بما فى ذلك صلته بالأبحاث الانجيلية . وكان بول يفهم أن جاذبية الاركيولوجيا المصرية فى ذلك الوقت تكمن كلية فى قدرتها على القاء الضوء على مجالات النزاع فى الكتاب المقدس ، فلم تكن قد أثارت بعد خيال الجمهور ، أو أستقرت فى الدوائر الاكاديمية كتخصص فى حد ذاته .

وكتب بول واميليا لعدد من الأشخاص ذوى النفوذ ، سواء من العلميين أو من الكهنة . وكان أهم من حوله هو سير ايراسموس ويلسون - الجراح البارز الثرى . وكان سير ايراسموس قد أنفق مؤخرا ١٠٠٠٠ جنيه لتمويل نقل مسلة من الاسكندرية إلى لندن ، لتنصب على ضفاف التاميز . وتصادف أن قرأ «الف ميل على طول النيل» فسحره الكتاب ، وأسرع بعرض حماسه وأمواله تأييدا لاقتراح اميليا ان هو ساعد انجلترا على استعادة الأرض التى فقدتها أمام منافسيها الأوروبيين ، فكتب إلى اميليا يقول :

> كان لفرنسا وألمانيا دائما عاملون نشطون ومتحمسون فى الميدان ، ويتطلب طابع انجلترا العلمي أن تكون ممثلة تمثيلا جديرا بها ، ولعل من العبث أن نأمل أن ترسل حكومة هذه البلاد لجنة آثار ، مثل اللجنة المصرية فى فرنسا وألمانيا وايطاليا ، لترسل تقاريرها عن كنوز وادى النيل وتستكشفها ، لكن من المرغوب فيه بشدة أن يقوم المشروع الخاص بشئ يزكى هدفنا الرشيد وهو أن نشغل مكانا بين الدارسين وعلماء الآثار فى أوروبا .

وفى أول ابريل ١٨٨٢ ظهر اعلان فى الصحف الرئيسية بأن انجلترا قد خطت خطوة هامة فى سبيل اقرار نفسها كدولة رئيسية فى عمليات الاستكشاف فى مصر فى المستقبل : «يسرنا للغاية أن نعلن أن الجمعية التى طالما تقنا اليها لتشجيع أعمال الحفر فى وادى النيل قد تشكلت أخيرا وبرعاية كريمة» . وهدف الجمعية هو اجراء حفائر فى

دلتا النيل «حيث ترقد مختفية دون شك وثائق فترة مفقودة من تاريخ الكتاب المقدس - وثائق يمكن أن نأمل بثقة فى أن تزودنا بمفتاح سلسلة بأسرها من المشاكل المحيرة» .
وكان رعاة الجمعية فريقا مهيبا : أسقف كنتربرى فضلا عن عدد من الاساقفة ، وكبير الحاخامات ، ولورد كارنارفون رئيس جمعية الآثار ، وروبرت براونج وسير هنرى لايار المنقب فى نينوى ، وتوماس هكسلى . لقد سُخر حماس انجلترا ، ورتبت الأموال ، وبقى أن نرى مدى استعداد مصر لاستقبالها .

الفصل الثامن

سيـــاسة الآثـــار

كان عام ١٨٨٢ عام أزمة فى مصر ، أثر بوجه خاص على وضع الأوروبيين هناك . فخلال سنوات الاستيطان الأولى كانوا قد عاشوا هناك غرباء فى أرض أجنبية ، مترابطين فى أحياء مغلقة فى القاهرة والاسكندرية ، يعانون دائما من خطر فرض ضرائب خاصة ، ويتعرضون أحيانا للسلب ، غير أن اصلاحات محمد على ، التى أعقبتها سياسات سعيد باشا واسماعيل باشا لجعل مصر قطعة من أوروبا ، غيرت وضع الأوروبيين فى مصر من فئة مقهورة إلى فئة ذات امتيازات .

وكان الأوروبيون قد أخذوا يتصورون أنفسهم فوق قوانين البلاد ، وعلى سبيل المثال كانوا يدعون الحق فى الا تحاكمهم سوى المحاكم القنصلية ، ويعينون فى مناصب عليا فى الخدمة المدنية ، ويتباهون برقى أزيائهم وعاداتهم . وفى الوقت الذى كان فيه الرحالة الأوروبيون يتسلون بمحاولة العيش كالمصريين كان المصريون الذين ارتقوا إلى الدوائر الحكومية فى القاهرة يختالون فى ملابس أوروبية . ومنذ عام ١٨٤٦ كان ادوارد لين قد لاحظ ان الموظفين المصريين يرتدون «سترات طويلة وصديرا وسراويل ضيقة كسراويلنا» . كان هذه هو صدام الحضارات المألوف الذى حدث فى أواخر القرن التاسع عشر حينما استوردت التجارة والتكنولوجيا الأوروبية إلى بلدان أقل تقدما . وكما حدث فى كل مكان آخر فى العالم أثار هذا الصدام السخط فى مصر ، وفى النهاية المعارضة الصريحة .

وبدأت تحت قيادة ضابط جيش هو أحمد عرابى - الذى كان يسمى نفسه «المصرى» - حركة احتجاج ، فى البداية ضد محاباة الضباط الأتراك ، لكنها اتسعت

فى عام ١٨٨٢ لتصبح تمردا ضد الوضع المتميز لكل الأجانب فى مصر بما فيهم الأوروبيون . وكانت حكومة الخديوى أضعف من أن تقمع التمرد ، وحاولت بدلا من ذلك أن تتودد بترقية عرابى ، ثم تعيينه وكيلا لوزارة الحربية ، وأخيرا عضوا فى الوزارة .

ودارت مفاوضات عاجلة بين بريطانيا وفرنسا وتركيا ، ولكن كلا من هذه الدول كان لها موقف مختلف من الوضع ، وكانت تستريب فى الآخرين ، مما حال دون الاتفاق على عمل منسق . ورغم أن توفيق ظل اسميا مسيطرا على مصر فقد كان العصيان يتزايد فى الجيش ، وتحول عرابى إلى بطل وطنى ، وفى وقت ما لم تكن لديه أهداف واضحة أو محددة ، وإنما موقف عام مضاد للأوروبيين ، سرعان ما ترجمته الصحف إلى صيحة لبعث الاسلام ، ومصر للمصريين .

ولم يرد جلادستون التدخل فى البداية ، فلم تكن مصر فى نظر الرأى العام تستحق نفقات ومخاطر تدخل عسكرى ، كما كان من المحتم أن يثير التدخل عداء الفرنسيين . وصرح جلادستون بقوله «فى اعتقادى أن اليوم الذى سيشهد احتلالنا لمصر سيمثل وداعا لكل ود فى العلاقات السياسية بين انجلترا وفرنسا» . وقد كان على حق . غير أنه كان هناك رأسمال بريطانى مستثمر ، لا يريد المستثمرون أن يخسروه . وكان دزرائيلى قد أشرك الحكومة البريطانية فى الشؤون المصرية بشرائه لأسهم قناة السويس ، واذ تسربت إلى لندن انباء عن تهديدات للمواطنين البريطانيين فى القاهرة والاسكندرية أجبر جلادستون على التصرف وفى ٢٢ مايو أرسل أسطول البحر الأبيض بقيادة سير بوشامب سيمور ليرسو أمام الاسكندرية ، حيث انضمت إليه قطع من الاسطول الفرنسى .

ولم يكن الوضع غير مألوف لدى المصريين : فمنذ غزو بونابرت والدول الأوروبية ترسل بوارجها لترسو أمام الاسكندرية حيثما حدث اضطراب مدنى خطير فى مصر ، وكان وجودها يهدئ الأمور . أما هذه المرة فقد كانت تمثل تهديدا أجنبيا مرئيا ، مما بدا وكأنه يوحد ما أخذ يعتبر هبة وطنية .

وفى شوارع القاهرة والاسكندرية تعرض الأوروبيون للمضايقات والاهانة . وفى ١١ يونيو ١٨٨٢ حدثت اضطرابات فى ثلاثة أماكن فى وقت واحد ، وقتل خمسون أوروبيا وأصيب كثيرون غيرهم - ومن بينهم سير شارلز كوكسون القنصل البريطانى

- اصابات خطيرة .

وحدث خروج فزع ، وبحلول ١٧ يونيو كان ١٤٠٠٠ مسيحى قد هربوا من البلاد بينما ٦٠٠٠ آخرون ينتظرون السفن التى ستقلهم . وطالبت الحكومتان البريطانية والفرنسية السلطان بالتدخل ، وعقد على عجل مؤتمر فى الآستانة ، لكن السلطان لم يرسل ممثلا له ، وبدا غير مستعد لتأييد تدخل عسكرى . ثم سحب الفرنسيون تأييدهم ورفض الايطاليون المساعدة . وأخيرا صدر الأمر بقصف الاسكندرية وانزال قوة غزو دون حلفاء .

وانسحب عرابى إلى كفر الدوار على بعد بضعة أميال من الاسكندرية ، وأنزلت قوة من ٢٠٠٠٠ رجل ، وهزم المتمردون فى مرقعة كفر الدوار فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ . وتوجهت قوة من الفرسان إلى القاهرة ، التى احتلت دون مقاومة . ووجد البريطانيون - دون اطماع امبراطورية - انفسهم مسيطرين على مصر .

كان قد أصبح واضحا أن مركز التجمع فى مصر لن يحفظ الا اذا وضع تحت ادارة مفوض كفء ، وهكذا فقد وضعت مصر فى عام ١٨٧٧ - رغم معارضة الفرنسيين الذين طالبوا بانسحاب بريطانيا من البلاد أو على الاقل بتحديد موعد للانسحاب - تحت الاشراف غير الرسمى لموظف مدنى ذى كفاءة غير عادية هو سير ايفلنج بارنج .

وقد ولد بارنج لأسرة من كبار الماليين ، وربى تربية طفل طيب المحتد ، ووجه للسلك العسكرى ، وكضابط مدفعية شاب كان أول منصب له فى كورفو . وفى عام ١٨٧٢ قبل بارنج تعيينه سكرتيرا خاصا لابن عمه لورد نورثبروك ، الذى نصب نائبا للملك فى الهند . وهناك كسب له اجتهاده واستعداده لاعطاء الأوامر لقب «نائب نائب الملك» . وفى عام ١٨٧٧ أرسل إلى مصر مفوضا للدين العام أثناء عملية الرقابة المزدوجة . وحققت له مهارته شهرة محلية بحسن الادارة ، ومنصب عضو مالى فى حكومة الهند . وحين وجد البريطانيون أنفسهم يسيطرون على مصر بعد موقعة التل الكبير كان بارنج هو الاختيار الواضح . وفى اغسطس ١٨٨٣ أبحر إلى مصر بعد أن حصل على لقب فارس .

وكان لقب بارنج الرسمى هو الوكيل البريطانى والقنصل العام ، واختصاصه العام هو استعادة سلطة الخديوى ، ثم بعد توجهه لفترة فى الاتجاه الصحيح واصلاح

مالية البلاد ، ترتيب انسحاب القوات البريطانية من مصر . وفى الوقت نفسه كان من الضرورى حماية قناة السويس ، وابقاء الطريق إلى الشرق الأوسط مفتوحا .

وحقق بارنج أكبر انجازاته فى مصر فى مجال الرقابة المالية : فخفضت الضرائب ، والغيت الرسوم الباهظة - ومع ذلك فقد تحول العجز السنوى إلى فائض ، وانخفض أصل الدين العام . وألغى نظام السخرة أو العمل الاجبارى ، ورغم ذلك فقد نفذت مشاريع رى واسعة فى وادى النيل للزراعة . وكان بارنج مدفوعا فى كل ما فعله بتعزيز مصالح المصريين أكثر منه بالرغبة فى حماية مصالح حملة الاسهم البريطانيين فى مصر . وكان مما يثير ضيقه أن هذا الموقف كان أبعد من أن يكون مفهوما لدى المصريين . وكان مما يغيظه بوجه خاص أن يجد أن الفرنسيين - الذين لم يكونوا يعملون فى مصر من وجهة نظره الاعلى حماية مصالحهم - كانوا دائما محبوبين أكثر من البريطانيين ، فالمصريون - الذين سحرهم الفرنسيون - لم يتبينوا بعد «التفوق» الوطنى للبريطانيين . ويحلل بارنج فى مذكراته باستفاضة التناقض بين النفسية والحضارة الانجليزية والفرنسية ، مؤكدا على الدوام القيمة الراسخة للأولى أمام الجاذبية السطحية للثانية ، وتشهد المذكرات بالكثير عن الجدارة الاخلاقية الرفيعة للوكيل والقنصل البريطانى الذى استطاع - وهذه آراؤه - أن يدير ظهره للمتحف البريطانى ، ويساند مدير الآثار فى القاهرة ، الذى كان فرنسيا .

وحين جاء واليس بادج - أكثر الوكلاء الذين كلفهم المتحف البريطانى بزيادة مجموعاته عدوانية - بخطابات تقديم إلى بارنج قوبل - حسبما يقول - بعداء بارد وان يكن مهذبا . وأخبره سير ايفيلين بأنه لن يؤيد أى مشروع للتنقيب من أى وكيل لأمناء المتحف البريطانى - سواء كان يعمل لحسابهم أو لحساب شخص آخر : «ينبغى ألا يكون احتلال البريطانيين لمصر عذرا لاختلاس الآثار من البلاد ، سواء لانجلترا أو لأى مكان آخر» ، ثم صرف بادج بأدب ، وانما بحزم .

كان جاستون ماسبيرو - مدير الآثار الفرنسى فى مصر - قد تعلم فى باريس حيث خلبت الهيروغليفية لبه كتلميذ ؛ شأن الكثيرين من علماء المصريات المقبلين . وحقق من التقدم ما جعله - عند وفاة دى روجيه فى عام ١٨٤٧ - يتولى وهو فى سن الثامنة والعشرين منصب استاذ اللغة والآثار المصرية فى الكوليج دى فرانس بعد أن رفضه مرييت . وكان ماسبيرو يعتبر الآركيولوجيا مهنة رومانسية أكثر منها علمية ، إذ تسعى إلى أن تعيد رجال الماضى إلى الحياة . وكتب مرة يقول ان الروائى الالمانى

الشعبى وعالم المصريات چورچ ايبرز - الذى حققت مسرحيته الرومانسية «أميرة مصرية» نجاحا باهرا فى كل انحاء أوروبا - قد حقق لعلم المصريات أكثر مما حققته مذكرات ليبسيوس .

وانقطع طموح ماسبيرو إلى كتابة تاريخ نهائى لمصر نتيجة قرار الحكومة الفرنسية بافتتاح البعثة الآثرية الفرنسية فى القاهرة فى عام ١٨٨٠ ، وتعيينه رئيسا لها . وبعد أن حصل على الموافقة على المشروع وصل إلى القاهرة ومعه موظفوه مستعدا لاقامة المدرسة الجديدة . الا أنه اضطر عند وفاة مرييت إلى التخلى عنها ، لأنه لدهشته عين مديرا مكان مرييت .

كانت الأموال قليلة وعدد العاملين محدودا . وبدا أن ماسبيرو قد اتخذ موقفا مسترخيا ، فكان يستقل سفينته المسطحة «المنشية» - وكان محركها من القدم بحيث يستحق على حد قوله مكانا فى متحف الفنون والحرف . واعتاد ماسبيرو أن يدع الزورق يبحر عكس التيار حتى أسوان فى كل ديسمبر ، ثم يترك نفسه للتيار عائدا . وأتاح له هذا ميزة زيارة وتفتيش المواقع الثانوية التى لم يكن ليتوقف عندها لولا نزوات الرياح والتيار ، والتى كان يمكن لولا ذلك ألا يلحظها أحد . وكان يعود كل ربيع بشحنة من الآثار للمتحف ، ثم يغادره ليقضى شهور الصيف فى باريس ، ليعود إلى أداء مهام وظيفته فى الخريف .

وفى صيف عام ١٨٨١ تم أكثر الاكتشافات اثارة فى كل حياة ماسبيرو كمدير . كان قد تلقى أنباء بأن عددا من الشارات الملكية تطرح للبيع فى الأقصر . وكانت تظهر بغير انتظام وعلى فترات طويلة ، مما قد يبين أن شخصا ما لديه خبيئة منها ، وأنه يطرح قطعا مفردة منها للتداول فى السوق حتى لا يثير الشكوك وليحافظ على سعرها . وأرسل مساعده اميل بروج - متنكرا فى زى سائح ثرى - للتحقيق . وقبل فترة طويلة عرض على بروج تمثال صغير تبين أنه أصلى ، ومن مقبرة ملكية للأسرة الحادية والعشرين . ودفع بروج ثمنه وطلب المزيد ، فاصطحبوه إلى منزل عبد الرسول وأروه مجموعة من القطع الجنائزية من مقابر الاسرتين التاسعة عشر والعشرين . وطلب بروج القبض على عبد الرسول وأخذه إلى المدير المحلى للتحقيق . وهنا جاء سيل شهادات من القرويين وأفراد أسرته وحتى صغار الموظفين تشهد له بالأمانة والاستقامة اللتين لا يشوبهما شئ . وعذب عبد الرسول وأخوته ، لكنهم لم يغيروا أقوالهم ، وأغلق التحقيق . الا أنه بعد ذلك بقليل كشف أحد الأخوة أن أسرة عبد الرسول على

صلة بالوكيل القنصلى لبريطانيا وبلجيكا وروسيا ، ويدعى مصطفى أغا عياط ، وأنهم يقومون بتسويق ما يعثرون عليه تحت حمايته . ومقابل الحصانة و ٥٠٠ جنيه عرض مصطفى أن يرى المقبرة لبروج .

وتوجهوا إلى الدير البحرى ، وتسلقوا تلا شديد الانحدار ، إلى أن وصلوا على ارتفاع ١٨٠ قدم إلى فتحة بين الصخور تقود إلى بئر على عمق خمسة وثلاثين قدما . وأدلى بروج بحبل إلى القاع حيث وجد ممرا بطول ١٥٠ مترا فى الجبل ، وفى نهايته غرفة دفن كبيرة وعجائب تتجاوز خياله . ويقول تقرير ماسبيرو الرسمى :

> وحيث توقعت أن أجد ملكا صغيرا أو أثنين كان العرب قد كشفوا قبوا بأسره من الفراعنة . وأى فراعنة ! العلهم أبرز فراعنة التاريخ المصرى ، تحتمس الثالث وسيتى الأول وأحمس المحرر ورمسيس الثانى الفاتح . وظن اميل بروج حين وجد نفسه فجأة أمام كل هذه المجموعة انه وقع ضحية حلم . وانى مازلت أتساءل مثله عما اذا لم أكن أحلم حين أرى والمس ما كان ذات يوم أجساد كل هذه الشخصيات الشهيرة التى لم نكن نتوقع أن نعرف أكثر من أسمائها .

وقد تمكن ماسبيرو من أن يرى الفراعنة ويلمسهم لأن بروج ومساعديه استخدموا ٣٠٠ عربى ليشحنوا أربعين ملكا رغيرهم من كبار الشخصيات فى القارب البخارى العجوز ويتجهون شمالا . وفى أعقابهم حشد من النساء النائحات والرجال يطلقون الأعيرة النارية تكريما - كما قيل - للماضى الذى كان - أو لعلهم كانوا يندبون الثروات التى ضاعت منهم .

وساند ماسبيرو اميليا ادواردز فى اقامة صندوق استكشاف مصر : فقد كان على استعداد دائما لكى يصادق أى منظمة قد تساعد فى الحفائر . دون أن تختطف ما تكتشفه . وفى ابريل ١٨٨٢ كان قد تعلم جيدا سياسة منصبه حين رفض التعاون مع سليمان - الذى اشتهر بالعدوانية والذى تشاجر مع الباب العالى بشأن حفائر طروادة . وأدرك ماسبيرو أن الوضع الحساس فى مصر يتطلب شخصية أكثر انزواء لا تثير حنق المصريين ، فكتب إلى بول فى المتحف البريطانى طالبا انجليزيا شابا يمكنه أن يدربه فى ظروف كانت «العزة القومية» فيها قد «استثارتها الأحداث الأخيرة بعنف» .

فهم يعتبرون أمرا مسلما به أن مصر هى أول بلد فى العالم ، وأم الحضارة القديمة والحديثة ، وأن الأجانب حين ينفقون الأموال لصالح الحكومة المصرية لا يفعلون أكثر من أن يؤدوا الاكرام الواجب لتفوق مصر : وتقبل الأموال كايماءة لطيفة ولا أكثر من ذلك وستقدرون أن يكون الوزير الحالى ومن سيخلفونه - ولديهم مثل هذه الآراء - شديدو الحساسية .

وأصر ماسبيرو على أنه لا يريد أن ينفق أموالا انجليزية لملء أروقة بولاق وسيتأكد دائما من بقاء أكبر عدد من الآثار فى مواقعها . والواقع أنه كان يطبق القواعد بقدر كبير من المرونة ، وكان معروفا أنه يسمح للقائمين بالحفر بالاحتفاظ بنسبة من القطع التى يكتشفونها ، طالما اعترفوا بأولوية المتحف ، بل انه اذا لم يحالف الحظ أحد الحافرين في العثور على شئ له قيمة كان يسمح له بأخذ بعض القطع من المخازن المصرية هبة مجانية .

ولعل البراجماتية الهادئة التى كان ماسبيرو يؤدى بها واجباته ، فضلا عن اهتماماته الواسعة واعجابه بالأدب الانجليزى ، قد قربته إلى بارنج ، وارتبط الاثنان بعلاقة ودية وان لم تكن شخصية . وبمساعدة الوكيل البريطانى تمكن ماسبيرو من تطوير مصلحة الآثار إلى أن قسم وادى النيل بأسره إلى خمسة أقسام ادارية . وأصبح وجود عدد قليل من المفتشين شاهدا على أن عصر المقاولين الذين لا يقيدهم شئ قد انتهى .

وانقطع اشراف ماسبيرو على الحفائر فى مصر فجأة فى صيف عام ١٨٨٦ . فقد مرضت زوجته فترة ، ومنعت طبيا من العودة إلى مصر ، واستقال ماسبيرو من منصبه كمدير للآثار وعاد إلى باريس ، وفاته بذلك وصول أكبر الشخصيات اثارة ومغالاة ودينامية فى تاريخ علم المصريات البريطانى : ارنست الفريد تومبسون واليس بادج .

وواليس بادج هو قرصان علماء المصريات ، وقد نجح بتمويل وتشجيع من المتحف البريطانى ذاته - الذى يبدو فى الظاهر حصنا للوقار - فى مضايقة موظفى مصلحة الآثار وخداعهم ، وأرسل إلى بلاده شحنات مليئة من الأسلاب ، بالطريقة التى سلب بها دريك الأسطول الاسبانى[1] .

(١) سير فرانسيس دريك بحار انجليزى لعب دورا هاما فى هزيمة «الارمادا الأسبانية التى لا تقهر» وكان مقربا من الملكة اليزابيث الأولى - المترجم .

وكان بادج قد تعلم - أثناء عمله مساعدا لبيرس - وهو يرقب تيار التجار والعملاء الذين يسعون إلى التحقق من أصالة قطعهم - أن للآثار قيمة تجارية فضلا عن قيمتها الآركيولوجية . وكان من المهم له - كموظف فى المتحف - أن يعرف السعر الجارى لقطعة آثار كما يعرف مكانها فى التاريخ ، واذ اكتسب الخبرة اللازمة كان أيسر وأقل نفقة أن يزيد مجموعة المتحف بصفقات ذكية أكثر من أن يزيدها بالحفر . ولهذه الغاية كرس بادج مواهبه وطاقاته الهائلة .

وكانت زيارة بادج الأولى لمصر نتيجة لتزجية جنرال بريطانى كبير لوقت فراغه ، فقد اعتاد سير فرانسيس جرينفيل - قائد القوات البريطانية فى أسوان - أن يخفف من رتابة الحياة فى الحامية بالحفر فى المنطقة . وحقق سير فرانسيس عددا من الاكتشافات الصغيرة ، التى كان يتطلع إلى أن يعرف قيمتها ، وعرض أن يهديها للمتحف البريطانى لو أنهم أرسلوا إليه أحدا يقيمها . وأغرى الاقتراح أمناء المتحف ، لكنهم لم يكونوا على استعداد لتمويله ، ومن ثم طلبوا من الخزانة أموالا لارسال ممثل فى زيارة رسمية لأسوان . واستشارت الخزانة وزارة الخارجية ، واستشارت وزارة الخارجية رجلها فى الموقع - سير ايفيلين بارنج . ونظرا لمعارضة بارنج لتصدير الآثار كان من الممكن أن تنتهى المسألة عند هذا الحد ، لكنه باعتباره موظفا كفؤا أحال اقتراح الزيارة الرسمية لأسوان إلى ممثله هناك : سير فرانسيس جرينفيل . وأوضح جرينفيل فى رده أن لـلمتاحف الكبرى فى روسيا وفرنسا وألمانيا رجالها فى مصر ، ويتردد أنهم يحققون لبلادهم الكثير ، ومن ثم فان من غير المتصور أن يترك المتحف البريطانى متخلفا عنها ، وفضلا عن ذلك فان الحفائر لم تكلف الحكومة المصرية شيئا ، لأنه هو الذى مولها بنفسه ، وهو على استعداد لأن يواصل تمويلها.،

ووافق بارنج على البعثة ، ومنح بادج أربعة أشهر أجازة و ١٥٠ جنيها - كما صدرت له تعليمات بالاتصال بالتجار المحليين لاجراء صفقات لحساب المتحف البريطانى . وحين سمع نائب مدير جامة كمبريدج بالمشروع ، صرح بتقديم ١٠٠ جنيه أخرى لبادج لشراء آثار لمتحف فيتزويليم .

وكان أول لقاء رسمى لبادج فى القاهرة اجتماعا غير مبشر مع سير افلين بارنج ، مما أوضح له من البداية أن أمله الوحيد فى النجاح هو خداع النظام . وكان من حسن الحظ أنه غادر انجلترا مع كاهن ماكر وجامع وهاو للآثار على استعداد لأن يريه الخيوط .وكانت صحة الأب ويليم چون لوفتى الضعيفة تجبره على أن يقضى شهور

الشتاء الباردة فى مصر ، حيث اكتسب ميلا إلى الجعارين وخبرة بالتزييف ، وقد اشتهر بأنه أجنبى غريب الأطوار ، نادرا ما ينجح أحد فى غشه . وفى امسية اليوم الذى صرف فيه بادج إلى الباب على يد قنصل بريطانى غاضب صحبه الأب لوفتى إلى جناح بفندق النيل «يتردد عليه كثير من تجار الآثار ، وتلقى أول دروسه فى (سياسة الآثار)» .

ولو أن أى تحرج أخلاقى قد انتاب بادج من احتيالات العالم السفلى الذى التقى به فى تلك الأمسية فقد تبدد فى اليوم التالى حين زار متحف بولاق . فقد وجد المومياءات الملكية «ترقد عارية فى صناديق زرية مغطاة بأرخص أنواع الزجاج البنى ، وضباب أبيض يرتفع من سطح مياه النيل ويتكثف على الزجاج ، ويجرى على الأسطح الداخلية للصناديق» ، وأرضية المتحف «تنضح بالرطوبة» ، ولايبدو أن أحدا يعرف أو يهتم بما يحوى من كنوز . وحين طلب بادج أن يرى المخزن الذى يحوى القطع التى لا تصلح للعرض أروه عددا من الحظائر يسمونها المخزن تكومت فيها التوابيت والمومياءات والصناديق الجنائزية وأثاث المقابر والكثير من الآثار الصغيرة من كل أنحاء مصر . ولم تكن هذه الآثار مسجلة ، ولما لم يكن أحد يعرف بوجودها هناك فان أى امرئ يستطيع أن يسرق دون خوف من أن يكتشف . وكان المخزن فى الحى الصناعى ، تحيط به الورش ، وخطر الحريق كبير دون أى أدوات اطفاء فى المبنى . وبدا واضحا على الفور لبادج ان آثار مصر ستكون أفضل كثيراً فى المتحف البريطانى .

وبدأ بادج جولة موجهة فى بيوت القاهرة الخاصة التى تخزن فيها الآثار . وكان دليله كاهنا آخر تجبره صحته الضعيفة على قضاء الشتاء فى وادى النيل . وكان الأب جريفيل شستر قد اكتشف - بعد أول جولة له فى مصر - أن أمين ادارة الآثار فى المتحف البريطانى يريد أن يشترى معظم (التذكارات) الصغيرة التى عاد بها الأب شستر إلى لندن ، و على استعداد لأن يعطيه ربحا فيها . وزاد الأب شستر حمولته فى الزيارة التالية ، وبعد بضع سنوات أصبح موردا منتظما لبيرس وللمجموعة المصرية فى المتحف . كان المتحف البريطانى قد شجع سعيه إلى الكسب ، ورد هو الجميل بتعريف بادج بدائرة التجار ، والمرور به على مجموعاتهم ، حتى تكون لدى بادج - قبل أن يرحل فى النيل - فكرة واضحة عما هو متاح له بالفعل فى القاهرة .

وفى أسوان طالب بادج - باسم المتحف البريطانى - بحصة سير فرانسيس جرينفيل فى الحفائر . وقيل له انه لم يتبق منها سوى بضعة أشياء صغيرة غير ذات

أهمية ، واختفى الباقى دون حساب ؛ وأن القطع القليلة التى بقيت قد أخذها ممثل متحف بولاق فى أسوان ، وأرسلت إلى مدير مصلحة الآثار فى القاهرة ، لكنها لم تصل أبدا . وهكذا قرر بادج – وقد ترك لألمعيته الكبيرة ، وبعد أن وجد أن المجموعة الموعودة قد تبخرت – أن يقوم بالحفر لحسابه .

وطيلة الأسابيع التالية كشف عمال بادج ثمانى عشرة مقبرة فى منطقة أسوان . ولما لم يكن لديه مال لدفع أجور عماله فقد نجح فى اقناع صاحب السمو الجنرال دى مونتمورينسى ، قائد القوات البريطانية فى أسوان ، أن من مهام الجيش البريطانى فى الخارج أن يمد يد العون للمتحف البريطانى .ورتب الجنرال دى مونتمورينسى الأدوات ومعدات السكك الحديدية وجنود حفر الخنادق للاشراف على عمل الوطنيين . ولقوا التجربة المؤسفة – والشائعة بين كل الحافرين فى المنطقة فى ذلك الحين : فكل مقبرة يكتشفونها كانت قد نهبت بالفعل ، ولم يجدوا شيئا ذا قيمة الا النصف الأسفل لتمثال لابد أنه كان تمثالا جميلا .

ومن حسن الحظ أن أساليب أقل أجهادا لجمع الآثار كانت مفتوحة أمام بادج ، ففى رحلته فى النيل كان فى أعقابه ممثل لمتحف بولاق بتعليمات بأن يراقب تحركاته ، ويمنعه من أن يشترى من التجار . وأشاع هذا الموظف أن بادج وكيل عديم الضمير لمؤسسة أجنبية لا يتورع عن شئ ، وأنه تلقى أموالا لا تنتهى لتجريد مصر من كنوزها . وحالما عُرف أن بادج وغد زنيم ، لا يبالى بالقانون ، ولديه مال ينفقه ، لم يعد بحاجة إلى أن يبحث عن الآثار ، فهذا هو نوع الرجال الذى يحب التجار التعامل معه ، وكانوا يأتونه بقواربهم ليلا ، ملحين عليه فى الشراء .

وطيلة سنوات كانت الأقصر هى مركز تجارة الآثار ، وقرر بادج أن يرحل إلى هناك ليجرب قدراته على المساومة . كانت هناك مخاطر ، حتى إذا نجح فى التخلص من موظفى مصلحة الآثار . وكان مرييت قد كتب فى «دليل الأقصر» يقول «والأقصر هى مركز تجارة غير شرعية إلى حد أو آخر فى الآثار . . . . . وفى الأقصر توجد عدة مصانع تصنع فيها التماثيل الصغيرة والأنصاب والجعارين بمهارة كثيرا ما تخدع حتى أكثر رجال الآثار خبرة» . وقد ترصدت حشود التجار لاميليا ادواردز فى زيارتها هناك :

وبعض هؤلاء السادة من العرب ، وبعضهم من الأقباط ،

وكلهم مؤدبون لجوجون كذابون . . . يبيعون الآثار المزيفة بقدر ما يبيعون الآثار الحقيقية . وأيا كان الطلب فانهم مستعدون لتلبيته . وليس تحوتمس ثقيلا بالنسبة لهم ، ولا كليوباترا بالخفيفة . . . . أما الجعارين الحقيقية ، فانها تنتج بالجملة فى كل موسم . وهى تحفر وتطلى ، وتعطى للديوك الرومية فى شكل أقراص ، بحيث تكتسب - بعملية الهضم البسيطة - درجة من القدم ساحرة حقا .

وكان بادج بحاجة إلى قدراته على التمييز ، التى صقلتها سنوات من التلمذة على أيدى صمويل بيرس ، لكى يخرج من الأقصر بكنوز حقيقية .

وعرض له تجار الأقصر صورة الوضع فى السوق : فكل قطع الآثار فى مصر ، سواء فوق الأرض أو تحتها ، مملوكة بحكم القانون للحكومة المصرية . ومن غير المشروع أن يمتلك أى وطنى آثارا أو يتاجر فيها . غير أنه ما من حكومة حاولت انفاذ هذا القانون ، وقد اشترى كل من مرييت وماسبيرو صراحة من التجار - واستخدموا أموال الحكومة فى ذلك . وكان المحليون الذين نجحوا بدهائهم فى أن يعينوا قناصلا أو وكلاء لدولة أوروبية يشعرون بأنهم فوق القانون ، وكثيرا ما اشتغلوا بالحفر أو التجارة صراحة ، إلى حد أن بعضهم كانوا يطردون موظفى مصلحة الآثار الذين يحاولون التدخل .

وكان مصطفى أغا - القنصل البريطانى فى الأقصر - يمتلك مجموعة جميلة فى منزله ، ونتيجة حبه العميق للشعب البريطانى ، وطموحه لأن يجعل المتحف البريطانى «أفضل متحف فى العالم» عرض خيرتها على بادج . كما قدم بادج لأفراد أسرة عبد الرسول الذين اكتشفوا خبيئة الدير البحرى . وكانوا قد نجحوا فى سرقة واخفاء أوراق بردى وأوانى مرمرية وزهريات مطلية بالأزرق وقطع من العاج ، وهم على استعداد لبيعها للمتحف البريطانى ، ويبدو ان من أسباب ذلك رغبتهم فى أن يبتزوا موظفى مصلحة الآثار . وعلى حد قول أسرج عبد الرسول فان موظفى متحف بولاق - عند تسليم الآثار لهم - يرفضون أن يدفعوا مصروفات الحَفر وغيرها من النفقات كما ينص القانون ، وبدلا من ذلك يدعون أن القطع زائفة ، ويدفعون مقابلها مبلغا زهيدا ، ثم يبيعونها للسياح الأجانب . وقدم بادج نفسه باعتباره الرجل العادل الذى جاء بالخلاص للتجار بعرض اسعار منصفة ، وللآثار بنقلها إلى مكان أمين .

وغادر الأقصر ومعه مجموعة جيدة .

وفى هذا الوقت تلقى بادج تكليفا غير عادى من البروفسير الكسندر ماكليستر بجامعة كمبردج ، الذى كان يستخدم الأنثروبولوجيا الطبيعية لبحث تاريخ الجنس البشرى . وكان البروفيسور بحاجة إلى عدد من جماجم المصريين القدماء ، وتساءل عما إذا كان بوسع بادج أن يزوده بالقليل منها . وحدث أن اكتشفت حفرة عميقة تضم مومياءات لكهنة من المرتبة الثالثة والرابعة . ولما كان الكهنة مسئولين ثانويين فان تحنيطهم لم يكن جيدا ، ولم تكن رؤوسهم مرتبطة جيدا بأجسادهم . وأمر بادج بوضع كومة من المومياءات فى صناديق وارسالها إلى الاسكندرية لتصديرها . وهناك واجهت مشكلة ، فقد كان تصدير مومياءات البقايا البشرية ممنوعا بحكم القانون المصرى . ولما كان بادج قد أعلن عن محتويات الصناديق فقد حجزت فى الجمارك فى الاسكندرية . ورفض موظف الجمارك قبول ادعاء بادج أن للجماجم قيمة علمية ، فكل قيمة يمكن أن تكون لها - فى نظره - هى قيمتها كسماد عضوى ، ونصح بأن تصنف على هذا النحو . وأخيرا غادرت عينات البروفيسور ماكليستر مصر تحت اسم رسمى هو «سماد عضوى» ، وبعد دفع الرسوم المستحقة على الأسمدة وهى واحد فى المائة .

وواجه بادج صعوبة أكبر فى نقل كنوزه ، وكان من بين الأساليب التى تتبعها مصلحة الآثار لردع الاتجار غير المشروع الاستيلاء على القوارب التى يشك فى أنها تحمل آثارا ، وهو أسلوب استخدمه مرييت وماسبيرو لزيادة مجموعة بولاق . ومن حسن حظ بادج أن صديقه الجنرال مونتمورينسى كان مايزال مصمما على مساعدة المتحف البريطانى على أن يبتز مصلحة الآثار المصرية ، وأخذ ببساطة صناديق بادج ، وشحنها على قوارب رسمية مع المعدات العسكرية إلى الاسكندرية .

وثار غضب سير ايفيلين بارنج ، فلم يكن واجبه هو فحسب وضع القوانين فى مصر بل كذلك ضمان امتثال مواطنيه لها ، فأرسل إلى بادج ، وذكّره بعنف بأن تصدير الآثار محظور بحكم القانون ، وأمره بأن يعيد للتجار القطع التى اشتراها ، ورد بادج بأنه أرسل إلى مصر على حساب الدولة ، وأن المجموعة التى كان من المفروض أن يتسلمها من سير فراتسيس جرينفل قد اختفت دون حساب ؛ ومن ثم فقد شعر بأن من واجبه أن يجلب بدلا منها قطعا أخرى من مصدر آخر . ووصلت المناقشة إلى طريق مسدود : وأمر بارنج بادج مرة أخرى بأن يمتنع عن الشراء ويعيد كل ما اشتراه .

الا أن بادج قال انه ليس موظفا لدى بارنج ، ومن ثم فلا يخضع لأوامره . وأضاف أنه سيستمر فى بذل أقصى جهده لزيادة المجاميع فى المتحف البريطانى ، الذى يواجه المنافسة من الدول الكبرى الأخرى ، وكذلك - على حد قوله - من «كثير من الدول الصغيرة» فى أوروبا التى لديها وكلاء فى مصر لشراء مجموعاتها الوطنية . وكتب بادج يقول ان اللقاء «انقطع فجأة» .

وعندئذ كتب القنصل العام رسميا إلى بادج لكى يسجل أن تصدير مشترياته محظور بمقتضى القانون ، وأبلغ مصلحة الآثار فى الاسكندرية لمنع نقلها إلى ظهر السفن . الا أن الحظ حالف بادج ثانية : فقد كان صديقه دى مونتمورينسى قد نقل من أسوان إلى الاسكندرية ، واستطاع أن يتغلب على كل معارضة ، وحسبما يذكر بادج فان : «الجنرال دى مونتمورينسى يرفض أن يثنيه الرجاء أو التهديد ، وذات يوم وقفت أنا وهو على الرصيف نرقب أربعة وعشرين صندوقا تغادر الميناء تحت رعاية ضابط ودود من أسوان»

وبعد يومين سار بادج فى أثرها إلى انجلترا ، وسره أن يتلقى تهانى أمناء المتحف البريطانى الرسمية على ما قام به . وفى ٢ أبريل ١٨٨٧ كتب سكرتير المتحف يقول «أصدر الأمناء صباح اليوم قرارا يعبر عن تقديرهم الحار لذكائكم وطاقتكم فى تنفيذ الغاية من المهمة التى عهد بها المتحف لكم ، والتى اضطلعتم بها على التو» .

وبلغ من حرارة اقرار الأمناء لنشاط بادج أنه عاد إلى مصر ثانية فى ديسمبر . كان قد سمع أن خبيئة كبيرة من البرديات وجدت فى غرب طيبة ، ونبه رؤساءه إلى ضرورة شرائها قبل أن تعرف المتاحف الأخرى . والتقى بادج فى الاسكندرية بالقنصل البريطانى شارلز كوكسون ، الذى قال انه علم برسالة من القاهرة أن اكتشافا كبيرا من أوراق البردى قد تم فى مصر العليا ، وأن المتحف البريطانى أرسل مسئولا للحصول عليها ، واستطرد قائلا أنه اذا كان بادج هو هذا المسئول فانه لايستطيع أن يعتمد على أى مساعدة رسمية فى مشروعه غير القانونى لتصدير الآثار ، وقد يكون من الأفضل له أن يستمتع بالشمس ويحسن ضيافة صديقه الجنرال دى مونتمورينسى : وحذره كوكسون من أنه لو حاول أن يؤدى مهمته فى الحصول على أوراق البردى فسيعارض القنصل بكل ما لديه من سلطة تصدير آثار ينبغى أن تبقى فى مصر «التعلن للمصريين المحدثين ماضى بلادهم المجيد» . أما الجنرال مونتمورينسى فقد أخبر بادج بأن يمضى فى المهمة التى أرسل لها ، واذا واجه أى مشكلة فهو يعرف إلى أين يتجه .

كانت المشكلة الملحة التى لا مهرب منها أمام بادج هى ايوجين جريبو - المدقق المتحذلق الذى تولى منصب مدير الآثار بعد رحيل ماسبيرو . وبعد النظام السلس الذى طبقه ماسبيرو قرر جريبو اصلاح مصلحة الآثار لتصبح منظمة تلتزم بقانون تأسيسها بدقة أكبر .

وقد توجه لزيارة بادج فى فندق رويال فى القاهرة . وبدا فى اللقاء الأول أن رغبة جريبو فى الشهرة غلبت حماسه لوظيفته ، فقد أبرز طموحه إلى أن يكون خليفة جديرا لماسبيرو . وذكّر بادج بأن المتحف البريطانى أهدى سلفه مجموعة كاملة من مطبوعاته المصرية اعترافا بقدره العلمى . أفيمكن لبادج أن يرتب تكريم الأمناء له بالطريقة نفسها؟ وألمح بادج إلى أن هذا قد يتوقف على كرم جريبو مع ممثلهم فى مصر ، وشعر للحظة بأن له اليد العليا . ولكن فى هذه الليلة طلب جريبو من الشرطة مراقبة فندق بادج .

ولاشك أن قصة الصعلكة التى رواها بادج عما حدث بعد ذلك قد لونها خياله الحى ، ورغبته فى أن يصور نفسه كمحتال ماكر ، أنقذ كنوز النيل من جريبو البيروقراطى الأحمق .

فقد هرب بادج من حراس جريبو ، وتوجه إلى الأقصر ، حيث أغرى التجار المحليين بأن يروه مجموعة كبيرة هامة من أوراق البردى . وفى اليوم التالى قبض عليه رئيس الشرطة المحلى بناء على أوامر جريبو الذى كان يتعقبه فى قارب بخارى . وحدث أن كان لقبطان القارب ابنة ستتزوج فى الليلة نفسها فى احدى القرى الواقعة على ضفاف النيل ، وتصادف أن جنح القارب فى الليلة السابقة ، واستحال تحريكه إلى أن ينتهى الزفاف . وطلب جريبو حمارا حتى يمكن أن يواصل تعقبه لبادج ، ولكن حين علم القرويون ان الحيوان مطلوب لديكتاتور الآثار المكروه أخفوا كل الحمير فى الحقول ، مدعين أنهم لا يستطيعون اللحاق بأى منها .

ورغم أن بادج قد سر لسماعه النبأ - الذى جاء به رسول يعدو - فقد كانت لديه مشكلاته . كان معنى تعطل جريبو أن أمام بادج يوما بأكمله لتهريب مكتشفاته . غير أنها كانت مخزونة فى بيت وضع تحت الحراسة ، حيث يقف رجال الشرطة على السقف ، ورجل شرطة يقف عند كل زاوية . وفى البداية لم تبد هذه مشكلة لا اجتياز لها ، واستخدم التجار المتحالفون مع بادج أسلوبا بسيطا طالما حقق النجاح - هو

إسكار الحراس ورشوتهم . الاأن الحراس رفضوا الكونياك ، فأثنى التجار على أمانة الحراس واستقامتهم ، وانسحبوا بقدر كبير من خيبة الأمل !

والواقع أن التجار قد اتجهوا إلى الباب التالى لمدير فندق الأقصر ، وكان سور حديقته ملاصقا لجدار المنزل . وفهم المدير المشكلة على الفور وأمر بستانييه بحفر نفق عبر الجدار . ولما كان الجدار مبنيا باللبن الذى يمكن ازالته دون ضجة كبيرة ، لم تبد حاجة إلى صرف أنظار الحراس الا عندما أرادوا دعم النفق بألواح خشبية . وأرسل المدير للحراس مكافأة لهم صينية كبيرة كوم عليها الأرز بالزبيب وفوقها حمل مشوى ، وكلها غارقة فى شحم الضأن ، واذ أقبل الحراس على الوليمة . وهم مازالوا فى مراكز حراستهم ، نقل البستانيون كل الآثار فى هدوء عبر النفق إلى الفندق . وحين عجزوا عن حشر مومياء وتابوت تركهما بادج خلفه حتى يجد جريبو شيئا يصادره عندما يصل أخيرا .

واذا كان فى القصة الآن نفحة من «الأوبراكوميك» فان خاتمتها تكاد تبلغ المهزلة غير المقنعة . فحسبما يقول بادج فقد توجه إلى القاهرة مع الصناديق التى تحوى الآثار غير القانونية ، لتصحبه عن بعد مجموعة من رجال الشرطة بناء على أوامر جريبو . وقطع الجزء الأخير من الرحلة بالقطار ، ووصل إلى محطة القاهرة فى منتصف الليل ، واذ لم يجد حمالين يساعدوه فى حمل الصناديق ، جلس إلى جوارها فى المحطة ، منتظرا طلوع النهار حتى يأتى الحمالون إلى عملهم . وجلست مجموعة رجال الشرطة على بعد قليل وهى تراقبه . وعند أول أشعة الضوء رأى بادج ضابطين بريطانيين فى نوبتهما الصباحية ، فحياهما كمعارف . وحين رأى هؤلاء سيدا انجليزيا فى ورطة أمروا رجال الشرطة بأن يلتقطوا الصناديق المهربة ويحملوها إلى المدينة . وحين رأى ضباط الجمارك عند كوبرى قصر النيل طابورا من رجال الشرطة يحملون البضائع تحت امرة فارسين بريطانيين حيوهم برشاقة ، وأشاروا لهم بالسير فى طريقهم .

وتم الغلب على العقبة الأخيرة بمساعدة الميجور هيبر من سلاح المهندسين الملكى الذى أعلن عندما عرف أن محتويات الصناديق قد اشتريت بأموال المتحف البريطانى التى قدمتها الخزانة البريطانية ، أنها ملكية عامة من واجبه حمايتها ، وشحنها للخارج مع أمتعته الشخصية .

كان بادج قد اقتنع بأن مصلحة الآثار غير كفؤة بشكل صارخ وموظفيها فاسدون ، ولعل مما يثير الدهشة أن يكسب بسهولة دعم الضباط البريطانيين ضد نفوذ سير ايفيلين بارنج الكبير . غير أن القنصل العام كان بمسلكه المتباعد المتغطرس - يثير ضيق أبناء وطنه ، وكان يسود صفوف جيش الاحتلال فكرة أن القوانين التى تسبب متاعبا خطيرة لمواطنى الدولة المحتلة ينبغى ألا تنفذ .

وكان بادج كذلك عارضا مقنعا لفكرة أنه يهرب كنوز مصر إلى الخارج لصالحها ، فلما كانت مصر هى مهد الحضارة فان آثارها هى آثار العالم المتحضر . ولا يمكن أن تترك لنزوات التجار المحليين ، أو لتعرية الرياح والرمال ، او لوصاية مصلحة الآثار المدمرة غير الفعالة . فالمتحف البريطانى هو الموطن الصحيح لتذكارات مصر ، فهى هناك فى أمان حتى من المصريين :

> منذ الأزل والمصريون ينهبون مقابر موتاهم ، فمصريو العصر الحجرى الحديث كانوا يسرقون الصوان والحجر والأوانى الفخارية . . . . وفى زمان الأسر ، حين كانت المجوهرات والخواتم والحلى والتعاويذ الخ . . . .تدفن مع الموتى تسلل اللصوص إلى المقابر وسرقوها . . . وسواء بنى الملك هرما ليغطى جسده ، أو نحت مقبرة فى أحشاء الجبل فقد كانت النتيجة واحدة ، لقد وجد اللص طريقة إلى غرفة التابوت وسرق الميت . . . .

ويستطرد بادج قائلا ان كنوز مصر - فى العصور الحديثة - تؤخذ لتدفن فى متحف بولاق حيث تصطدم مياه النيل بالجدران ، وحيث يتكثف الضباب المتصاعد على صناديق المومياءات الزجاجية . فكيف يمكن لأرواح ملوك مصر الموتى أن ترتاح وبقايا أجسادها تعامل بهذه الخسة . ان كثير من «البشر الماديين» قد زاروا المومياءات فى المتحف البريطانى وأكدوا أن الأرواح التى غادرتها تزورها ليلا ، فالظروف فى المتحف من شأنها أن تشجع «التواصل الحر بين الأجساد وأرواحها الحرة» ، وليس من الممكن الاتصال بأرواح المومياءات الملكية فى القاهرة لأن أجسادها عوملت بكل هذا الازدراء من مصلحة الآثار . وتمكن بادج بهذه الطريقة من أن يضم تأييد المصريين القدماء أنفسهم :

فأيا كان اللوم الذى يمكن أن نوجهه إلى الآركيولوجيين الأفراد لنقل المومياءات من مصر فان كل شخص غير متحيز يعرف شيئا عن الموضوع لابد أن يعترف بأنه حالما تنتقل المومياء إلى رعاية الأمناء ، وتقيم فى المتحف البريطانى ، فان فرصة بقائها هناك أفضل مما يمكن أن تلقاه فى أى مقبرة - ملكية أو غير ملكية - فى مصر .

الفصل التاسع

آركيولوجيا التوافه المهملة

أعلن أول منشور يوزعه صندوق استكشاف مصر التزامه «بالآركيولوجيا العاطفية» . وسرعان ما ربطه هذا بسياسات سير ايفيلين بارنج لا بممارسات واليس بادج :

> تشكلت جمعية من أجل التعاون مع البروفيسور ماسبيرو - مدير المتحف والحفائر فى مصر - فى عمله الاستكشافى . وتتعهد الجمعية باجراء الحفائر بوجه خاص فى المواقع ذات الأهمية بالنسبة للكتاب المقدس وذات الأهمية العامة ، دون انتهاك للقانون المصرى ، وبمقتضاه يصبح كل ما يكتشف مملوكا لمتحف بولاق ، ويوافق السيد ماسبيرو من جانبه على نشر الجمعية للنتائج .

وقد يبدو أمرا غير حكيم من جمعية تسعى إلى كسب المشتركين أن تعلن عزمها على الامتناع عن جلب نتائج حفائرها ، الاأن مؤسسى الصندوق رأوا - عن حق - أنهم يستطيعون الاعتماد على التأييد طالما أسهموا فى الجدال العام الدائر حول الكتابات المقدسة ، ففى ثمانينات القرن التاسع عشر كان الدارسون الحرفيون للكتاب المقدس مازالوا يتطلعون إلى انتصار آرائهم التقليدية ، وحين نشر البروفيسور ويليم روبرتسون سميث بعض الأفكار الأكثر ليبرالية فى محاضراته الشعبية وكتبه قدم إلى المحاكمة أمام مشيخة الكنيسة الحرة فى أبيردين ، وفصل من منصبه فى عام ١٨٨١ .

وأثارت المحاكمة فضيحة علنية . وكان الموضوع المطروح هو حجية العهد القديم كسجل للأحداث التاريخية .

كان نحو قرن قد انقضى منذ فتح المجمع المصرى البلاد لاستكشاف ماضيها ؛ فحفرت المواقع من الدلتا حتى الشلال الثانى ، ونشرت مجلدات سميكة تسجل بالتفصيل الاكتشافات وتعرض التاريخ القديم لوادى النيل . ولكن كانت هناك ثغرات : فحتى جمعية بيرس لآركيولوجيا الكتاب المقدس عجزت عن أن تضع أمام الجمهور دليلا آركيولوجيا على الأحداث التى سجلها العهد القديم . ومن هنا كان صندوق استكشاف مصر فى حاجة إلى أن يدشن نفسه ببحث يسترعى انتباه الجماهير إلى الجدال ويستبقيه ، وإلى أن يستخدم فى أول حفائر يقوم بها رجلا مؤهلا لأن يقدم اسهاما .

وكان ادوار نافيل عالم مصريات وكتاب مقدس سويسرى ، تلقى تعليما شاملا غير مألوف فى ميدانه ، اذ درس فى جامعة جنيف وكلية الملك فى لندن وجامعات بون وباريس وبرلين . وكان تلميذا لليبسيوس ومنفذا لوصيتة الادبية ، وساعد فى نشر كتاب «آثار من مصر واثيوبيا» العظيم . وكانت اهتمامات نافيل لغوية أساسا ، واتجاهاته الدينية محافظة . وقد تقدم للصندوق باقتراح بحث يناسبه تماما .

فالاصحاح الأول من سفر الخروج يسجل أن بنى اسرائيل قد تضاعفوا فى مصر ، وأصبحوا من العدد والقوة بحيث حين جاء إلى السلطة ملك جديد - لم يعرف يوسف - رأى فيهم خطرا . وعين هذا الملك عليهم مشرفين ، هبطوا بهم إلى مستوى العبودية ، وأجبروهم على بناء مدينتين كمركزى امدادات تسميان بثيوم وراميسيس . وحدد ليبسيوس مكان راميسيس لكن ريجينالد ستيورات بول شكك فى هذا التحديد فى «قاموس الكتاب المقدس» باشراف سميث . وحين تقدم نافيل إلى الصندوق باقتراح الحفر عن موقع بديل للمدينتين ، بدا هذا مشروعا مثاليا لاثارة خيال الجماهير ، فلو كانت مدينتا التخزين الكبيرتان قد أقيمتا حقا فسيكونان من الكبر بحيث تبقى منهما آثار ، واذا أمكن الكشف عنهما ، وتحديد الملك المسئول عنهما ، فسنصل فى النهاية إلي دليل علمى على الخروج .

وقد ذكر الكتاب الكلاسيكيون تلميحات ساعدت على تحديد موقع المدينتين : فوصف هيرودوت القناة التى تصل البحر الأحمر بالنيل بأنها «تمر بمدينة باتوموس فى

نوم العربية»[1] . وقد حددت باتوموس بأنها مدينة توم أو بيتوم - أى «دار توم» . وتوم هو اله الشمس المصرى القديم فى هليوبوليس . وأوضح الدارس الفرنسى تشابا فى عام ١٨٦٤ أن بيتوم المصرية لابد أن تكون هى بيثوم فى العهد القديم ، وأشار إلى أن موقعها ربما يكون عند «أبوقشيد» أو «تل المسخوطة» على بعد نحو عشرة أميال جنوب غرب الاسماعيلية ، وهى اشارة سحبها فيما بعد . الا أن نافيل - بعد ان استشار النصوص الجغرافية ولاحظ أن آثار الاسماعيلية مهداة من رمسيس الثانى إلى الاله توم - قرر احياء الفكرة ، ودراسة موقع تل المسخوطة . وكان عليه فى البداية أن ينتظر إلى أن تنتهى حروب عام ١٨٨٢ ، ثم إلى أن هبط النيل بما يكفى للسماح بالحفر فى الدلتا . وفى يناير ١٨٨٣ بدأ العمل - ممولا بمنحة قدرها ٥٠٠ جنيه من سير إيراسموس ويلسون ، الذى وعد بمائة جنيه أخرى إذا دعت الحاجة .

وكان هدف نافيل الرئيسى - وهدف مسانديه - هو اكتشاف صلة ملموسة وآركيولوجية بالكتاب المقدس ، وقد نجح تماما فى ذلك . فقد كشف بقايا مدينة ومعسكر بتحصينات وعدد من المبانى الأخرى التى ربما كانت مخازن . وكانت هناك شواهد على أن المدينة أقامها رمسيس الثانى ، ولكن ليس ثمة علامات يمكن أن تربطها بالاسرائيليين . ورغم هذا فقد عنونت صحيفة «اليستراتيد لندن نيوز» تقريرها عن الاكتشافات بعبارة «مدينة مدفونة من عهد الخروج» . وختمت التقرير قائلة :

لقد قدمت حفائر بثيوم أول حقيقة جغرافية محددة تتصل باقامة الاسرائيليين فى أرض مصر . كما تبين الشواهد الأثرية تحديد الفرعون القاهر بأنه رمسيس الثانى . ان اكتشافا قصيرا واحدا قد حطم مئات النظريات ، وقدم صورة رائعة للطابع التاريخى لسفر الخروج .

لكن «الصورة الرائعة» لم تقنع كل الأطراف المعنية . ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يعتمد فيها تفسير الشواهد على الانتماء الدينى للمفسرين : فأولئك المتحرقون إلى تأكيد لتاريخية العهد القديم كانوا الأكثر استعدادا للعثور عليه فى حفائر نافيل فى تل المسخوطة . أما غيرهم فكانوا متشككين ، وأدى الجدال الناشئ إلى دعاية رائعة للصندوق ، وزاد عدد أعضائه . وكان هناك انتصار ثانوى آخر فى تل المسخوطة ، فقد أقنع ماسبيرو الخديوى باهداء اثنين من أفضل التماثيل التى وجدت

(١) ولاية من الولايات الادارية فى مصر قديما ، أحد أقاليم اليونان الآن - نقلا عن قاموس المغنى الأكبر - المترجم .

هناك - صقر جرانيتي وكاتب جالس القرفصاء - إلى سير ايراسموس ويلسون الذى تنازل عنها للمتحف البريطاني .

كانت بداية عمل الصندوق في مصر نجاحا كبيرا : لقد اكتشفت الجدران التى بناها الاسرائيليون فى زمن العبودية ، وحدد فى النهاية فرعون الخروج ، ولقيت مناقشة علمية حارة جماهيرية واسعة ، وكمكافأة للصندوق على قراره الجرئ غير المسبوق بالالتزام بالقانون الذى يمنع تصدير الآثار حصل على أجمل الكنوز التى كشف عنها .

وكان هدف ناڤيل الثانى هو المقر الملكى القديم للفراعنة - مدينة صان التى تشير الكتابات المقدسة إلى أنها كانت عاصمة مصر القديمة التى حدثت فيها المعجزات أيام موسى . وكان هناك اتفاق عام على موقع المدينة : بقعة جرداء تنتشر فيها الحمى فى شرق الدلتا سماها الأغريق تانيس وسماها العرب صان .

وبدأت اميليا ادواردز العمل فى جمع الأموال بحماسها المعهود : فراسلت رجل الدين الأمريكى الأب ويليم كوبلى وينسلو ، الذى بدأ حملة صحفية باسم «فؤوس صان» . وانضم الشاعر وكاتب الأغانى چون جرينليف ويتيار ، وان يكن بتردد ، فكتب إلى أمين الصندوق يقول :

> سرنى أن لفت انتباهى إلى حفائر صان . وهو مشروع يروق لكل قارئ للكتاب المقدس ، وكل دارس للتاريخ وعجائب آثار مصر . ويسرنى أن أشارك فى ذلك ، وقد ترددت قليلا أمام اقلاق راحة بعض المومياءات القديمة لأناس ربما كانوا بالصدفة قد نادموا الفراعنة كأسا بكأس ، أو القوا قطعة عملة فى قبعة هوميروس ، أو خلعوا قبعاتهم هم تحية لمرور الملكة ديدو ، لكن الفضول تغلب على شعورى ، وها أنا أحذو حذو الدكتور هولمز [أوليڤر ويندل هولمز] فأرفق أمر دفع باسم الليفتناتت جوڤرنر آمز ثمنا لواحد من أفضل جواريفه .

ووعد سير ايراسموس ويلسون - الذى كان قد انتخب رئيسا للصندوق - بتقديم ١٠٠٠ جنيه ، ووعد مستر نادلر عضو الصندوق بدفع ٥٠ جنيها لتانيس إذا أمكن العثور على تسعة عشر شخصا آخر يدفع كل منهم المبلغ نفسه .

وكان نافيل قد زار المكان بالفعل ، وكله ثقة فى أنه سيكرر نجاحه فى تل المسخوطة باثبات صحة الكتابات المقدسة فضلا عن اثراء مجموعة المتحف البريطانى . غير أن نافيل انسحب فجأة ، زاعما أن ضغط العمل يمنعه من التوجه إلى مصر فى ذلك الوقت .وقال أعداؤه انه مولع للغاية بوسائل الراحة فى بلده ، وأن وصف والكينسون لمدينة تانيس بأنها «موطن صيادى السمك ، وملجأ الحيوانات المفترسة ، تتفشى فيها الزواحف والحمى الخبيثة» لا يمكن أن يكون قد راق لهذا الباحث الذى بلغ منتصف العمر . وعلى أى حال فقد عاد نافيل إلى اصدار «كتاب الموتى» تاركا مكانا شاغرا فى صندوق استكشاف مصر .

وأصبح الرجل الذى اختير لملء هذا المكان أشهر علماء الآركيولوجيا المصرية فى العصور الحديثة وأكثرهم نفوذا ، ورائد الأسلوب الأركيولوجى الحديث وأول أستاذ للمصريات فى انجلترا . كتب واضع سيرته يقول «لقد وجد الآركيولوجيا فى مصر مطاردة للكنوز ، وتركها علما» .

ولم يحصل ويليم فلندرز بيترى على تعليم رسمى لأن والديه كانا مرتبطين بحركة الاخوان المسيحيين الأصوليين الذين يؤمنون بالابتعاد عن «أدران» المجتمع العلمانى . وكان أبوه – وهو «سبتى» متشدد كتب ذات مرة لجاره طالبا منه «أن يسكت ببغاءه أيام الآحاد» – يعطيه دروسا عن التفسير الحرفى للكتابات المقدسة ، لكنه تركه وشأنه فى مجال التعليم الزمنى . وفى صباه ولع بالكيمياء والجيولوجيا وجمع العملات ، وأوصله هذا الأخير إلى المتحف البريطانى حيث اكتسب عينا حادة فى كشف التزييف .

وفى عام ١٨٦٦ قرأ الأب والابن «تراثنا فى الهرم الأكبر» واستولى عليهما حماس جديد ، وتصادف أن كان المؤلف – شارلز بيازى سمايث – فلكيا بارزا وصديقا للأسرة . وربما كان هذا – إلى جانب التقوى الشديدة – هو الذى زكى لدى آل بيترى نظريات الكتاب الغريبة ، وهى نظريات تستند إلى كتاب چون تايلور «الهرم الأكبر – لماذا بنى ومن بناه؟» الذى نشر فى عام ١٨٥٩ . وقد أكد تايلور أن الهرم الأكبر لا يمكن أن يكون من صنع الانسان : فهو أكثر كمالا فى أبعاده ، وأكثر تحديدا فى اتجاهه إلى نقاط البوصلة ، وأكثر قربا من خط العرض ٣٠ درجة ، من أن يكون من صنع بشر . ولا يمكن أن تكون البشرية قد وصلت إلى مرحلة التقدم التكنولوجى اللازم لبناء الهرم دون مساعدة فى هذا الوقت القصير الذى انقضى منذ خلق العالم

فى عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد . ومن ثم فلابد أن يكون قد بنى بارشاد الهى ، وحالما يفسر اتجاهه وابعاده تفسيرا صحيحا فستبلغ رسالة الرب إلى البشرية .

وباستخدام قياسات فايس وبيرنج لاحظ تايلور أن نسبة ارتفاع الهرم إلى محيطه هى نفس نسبة نصف قطر الدائرة إلى محيطها . ومن ثم فقد تمكن المصريون القدماء - بالارشاد الالهى - من تربيع الدائرة . وعلى اساس هذه النظرية افترض تايلور «بوصة هرمية» تمثل ١,٠٠١ من البوصة الامبراطورية ، وتشكل خمسة وعشرين منها «ذراعا مقدسا»

وأقام بيازى سمايث نظرياته على أساس مقياس تايلور ، وأكد أن أبعاد الهرم تقوم على هذا المقياس . وفضلا عن ذلك فان كل تقدم الحضارة من أيام الكتاب المقدس الأولى ترمز له الممرات والدرجات وتغيرات الانحدار التى تقود إلى رواق الهرم .

وامتلأ آل بيترى - الأب والابن - حماسا لهذه الأفكار ، التى بدت وكأنها تقرن النهج العلمى بسجل الكتاب المقدس . وكتب ويليم إلى سمايث معبرا عن حماسه مبينا أن بعد الشمس عن الأرض يعادل بدقة «من ١٠ إلى ٩ أمثال الارتفاع الرأسى للهرم الأكبر»- وهذا تأكيد آخر لأصله الالهى . وفى عام ١٨٧٠ كتب ويليم - وهو فى سن السابعة عشرة - إلى مجلة «الميكانيكا الانجليزية وعالم العلوم» يدافع عن نظرية الهرم ضد نقادها . وظهر «أبحاث عن الهرم الأكبر» - أول كتبه - فى عام ١٨٧٩ بعد أربع سنوات . . . وسعى الكتاب إلى اثبات «مبادئ تصميمه وبنائه المتميزة التى أعلنتها حكمة چون تايلور والبروفيسور بيازى سمايث» .

وجاءت أول فرصة يزور فيها ويليم بيترى مصر فى عام ١٨٨٠ ، عازما على اجراء مسح للهرم الأكبر بحثا عن أدلة جديدة لاثبات نظرياته . ورغم أن عمله كان قاصرا على الهرم فقد لاحظ فى ضيق النتائج المدمرة للحفائر التى تجريها مصلحة الآثار فى المقابر المجاورة .

> فلا يفوق لامبالاة العرب الوحشية ، الذين قاموا حتى بتجريد المرمر من فوق المعبد الجرانيتى منذ كشف عنه مرييت ، والذين لا يراقبهم أحد هنا ، الا النظرة الأكثر وحشية للآثار لدى من هم فى السلطة . . . . وأنه لأمر يثير الغثيان أن نرى المعدل الذى يدمر به كل شئ ، وقلة الاهتمام بالمحافظة عليه ، ولو خصصت

> مساحات بطول التل لمختلف متاحف الحكومات الأوروبية ، مع السماح لكل منها بأخذ كل ما يريد ، واعطائه سلطة الاحتفاظ به هنا ، فان من الممكن التوصل إلى شئ أكثر ارضاء ، فأى شئ سيكون أفضل من ترك الأشياء تتحطم بالجملة ، فاتلاف النصف مع الحفاظ على النصف الآخر أفضل من ترك الجميع للدمار .

وجمع بيترى عددا من القطع الصغيرة . فمع اقتراب الموسم السياحى من نهايته كان التجار الذين يتاجرون حول الأهرام على استعداد لأن يبيعوا ما فى مخازنهم بأسعار أقل ، وكان بيترى يعرف عن التزييفات ما يمكنه من الشراء بثقة ، فاشترى تماثيل البرونز والعملات والجعارين ، وكذلك قطعا صغيرة مغلفة من الخزف طلب منه جمعها الدكتور بيرس فى المتحف البريطانى . ويبدو أنه قد شعر بالدهشة - وربما صدم قليلا - حين نصحه ماسبيرو مدير الآثار بألا يعلن هذه القطع للجمارك بل يحملها فى جيوبه .

وكانت عروض الصحف لكتاب بيترى مشجعة عموما ، وتحمست له بوجه خاص «التايمس» و«ساترداى ريفيو» . وكتبت اميليا ادواردز باستفاضة ، واختتمت حديثها قائلة :

> ولا يمكن أن يكون هناك رأى آخر بشأن الأهمية الخاصة لكل من العمل الذى قام به فليندرز بيترى والكتاب الذى وضعه ، غير أن الأخير يخلو من الزهو إلى حد أن القراء قد لا يتبينون أهمية الخدمات التى أداها للتاريخ وللعلم .

وعرض بيترى الكتاب على بول فى المتحف البريطانى ، الذى لم يتردد فى أن يوصى بالشاب لصندوق استكشاف مصر ليحل محل نافيل ، وأيدت اميليا ادواردز التوصية بحرارة .

وتم التعاقد مع بيترى براتب ٢٥٠ جنيها شهريا ، تغطى تكاليف الحفر فضلا عن مصروفاته الشهرية . وأصر بيترى على أن تكون شروط استخدامه مختلفة عن شروط استخدام نافيل فى نقطة هامة : فقد أصر على السماح له بشراء الآثار الصغيرة التى قد يجدها عماله أو التى قد يأتى بها التجار إلى مكان الحفر ، وكان بيترى يعتبرها المواد الأساسية التى يمكن منها استخلاص التاريخ القديم . صحيح أن هناك مشكلة

القانون ، الذى يقضى بأن تكون كل الآثار - مهما كانت صغيرة - ملكا لمتحف بولاق ، لكن بيترى توصل إلى حل : فسيقدم نفسه إلى ماسبيرو ، ويطلب منه العمل فى مصر ، كوكيل للمتحف مرخص له بشراء الآثار باسمه . وفى النهاية يقدم المجموعة كلها إلى ماسبيرو ، طالبا فحسب أن يأخذ إلى الوطن الأشياء التى لا يريدها ماسبيرو ، وتقدم هذه الأشياء عندئذ إلى الصندوق ليوزعها بين المتاحف البريطانية والأمريكية ، مع «اشارة إلى أن المنح مقبولة للغاية» . وبدت هذه خطة ممتازة إذا ما قبلها ماسبيرو . وطلب من بيترى أن يسافر إلى مصر عن طريق باريس ، حيث زار مدير الآثار للحصول على موافقته ، ووافق ماسبيرو بسهولة ، بشرط أن يظل الترتيب سريا إلى أن يعود إلى القاهرة .

وسافر بيترى من باريس ليستقر في تانيس ، وكان نافيل عند زيارته لها قد وصفها بأنها مكان بشع ، وهو ما أكده بيترى من خبرته الذاتية :

> ان المساحة المنبسطة ، المستوية كسطح البحر ، والمغطاة ببحيرات مالحة تجف فى بطء ، يمكن السير فيها أميالا ، دون أى تغير سوى التغيرات الكئيبة بين الغبار والأوحال السوداء ، والمياه والأوحال السوداء مرة أخرى . . . . والشئ الوحيد الذى يقطع استواء الأفق المجدب هو تلال مدن الموتى ؛ فهذه وحدها هى التى بقيت لتبين أن هذه المنطقة كانت ذات يوم أرضا حية يزدهر سكانها فوق سطح الأرض . . . . وأول ما يلقى العين هى أكواخ العرب البائسة فى صان . . . . وإلى أحد جوانبها جدول موحل يلقون فيه أجساد جواميسهم النافقة ، ويشربون منه ، وإلى الجانب الآخر مستنقع ملئ بالقبور النتنة والقذارة ، لكن التلال العالية التى ترتفع خلف هذه الكتلة التى تثير الاشمئزاز من الأسماك الميتة والأطفال الأحياء والأوعية والذباب هى بقايا تانيس الرومانية والاغريقية ، وهى مدينة حسنة البناء والتنظيم .

وبنى بيترى لنفسه كوخا خشبيا صغيرا ، واستأجر نحو خمسين رجلا وامرأة وطفلا لتطهير المنطقة . وكان يصر على أن يقوم بالدفع لهم بنفسه حتى يتحقق من أن الأموال تذهب إلى أيدى من رآهم يعملون . وكان يبدأ العمل بنفسه ، ويتحقق من وجود الحفارين فى مواقعهم فى الساعة الخامسة والنصف كل صباح ، وينفخ فى

صفارته حتى يبدأوا العمل ، ثم ينسحب إلى كوخه مابين الساعة الثامنة والساعة التاسعة ، لكنه يظل يراقب عماله بتلسكوب عند بابه الأمامى . كان صاحب عمل صارم ، منتبها دائما للتكاسل ، وغير متسامح حين يجده . وكان يتناول يوميا الكينين والاستركينين ليقى نفسه من حمى المستنقعات ، ويعيش على أطعمة معلبة تأتيه من القاهرة ، ويحتفظ بيوميات يرسلها إلى الوطن لأسرته وأصدقائه المقربين ، وحين سمعت بذلك اميليا ادواردز رأت فيها فرصة سانحة واستخدمتها أساسا لسلسلة من المقالات فى «التايمز» ، أعطت نصف عائدها لبيترى ، وكتبت له فى نهاية موسمه الأول بعبارات تفيض حرارة واعجابا .

وفى تانيس كشف بيترى الغطاء فى عام ١٨٨٤ عن اثنين من أكبر المبانى التى أقامها قدماء المصريين : المعبد وتمثال رمسيس الثانى العملاق ، الذى اعتقد أنه أكبر تمثال ينحت ، كان مصنوعا من جرانيت أسوان الأحمر ، ولعل ارتفاعه الأصلى كان يبلغ نحو ١٠٠ قدم ، وكان يتخذ الوضع الكهنوتى ، وذراعاه إلى جانبه ، وقدمه اليسرى إلى الأمام – تمثال جليل وحيد ، يرى على مبعدة أميال عبر المستنقعات المنخفضة السوداء . ولم يتبق منه سوى شظايا .

غير أن ما كان يثير اهتمام بيترى لم تكن الآثار الهائلة بل الصغيرة ، فقد تبعثرت على الأرض فى موقع المعبد مئات الخرزات والتعاويذ المصقولة والأثاثات البرونزية والعاجية من بيوت العصر البطلسى ، وعملات من ڤيلات الرومان الثرية . ولم يكن أى من هذه الأشياء قد أثار اهتمام اسلاف بيترى – فلا هى مثيرة ، ولا ممتعة جماليا ، ولا مصنوعة من معدن ثمين – لكن بيترى كان قد بدأ يضع طريقة لتفسير ما تقدمه من مفاتيح لماضى مصر . وصنع صناديق خشبية ليضع فيها هذه التوافه المهملة ، وكان يغلفها بيديه .

وكانت القطع تؤخذ أولا إلى بولاق ، حيث ساء بيترى أن ماسبيرو استبقى منها للمتحف . كان هذه جزءا من الاتفاق ، لكن بيترى خامره شك خفى فى أنها موجهة لمحل المتحف حيث ستباع للسياح ، وحتى تلك القطع التى تجد طريقها إلى المجموعات الدائمة ستغرقها المحتويات غير المحددة وغير المصنفة فى صناديق العرض . غير أنه سُمح لبيترى بأن يأخذ معه مجموعة كافية عرضت فى معهد الآثار الملكى قبل أن تقسم بين المتحف البريطانى ومتحف الفنون الجميلة فى بوسطن .

وكان بيترى حريصا على العودة إلى مصر فى الشتاء التالى لمتابعة اكتشاف أجراه فى الجزء الغربى من الدلتا ، فقد اشترى ذات يوم بالصدفة تمثالا صغيرا من المرمر لمحارب منحوت جيدا من تاجر فى الجيزة ، رأى إنه اغريقى لا مصرى . وسأل أين تم العثور عليه فقيل له فى موقع يسمى نريب قرب كفر الدوار . ولم يجد بيترى مكانا بهذا الاسم ، لكنه لحسن الحظ التقى بتاجرين من الجيزة ، أخذاه إلى نبيرة التى قالا ان التمثال جاء منها . وسجل بيترى فى يومياته :

> أى وليمة من الخزف ، ان الأرض كلها كثيفة بالفخار الاغريقى . . . . ويبدا رجسا أن تسير فوق الأكوام والأوانى السوداء اللامعة تتكسر تحت حذائك . . . بدا الأمر وكأنى أسير بين حطام قاعة الزهريات فى المتحف ، ولم تمر بى أبدا نصف ساعة كهذه .

كان واضحا أن هذا موقع مستوطنة اغريقية غنية ، وأبقى بيترى كشفها سرا إلى أن تتاح له امكانية الحفر . وأتاح له الصندوق الفرصة فى شتاء ١٨٨٤ ، وبحلول شهر نوفمبر كان قد عاد إلى القاهرة يشترى المخازن ويضع الخطط . واستأجر بيترى منزلا ريفيا حجريا قديما قرب الموقع ، وبدأ يفحص الخزف ويسجله . ثم لاحظ قطعة حجر مكسورة استخدمت جزءا من عضادة بوابة منزله . وقد نقشت عليها كتابة باليونانية . وتبدأ الكتابة على النحو التالى «فى مدينة نوكراتيس هذه . . . .» . . . لقد اكتشف بيترى أهم مركز تجارى اغريقى فى العصور القديمة .

ويذكر هيرودوت أن نوكراتيس كانت هى المؤسسة الاغريقية الأولى الوحيدة فى مصر . وقد منحت احتكار التجارة فى القرن السادس قبل الميلاد ، وأصبحت أهم مركز اغريقى فى مصر قبل تأسيس الاسكندرية . وقد ظل موقعها موضع جدال بين علماء المصريات طيلة جيل .

وأسرع بيترى بارسال برقية بالنبأ إلى بول ، وبدأ فى البحث عن قوة عمل . وكان عليه أن ينتظر حتى انتهاء حصاد الذرة ، حين جاء القرويون إلى الموقع باحثين عن عمل . ومرة أخرى يعود بيترى صاحب عمل ورئيس عمال ، بادئا اليوم بصفارته ، ومراقبا العمل من خلال التلسكوب .

وكان من مصادر المضايقة المحلية من يسمون بالجيزاوية ، وهم تجار من الجيزة أثار

فضولهم الاكتشاف الجديد ، وأخذوا يتحلقون حول أطراف العمل محاولين شراء آثار . وأحيانا ماكان بيترى يتخفف من يوم حفر بمطاردتهم عبر الحقول ، واثبا عبر القنوات ومختفيا بين الاشجار . أما المضايقات من لندن فكانت أقل اثارة للقلق ، فقد كان كل من بول واميليا ادواردز يكتب له بانتظام سائلا عما حدث من تقدم ، وأحيانا ما يبلغان تعليمات متناقضة من الصندوق . وعندما تلقى بول البرقية بنبأ الاكتشاف رفض الاعلان عنه منتظرا تأكيدا . أما اميليا فقد كانت دائما حريصة على كسب تأييد جديد للصندوق ، وصممت حملة اعلانية شملت بيع قوالب طوب بدون قش ، كتلك التى أجبر الفراعنة القساة العبيد الاسرائليين على صنعها . أيتفضل بيترى بارسال ١٠٠٠ قالب كهذا من مدينة بيثوم؟ وأوضح بيترى أن الأتجار فى الآثار عمل محاط بالشبهات ، وأن التكلفة ستكون هائلة ، وأن من غير الأمانة القول بأن القوالب من صنع الاسرائليين لأن القوالب المصرية القديمة كثيرا ما كانت تصنع بدون قش . وألغى المشروع .

كان اكتشاف نوكراتيس نبأ مثيرا ، وخاصة فى الفرع الأمريكى من صندوق استكشاف مصر . وذكرت اميليا ادواردز - التى كانت مراسلاتها هى التى خلقت الفرع - أنه يضم ١٧١ مشتركا منهم «ثلاثة من عمداء الكليات وسبعة وعشرون من كبار رجال الكنيسة ، وتسعة عشر استاذا جامعيا بارزا ، واثنان وثلاثون من أعضاء الكونجرس» .

غير أن البحث العلمى يولد الجدال ، وقد قيل ان الاركيولوجيا ليست علما وانما ثأر ، وكان أعداء الصندوق فى الوطن يشحذون اسلحتهم . فقد حركت تقارير اكتشافات نافيل فى تل المسخوطة العداءات بالفعل ، وجاء نشر كتابه «بيثوم» فرصة للهجوم على الصندوق الذى سانده . وارتاب كل من بول ونافيل في نفوذ من أسمتهم اميليا ادواردز «الباءات» : فقد ظل بيرس وبادج فى المتحف البريطانى معاديين للصندوق ، رغم أنهما كانا أول المستفيدين من الآثار التى يأتى بها المنقبون قانونا إلي البلاد . وقد أعلن بيرس معارضته للصندوق منذ نشأته ، رغم أنه طلب من بيترى أن يجلب بعض الخزف ، وكانت الأولويات التى توصل واليس بادج إلى قبولها فى تقييم الآثار أقرب إلى أولويات التجار فى القاهرة ويلومسبيرى منها إلى فليندرز .

وكان بادج هو الذى كتب مسودة الرسالة التى بعث بها المتحف إلى الصندوق شاكيا من أن الآثار التى أهديت له عديمة القيمة ، وتقول الرسالة ان الأمناء لا يمكن أن

يوصوا بقبول «كمية كبيرة من الخزف والقطع الصغيرة التى لا تساوى شيئا من وجهة نظرنا» . ورغم أن الرسالة سحبت بعد ذلك فقد ثار غضب بيترى ، وكتب إلى اميليا يقول «ان العبارات الزائفة لهذه الرسالة ، وما تكشف عنه من جهل شنيع بالآركيولوجيا الحقيقية والعلمية تمنعنى من أن أتعامل مع هذه الجهة مرة أخرى» . وقد ظل على ابتعاده هذا بقية حياته .

وقد وقع هذا الحدث فى وقت غير ملائم ، فقبل شهر كان بيترى قد استقال من صندوق استكشاف مصر بعد أن ضايقه ما شهده فى ادارته من تبديد وعدم كفاءة ، وخيب أمله اختيار نافيل للقيام بحفائر الصندوق فى العام التالى . وهام على وجهه فترة بموارده الخاصة ، ثم كتبت إليه اميليا ادواردز - التى احتفظ بعلاقة طيبة بها - تنبئه بأن مبلغا كبيرا قد وضعه تحت تصرفه «رجل شديد الثراء والذكاء (من طبقة التجار) سافر إلى مصر ، وتشغفه الآثار المصرية» . كانت قد التقت بالرجل منذ فترة قصيرة فحسب ، لكنها شعرت بالفعل أنه قد يصبح «نوعا من سير ايراسموس ويلسون» . لكنها لن تبدأ العمل الا إذا وافق بيترى :«فاذا راقت لك المسألة فسأبدأ فى وضع ألغامى واعداد بارودى» .

وحاصرت اميليا چيسى هاورث ، وهو رجل أعمال ثرى من مانشستر . وسرعان ما وضع هاروث مبلغا تحت تصرف بيترى دون شروط مسبقة . وكتبت اميليا تقول : «انه رجل متدين ، واذا أمكنك إن تلقى أى ضوء على الكتاب المقدس . . . فسيرضيه هذا ، لكنه لا يريد السلب - ويود أن يبقى بعيدا عن الأضواء ، وأن لا يذكر بأى طريقة» . وانطلق بيترى فى عمله الحر بصحبة أكبر داعية وأسخى راع فى تاريخ الآركيولوجيا .

واذ تحرر بيترى من المشاغل المالية فقد كانت العقبة الرئيسية أمامه هى مصلحة الآثار ، وقد اصطدم مع جريبو - كما فعل بادج - وانما لأسباب مختلفة تماما ، كان بيترى حريصا على أن يحفر ويسجل لا أن ينهب ، وأثار قلقه أن موظفى المتحف يزيدون الدمار المكلفين بمنعه . وكتب يقول : «ان أفعال متحف بولاق فى مصر تذكرنى بذلك الطائر الأسود فى حديقتنا الذى اعتاد أن يلتقط أفضل عناقيد العنب ، ثم يأكل واحدا ، ويترك الباقى يتعفن على الأرض» . وكان على بيترى أن يتصل بجريبو للحصول على اذن بالحفر كوكيل مستقل ، وذكر جريبو أن الأنجليز قد منحوا بالفعل تصريحا بالحفر فى الدلتا وأسوان ؛ وهو يريد أن يترك الباقى للفرنسيين .

ويكتب بيترى شاكيا «ان المال هنا ، والعمل هنا ، لكن الكلب فى المذود فى فراش دافئ من القش ، ولا يريد له أن يضطرب» .

ومن سخريات الأمور أن الشائعات انتشرت بأن بيترى يهرب صناديق الآثار . وقد حرص على أن يوضح كل شئ لماسبيرو ، وأوضحت رسالة من المدير المعتزل الأمور ، لكن بيترى استشاط غضبا للربط بينه وبين أساليب بادج وهو ما رأى فيه اهانة له . وكتب إلى اميليا ادواردز يقول :

> وحين يعرف جريبو كيف تصرف الدب [اللقب الذى أطلقاه على بادج] فسيستشيط غيظا ، فهذا «المحبوب» أخذ ستة صناديق وقدمها لبولاق ، لكنه ترك ١٧ صندوقا آخر لكى تعامل باعتبارها عتادا عسكريا ، مما أثار ارتباك أصدقائه العسكريين . وبعد أن رحل ، جاءت هذه الصناديق السبعة عشر عبر النيل ، وكان لابد من ارسالها ، وكان أحدها كتلة تزن ثلاثة أرباع طن ، وإذ لم يمكن العثور على غلاف لها ، فقد شحنوها من أسوان فى عربات النوم فى القطار ، بعد أن سمرت بمسامير طول كل منها ست بوصات ! وانها لقطعة غريبة من العتاد العسكرى ، لكن الميجور باجنولد (وهو الذى أخبرنى) لفها فى خيش طلاه كله (بالبوية) ، ونقش عليه عنوانا رسميا ، وهكذا مضى الصندوق .

وبلغ من معارضة بيترى لنقل الكنوز من مصر أنه ساعد على تنظيم لجنة فى لندن ، نمت لتصبح جمعية للمحافظة على آثار مصر القديمة . وكان أعضاؤها الأوائل من الدوائر الفنية والفكرية فى العاصمة : اميليا ادواردز بالطبع والرسامون هوكمان هانت وبيرن - جونز وج .ف .واطز ، والبروفيسور أرشيبالد سايس أستاذ الأشوريات بجامعة اكسفورد وسير هوارد لابارد الذى أصبح سفير بريطانيا فى الآستانة . وأقنعت المجموعة سلطات مصلحة الآثار بفرض ضريبة تبلغ ١٠٠ قرش على كل سائح ، على أن توجه هذه الضريبة - إلى جانب رسوم دخول متحف بولاق ومبيعات الآثار فى محل المتحف - إلى اصلاح وصيانة بعض معابد طيبة وصنع أبواب لمقابر الملوك . وضغطوا من أجل تعيين مفتش انجليزى لاستقصاء التلف وتقديم توصيات . واقتنع لورد ساليسبورى وزير الدولة للشئون الخارجية بأن يكتب إلى سير ايفلين بارنج ، طالبا منه تقديم الاقتراح إلى الحكومة فى مصر .

ورغم تعاطف بارنج مع أهداف الجمعية فقد ظل حساسا لاستياء الفرنسيين . كان قد تخلى عن آماله الأولى فى ترتيب انسحاب مبكر للحامية البريطانية من مصر ، وتوصل فى منتصف ثمانينات القرن التاسع عشر إلى أن من غير الحكمة تحديد موعد لرحيل البريطانيين إذا أردنا إلا تنزلق مصر ثانية إلى «البربرية الشرقية الهادئة» التى كانت عليها فيما مضى . وكانت هناك امكانية ماثلة دائما هى أن الفرنسيين قد يدخلون حين يخرج البريطانيون . وكان مدى التدخل البريطانى فى الشئون المصرية وطبيعته مسألة حكم يومى لبارنج - فهى لم تبين ابدا فى المراسلات الرسمية - لكنه كان يدرك أن كل قرار يتخذه هو موضع فحص وانتقاد من جانب الفرنسيين ، الذين كان يعتبرهم معادين للانجليز حتى اخر رجل فيهم . وفى فبراير ١٨٨٨ كتب إلى لورد سالسبيرى يقول «انهم أناس غير معقولين ، ولديهم قدر من الحقد الذى لا شفاء له على انجلترا حتى أننى أخشى أى استعراض صارخ لسيادتنا فى مصر فى هذه اللحظة» .

كما كان بارنج يدرك على مضض أن الفرنسيين كانوا أول من اهتم بآثار مصر القديمة ؛ وهم وحدهم الذين أقاموا المتحف ومصلحة الآثار فى وقت كان البريطانيون فيه يفضلون ترك مثل هذه الأمور لاجتهاد الأفراد الخاصين . وكانت المصلحة هى آخر قلعة للنفوذ الفرنسى فى مصر تقريبا ، وكان بارنج يمانع فى التدخل فيها ، وخاصة حين تسعى إلى كبح نزعة التملك لدى مواطنيه . وقادته رغبته فى التقليل من أهمية اقتراحات الجمعية إلى عدم الاصرار على تأييد طلباتها ، وانتهى المشروع - الذى عارضه جريبو - إلى لا شئ . ونجح بارنج فى تكوين جمعية لتقديم توصيات بشأن توزيع تصريحات الحفر ، لكنه فى الأغلب بدا أنه سمح لجريبو بأن تكون له كلمته الحاسمة فى المناقشات . وفى احدى المناسبات توجه بيترى إلى بارنج شاكيا من تسويفات مصلحة الآثار وعدم كفاءتها ، ليجده متعاطفا لكنه عاجز . وذكر بيترى أن بارنج «كان حريصا تماما ولطيفا فى هذه الشأن ، لكن من الواضح أنه غير حر فى اتخاذ موقف قوى ، وكان يقول مرة بعد الأخرى - وهو يضرب المائدة بقبضته - «ان الصعوبة كلها هى هذا الرجل جريبو» .

وفى عام ١٨٩٢ نقل جريبو إلى فرنسا ، وانتعشت الآمال فى مستقبل أيسر . لكنه قبل أن يرحل نجح فى فرض لائحة جديدة من خلال مجلس الوزراء . ونصت اللائحة - التى صدرت فى ١٧ نوفمبر ١٨٩١ بمرسوم خديوى - على عدم السماح بأى

حفائر فى مصر دون اذن صريح من مدير المتحف والحفائر بعد أن تبحثه لجنة المصريات الدائمة . وكل ما يعثر عليه مملوك للدولة بحكم القانون ، ويجب أن يودع فى المتحف . واعتبارا للمصاريف التى ينفقها القائم بالحفر اقترحت الحكومة أسلوبا ذكيا لمكافأته : فتقسم القطع إلى جزأين متساويين فى القيمة ، تقترع عليهما الادارة والقائم بالحفر . وتحتفظ الادارة بالحق فى أن تشترى من القائم بالحفر أى قطعة من الجزء الذى وقع من نصيبه ، وتقدم الادارة عرضا يكون القائم بالحفر حرا فى رفضه واقتراح سعر أعلى . وعندئذ يكون أمام الادارة الخيار بين أن تشترى القطعة بهذا السعر ، أو تبيعه إلى القائم بالحفر بالسعر الذى عرضه فى الأصل .

ورغم أن هذه اللائحة تبدو معقولة فقد أدرك بيترى أنها تنطبق على علماء الآوكيولوجيا من صيادى الكنوز أكثر مما تنطبق عليه ، إذ سيضطر - لأنه لا يعرف ماذا سيسمح له بالاحتفاظ به - إلى أن يسجل كل شئ فى الموقع ، ثم يفقد نصفه للمتحف . وقد اعتبر فرض اللائحة عجزا من الدبلوماسية البريطانية عن حماية المصالح البريطانية ، وأخبر أصدقاءه أنه سيدرس طلب الجنسية الفرنسية أو الألمانية حتى يستطيع أن يحصل على ما يحتاجه من دعم ، وثناه أصدقاؤه ، وكان من حسن حظ المصريات البريطانية أنه بقى ، فهو لم يوسع نطاق الموضوع فحسب ، بل أضفى طابعا ثوريا على منهجيته .

وبعد ثلاثة أيام من فرض اللائحة - أى فى ٢٠ نوفمبر ١٨٩١ - بدأ بيترى الحفر فى تل العمارنة التى بناها الملك المرتد أخناتون ، حين هجر طيبة ونقل عاصمة مصر إلى هذا الموقع . وهناك كان هو وزوجته نفرتيتى - يحيط بهما عدد من المسئولين المختارين المخلصين - يعبدون أتون اله الشمس . وتل العمارنة هى مدرج واسع مفتوح فى التلال على مسافة تكاد تكون متساوية بين المدينتين المنبوذتين طيبة وممفيس . ورأى بيترى فيها أفقا مخيفا : «انها موقع رهيب فى التعامل معه . تخيل أنك بدأت فى استكشاف أنقاض برايتون ، فذلك هو حجم المدينة تقريبا» .

وسرعان ما وجد بيترى - فى منطقة القصر - ما وصفه بأنه «من الناحية الفنية أهم اكتشاف منذ تماثيل المملكة القديمة التى اكتشفها مرييت» . وهذا الاكتشاف هو رصيف القصر الملون ، الذى يبلغ ٢٥٠ قدما مربعا - بحافته التى حليت بالتبادل بباقات زهور اللوتس وأطباق الطعام ، وثمة ممر يعبر الرصيف ، رسمت على كل من جانبيه بحيرة تحوى اسماكا ونباتات : وحول كل بحيرة صور مشهد ريفى تلهو فيه

الأبقار بين الشجيرات ، وبط البلبول يرتفع من بين شجيرات البوص والبردى .

وصمم بيترى وأقام ممشى يعلو الرصيف بمقدار تسع بوصات حتى يستطيع الزوار المرور دون أن يتلفوه ، وغطى السطح كله بغطاء رقيق من «التابيوكة»[1] نشره برفق بأطراف أصابعه ، وجف ليصبح غلافا واقيا رقيقا . وأصبح الرصيف مزارا سياحيا كبيرا ظلت بواخر شركة كوك تدرجه فى جولاتها السياحية فى النيل عدة سنوات . ومن المؤسف أنه بالرغم من أن جمعية المحافظة على الآثار المصرية قد وفرت مظلة لحماية الرصيف ، فان شيئا لم يوفر للمرور من منطقة الرسو ، وكان السياح يطأون الحقول المزروعة وهم فى طريقهم إلى الموقع . وذات ليلة حطم القروى مالك الحقول الرصيف ، فقد كانت هذه هى الطريقة الوحيدة لانقاذ محصوله .

وفى العام التالى لاكتشاف بيارى - عام ١٨٩٢ - توفيت اميليا ادواردز مخلفة فى وصيتها هبة لاقامة كرسى استاذية للآركيولوجيا المصرية فى كلية جامعة لندن . وحددت الوصية ألا يؤهل لهذا المنصب كل من يشغل منصبا فى المتحف البريطانى مما يؤدى إلى استبعاد بادج ، ولا يزيد سن المعين عن أربعين سنة ، مما يعنى تصفية معظم المرشحين الذين قد يتصور أنهم مؤهلون لشغل المنصب . والواقع أنه كان فى ذهن اميليا مرشح محدد ، وأنها أبلغت رغبتها لمنفذى وصيتها .

وعين بيترى عن حق . وكانت شروط تعيينه تعترف بضرورة استمراره فى «أعمال البحث فى الاستكشاف النشط» ، وتسمح له بالتفرغ فى شهور الشتاء لمواصلة عمله فى مصر ، الذى اتخذ اتجاه الأبحاث فى حضارات ما قبل الأسرات فى وادى النيل .

فلما كانت الحفائر السابقة قد تركزت على الأعمال الفنية القيمة القابلة للبيع فانها لم تتوصل إلى الكثير عن أصول الحضارة المصرية . وتراشق علماء المصريات بالنظريات ، وكان أكثرها شيوعا هى أن حكام مصر جلبوا معهم حضارتهم من بين النهرين ، وفرضوها على الشعب المقهور . وقد اكتشف بيترى فى قفط - وهى بلدة صغيرة شمال الأقصر - تماثيل بدائية من حجر الجير للاله مين الحامى ، كان واضحا أنها أكثر بدائية من أى تماثيل سبق اكتشافها ، ثم أزاح التراب فى نقاده إلى الجنوب منها عن مدافن كبيرة تحوى آلاف الشظايا البدائية : سكاكين من الصوان وباليتات

(١) مادة نشوية على هيئة الدقيق من جذور بعض النباتات - نقلا عن قاموس المغنى الأكبر المترجم .

ورؤوس صولجانات حجرية ، فضلا عن خزف لم يصنع بالعجلة ، ولم يكن هناك أثر للكتابة فى أى مكان . وأدرك بيترى أنه وصل إلى حضارة أقدم من أى حضارة سبق تحديدها . وفى البداية ظن أنها لابد لجنس جديد من الغزاة ، ربما كانوا الليبيين ، لكن التصنيف الدقيق لأساليب الخزف بين أن الحضارة تطورت عبر فترة زمنية طويلة ، وأصبح واضحا أن من الممكن دراسة عصر ما قبل التاريخ فى وادى النيل دون حاجة إلى اللجوء إلى نظريات «الهجرة» .

وجلبت نهاية القرن تغييرا فى مصائر المصريات الانجليزية . كان ماسبيرو قد أقنع بالعودة إلى القاهرة مديرا للآثار . وقد شدد الاجراءات ضد الحفر غير القانونى ، ورتب تعيين ادارة الأشغال العامة لاثنين من المفتشين ، كليهما انجليزى ، أحدهما لمصر الوسطى حتى أبيدوس والآخر للجنوب . كما دفع ماسبيرو تقدم المصريات بمنحه امتياز أبيدوس لبيترى .

وتشتهر أبيدوس بأنها مدافن تنيس أول عاصمة أسرية فى مصر ، وموقع قبر أوزيريس حيث تجرى طقوس موت الاله وبعثه السرية سنويا . وكانت فى الأزمنة القديمة مكانا للحج ، ويرغب معظم المصريين إما فى أن يدفنوا فيه أو أن ترسل مومياءاتهم إلى هناك فترة من الوقت تعظيما للاله قبل الدفن النهائى . وكان كل من مرييت وماسبيرو قد حفر هناك واستخرج تماثيل لمتحف بولاق . وحاول بيترى عدة مرات الحصول على تصريح بالحفر لكنه رفض دائما لصالح الفرنسيين . وكان اميل أميلينا قد مُنح امتيازا فى عام ١٨٩٥ ، واستخدم قوة عمال كبيرة بحثا عن آثار يمكن تسويقها ، وادعى أنهم حملوا كل ماله قيمة وحطموا كل مالم يأخذوه إلى شظايا . ووجد بيترى أن للشظايا قيمتها ، فقد استطاع ، بتحديد أسماء الملوك من قطع الأوانى الحجرية وأختام الجرار ، وبالربط بينها حسب القرابة الفنية والاختلافات ، أن يرتب تتابعا تاريخيا . وحين عرض مكتشفاته فى لندن لاحظ بيترى أن هذه التوافه المهملة كانت تربى ذوق الجماهير : « لقد ظهر شعور عام جديد : فبدلا من عدم الاهتمام الا بالأشياء الجميلة ذات المظهر البارز تحلق الناس حول الموائد وقد خلبتهم شظايا الأسرة الأولى . وكان بعض العمال يقضون كل ساعة الغداء فى القاعة» .

وواصل بيترى حفائره السنوية طيلة أربعين عاما . وما من رجل آخر عمل فى مثل هذا العدد الكبير من المواقع ، أو حقق مثل هذا العدد من الاكتشافات الهامة . كما أنه أسس مدرســة جديدة أكثر مسئولية من الآركيولوجيين تمكنت - بتركيزها على

الأشياء الدقيقة الخاملة - من أن تكشف الغطاء عن فترة طويلة من التطور فيما قبل التاريخ .

وباستخدام أسلوب التسلسل الزمنى يمكن تحديد الحضارات الأكثر تقدما بقدر من الدقة . ويعمل التسلسل الزمنى على أساس مبدأ أنه حين تطرح الأشياء فان الشئ الذى سيلقى اليوم سيستقر فوق الشئ الذى القى بالأمس ، ومن ثم فان من المعقول أن نفترض أن الأشياء التى توجد قرب سطح الأرض أحدث تاريخيا من الأشياء التى توجد تحتها . وعند تطبيق هذا المبدأ على مختلف أساليب الخزف الموجود على مستويات مختلفة تمكن بيترى من تحديد سبع مراحل متتابعة من خزف ما قبل الأسرات ، ترتبط كل منها بالمرحلة التى تسبقها وبالمرحلة التى تليها بسمة واحدة مشتركة على الأقل . ويمكن افتراض أن القطع الموجودة المرتبطة بأساليب الخزف هذه تشترك فى السن . وشرح بيترى منهجه للمشتركين فى صندوق استكشاف مصر باستخدام تشبيه بسيط :

> فلو افترضنا - فى قصر ريفى قديم - أن احدى الغرف كانت تغلق ولا تمس عند وفاة كل مالك متعاقب فاننا عند مقارنة المحتويات سنرى بسهولة أى غرف ذات تواريخ متعاقبة ، ولا يمكن لأحد توقع أن تأتى غرفة من عصر الوصاية بين غرفتين من عهد مارى وعهد آن ، أو أن تأتى غرفة من عصر اليزابيث بين غرفتين أخريين من عهد چورچ الثالث . ويمكن التحقق من ترتيب الغرف بمقارنة كل الأثاث والقطع . وستكون لكل منها بعض الروابط فى الأسلوب بالغرف التى تليها ، وأشياء مشتركة أقل بالغرف الأخرى الأبعد عن فترتها . . . . وينطبق المبدأ على المقابر كما ينطبق على الغرف ، وعلى الخزف كما ينطبق على الأثاث .

وكانت أساليب بيترى رتيبة تستغرق كثيرا من الوقت ، إذ من الضرورى أن يسجل بعناية الموقع الدقيق لكل شئ . وكان هناك من يفضلون أن يحفروا بسرعة ، ويخرجوا بأغنى الجوائز . وما كان نافيل - بما تتسم به المدرسة القديمة من اندفاع ونفاد صبر - ليقبلها . وكتب يقول : «ان الأمر أشبه بأن ترسم خريطة لحبات الزبيب فى طبق من البودنج» .غير أن أسلوب بيترى كان هو الأسلوب الذى عاش ، والذى ساد

ممارسة الآركيولوجيا الميدانية . وحل اصراره على أهمية ملاحظة وتسجيل كل قطعة توجد ، مهما كانت متواضعة ، محل (لهوجة) أسلافه من صيادى الكنوز .

كما حقق بيترى اكتشافات هامة : فقد أعقب اكتشاف مدينة نواكريتس اكتشاف كاهون ، وهى بلدة متراصة مسورة من المملكة الوسطى ، والمدافن قبل الأسرية العظيمة فى نقادة ، وكنوز فى تل العمارنة ، ومواد أثرية جميلة من المقابر الملكية فى أبيدوس ، حيث تمكن- من خلال ما وجده - من ترتيب ملوك مصر الأوائل زمنيا . وما من أحد فى تاريخ علم المصريات توصل إلى مثل هذا العدد الكبير من الاكتشافات الآركيولوجية .

وأذ أصبحت تقنياته معروفة على نطاق واسع ، وبدأت تتبع فى الدوائر الآركيولوجية اقتنع بيترى بوضع كتاب تعليمى . ويحوى «أساليب وأهداف الآركيولوجيا» (١٩٠٤) دلائل لعلها تفسر لنا لماذا كان ذيوع صيت بيترى بطيئا . فهو حين يعدد المناقب اللازمة لعالم الآثار الجيد يذكر : الحاسة التاريخية القوية ، والتعليم الجيد فى الفنون والعلوم ، وقوة الملاحظة الحادة ، والذاكرة البصرية الدقيقة ، والقدرة على الرسم الدقيق ، وفهم لغات الحضارة القديمة التى يدرسها ، والقدرة على الحديث بلغة السكان المحدثين فى الأرض التى يحفر فيها ، والاستعداد للعمل ساعات طويلة بالفأس والجاروف ، وشروطا بدنية مثل «قصر أظافره وخشونة جلده . . . وما من بديل للعمل بالأصابع فى استخراج القطع ، وتطهير الأرض برقة ، والدعوة إلى الحفر بأصابع نظيفة وبشرة رقيقة أقرب إلى محاولة العزف على القيثارة بقفاز» . كما ينبغى لعالم الآثار المخلص أن يروض نفسه على متاعب المهنة : « فمن الأفضل للرجل الذى لا يستطيع أن يستمتع بعمله دون اعتبار للمظاهر ، والذى لن يتعرى ويهبط فى الماء أو ينسل فى حمأة الطين فى ممرات غير معروفة ألا يمتهن الحفر والتنقيب» .

وقدم بيترى فى كتابه نصيحة مفصلة عن اختيار العمال ، فأفضلهم من هو ما بين الخامسة عشرة والعشرين ، وبعدها «يتحول كثيرون إلى أغبياء» ، وعن الطريقة الصحيحة لمعاملتهم «فأفضل فئة من هؤلاء العمال هم الأصدقاء الشخصيون ، الذين يعتبرون كالخدم القدامى فى المنزل» . ومن الأفضل كثيرا الاستغناء عن مشرف عن الثقة فيه . وينبغى لعالم الآثار أن يعتمد على اشرافه هو ، ونظامُ «المفاجآت اليقظة» للعمال فكرة طيبة ، وصورته المثلى هى أن تقترب من موقع الحفر عبر أرض غائرة» . والتلسكوب بالغ القيمة ، كما تشهد الأقصوصة التى يذكرها بيترى حين كان يراقب

طابورا من النساء يخرجن من حفرة عميقة ويفرغن سلالهن عند القمة - وكشف التلسكوب أن السلال كلها فارغة .

وأصبح أسلوب حياة بيترى أسطورة ، فقد كان عليه أن يقسم كل أموال يحصل عليها بين احتياجاته واحتياجات الحفر ، ومن ثم فقد خفض احتياجاته إلى الحد الأدنى . وكانت لديه مائدة واحدة يعمل عليها ويتناول طعامه :

> . . . يضيئها عدد قليل للغاية من الفتحات فى الجدار تحت السقف مباشرة . وفى حوض عند منتصف المائدة صفان من الصفائح يحويان مختلف أنواع المواد الغذائية ، وقربها فتاحة علب . وكانت فكرته عن تسكين آلام الجوع حين تغدو حادة ، هى أن يأكل عشوائيا من عدة علب إلى أن تفرغ . وكان يعتبر أمرا مفروغا منه أن يحذو العاملون معه حذوه .

هكذا كتب مراقب أمريكى لمخيم بيترى ، وأضاف أن اثنين من زملاء بيترى ارتبطا بالخطوبة وهما يعالجان أحدهما الآخر من تسمم غذائى ، وكتب زائر أمريكى آخر يقول «ولابد أنه قد فقد كثيرا من مشاعر الرقة باستمرار العيش «فى خشونة» . كما كنت جالسا أتحدث معه حين خلع حذاءه أمام عينى وهو يهز الأحجار . ولم يكن يرتدى جوربا ، وبدت قدماه متربتان» .

> وقد ورد أفضل تلخيص لبيترى أثناء العمل فى سيرة حياة چيمس بريستيد أول بروفيسور أمريكى فى علم المصريات والذى وصل إلى مرتبة سامية فى هذا المجال . وكان بريستيد فى رحلة شهر عسل فى أول زيارة له لمصر حين قابل بيترى للمرة الأولى ، واستقبل بود فى مخيم بيترى :
>
> كانت ملابسه تؤكد ما اشتهر به من انه ليس مهملا فحسب بل رثا وقذرا عن عمد ، كان أشعث تماما ، يرتدى أسمالا ، وقميصا وسروالا قذرين ، ومن بين غرائبه الكثيرة أنه يفضل أن يحاكى مساعدوه اهماله . . . . ويقدم طعاما من السوء بحيث لا يتحمله الا ذوو البنية الحديدية ، وحتى هؤلاء كانوا يسكنون جوعهم باقتسام فول الفلاحين وخبزهم الأسود الأترف

نسبيا . . . . ولكن تبقى هناك حقيقة هى أنه لم يتحمل فحسب الممارسة المتسقة لما يدعو له ، لكنه بكل غرائبه . . . سجل فى النهاية سجلا قد لا يفوقه أحد فى تحقيق أقصى النتائج بأدنى المصروفات .

الفصل العاشر

فاصلة.. وخاتمة جليلة

كانت لوحات الفنان الأمريكى چوزيف لينكولن سميث من الواقعية بحيث تكاد تكون خادعة للنظر . وكان الفنان يصوِّر وريشته فى يده ، وهو يقف مثلا فى معبد مصرى ، وأمامه لوحتان متطابقتان ، وكان أداء سميث من الاتقان بحيث لابد أن يقال للمشاهد أيهما الأصل وأيهما الرسم . وقد أنفق چوزيف سميث (١٨٦٣ - ١٩٥٠) سنوات طويلة فى مصر وهو يصنع هذه النسخ المدهشة ، وخلال هذه الفترة سحرت لبه قصة «لعنة آتون» .

فحين خرج الملك أخناتون (١٣٥٣ - ١٣٣٥ ق .م .) عن دين أسلافه أزال كل صور الاله آمون - رع من العاصمة طيبة ، وطارد كهنة آمون . وبعد وفاة الملك عاد الدين القديم . وسمع چوزيف سميث قصة تقول ان الكهنة أصدروا حكما باللعنة على اخناتون . وتقضى اللعنة بأن تظل روح اخناتون وجسده يهيمان فى الفضاء منفصلين ، وألا يتحدا إلى الأبد .

وقرر چوزيف سميث أن يرتب أداء طقس تلجأ فيه الملكة تى أم أخناتون إلى آلهة العالم السفلى ، ممثلين فى الاله حورس ذى رأس الصقر ، طالبة العفو عن ابنها ، على أن يؤدى هذا الطقس أمام الجمهور فى وادى الملكات . وتقوم زوجة سميث بدور الملكة تى ، وهورتينيس فيجال - زوجة مفتش الآثار فى الأقصر - بدور اخناتون ، ويلعب سميث نفسه - رغم مظهره الوديع لصغر حجمه وهدوئه ورأسه الأصلع وشاربه المتهدل - دور حورس الاله الشمس ذو رأس الصقر . على أن يكون العرض

أكثر من مجرد حفل لهواة الدراما ، فقد كان الثلاثة يسعون بمحاولتهم المسرحية القصيرة إلى أن يتوصلوا إلى اتحاد روح اخناتون الهائمة وجسده .

وأعد النص بعناية بمساعدة مفتش آثار الأقصر «وعلى أساس البيانات الآركيولوجية» كما يكرر چوزيف سميث . وسعوا إلى موافقة ماسبيرو مدير الآثار وحصلوا عليها ، على أن يكون الحضور بالدعوة ، التى اتخذت - كما يسجل چوزيف سميث - شكل «وثيقة طويلة علمية ، تبدأ باقتباس من كتابات ديموطيقية» يحكى قصة اللعنة المأساوية .

وقبلت الدعوة كل أبرز الشخصيات فى ميدان المصريات : آل ماسبيرو وآل بيترى ولورد وليدى كارنارڤون وآل نافيل ولوجران وچ .اليوت سميث وچون جارستانج وهوارد كارتر وارنستو شياباريللى وغيرهم . وكان الممثل والمخرج الشهير هربرت بيربوم ترى فى الأقصر فى ذلك الحين ، واذ أعجبه النص فقد طلب توجيه الدعوة له .

وكان الممثلون فى حالة من الاستثارة فى (البروفة) الأولى والوحيدة ، التى أجريت قبل ثلاثة أيام من تاريخ العرض . وبدأت الأمور بداية طيبة إذ دخل سميث باعتباره الاله حورس . ثم دخلت هورتينيس ، وبدت غير مندمجة تماما فى دورها ، ويذكر سميث أن «افتقار تمثيلها إلى الحس الدرامى دفعنى كمدير مسرح إلى التدخل لتوجيهها» ، فاندفع إلى خشبة المسرح وهو يردد كلماتها باستمتاع بالغ لتأتى استجابة غير متوقعة : «فدون انذار قصف الرعد ولمع البرق وهبت عاصفة مفاجئة» أغرقت صوته . وحين توقف عن الحديث توقفت العاصفة فجأة أيضا . وواصل سميث عمله ، عائدا إلى دوره هو مرددا كلمات مقدسة ، ثم من بين ألسنة اللهب الحمراء ظهرت كورين ، واذ بدأت تغنى أنشودة أخناتون للشمس المشرقة ، هبت عاصفة حادة مطيرة ، وسقطت كرات كبيرة من البَرَد ، وهرع زملاؤها الممثلون بحثا عن ملجأ .

وتشجع چوزيف سميث من الحكمة المسرحية القائلة ان(بروفة) نهائية سيئة تعنى ليلة افتتاح ناجحة . وفى المساء رأت الممثلتان الرئيسيتان حلما متطابقا : كانت كل منهما تقف وحدها فى الرامسيوم حين قام التمثال الحجرى المكرس لآمون رع ببطء ، وفك ذراعاه ، وضربهما بمطرقته - هورتينيس على بطنها وكورين على عينيها . وفى الصباح التالى نقلت كورين إلى مستشفى القاهرة مصابة بأزمة رمد حبيبى حادة «وكان بصرها ميئوسا منه» وفى الغرفة المجاورة رقدت هورتينيس بعد عملية فى البطن

«كادت تكون قاتلة» . ويسجل سميث أنه «بعد ثمان وأربعين ساعة من (البروفة) كان كل ممثل وكل من حضر (البروفة) قد نقل من الأقصر بأزمة مرضية حادة» .

غير أن آرثر ڤيجل - مفتش الآثار - الذى يماثل عرضه للحادثة فى الجوهر عرض سميث - ظل غير مقتنع بأنها ترجع إلى كيد الموتى القدامى : «لا أعتقد أن امكانات هذا العامل الذى يقلل كثيرا من شأنه فى أحداث الحياة ، وأعنى المصادفة ، قد استنفدت فى البحث عن تفسير لمأساتنا . . . . لكننى فى الوقت نفسه أحاول أن يظل ذهنى متفتحا فى الموضوع» .

وكانت الخاتمة الجليلة فى الاكتشافات المصرية دراما آركيولوجية ذات أبعاد ملحمية . «بدأت مثل مصباح علاء الدين وانتهت بملحمة اغريقية لالهة الانتقام» ، على حد تعبير شقيقة بطل الملحمة الرئيسى چورچ ادوارد ستانهوب مولينو هوبرت ، الرياضى وجامع التحف الفنية ، وايرل كارنارڤون الخامس .

فبعد حادثة سيارة خطيرة تركت لورد كارنارڤون يعانى من صعوبات فى التنفس نصحه أطباؤه بقضاء الشتاء فى الخارج . ويقول ابنه انه «قرر فى عام ١٩٠٢ أن يتوجه إلى مصر فى نحو منتصف يناير بعد انتهاء موسم صيد الطواويس» . وهناك التقى باللورد كرومر الذى أثنى على البلاد ، لكنه قال انها تصبح مملة للغاية دون هواية ، واقترح الآركيولوجيا . واكتشف لورد كارنارڤون أنه يستطيع أن يرضى ميله لكل من القمار وجمع الآثار باستثمار أمواله وطاقاته فى الحفر ، فالميدان ملئ بالمفاجآت : فوسط نخالة وادى النيل يمكن لأى من الهاوى المتحمس أو الخبير أن يتعثر فى كنوز مدفونة ، ويمكن تقليل المخاطر باختيار المناطق الأقرب إلى أن تأتى بنتائج . وأدرك لورد كارنارڤون أنه بحاجة إلى وكيل يعرف الوضع المحلى ، واختار رجلا كان فى ذلك الحين يتعيش فى مصر كرسام بالألوان المائية - هوارد كارتر .

كان كارتر قد وصل إلى مصر عام ١٨٩١ فى سن السابعة عشرة ، متعاقدا على المساعدة في رسومات مسح آركيولوجى . وعمل مع بيترى فى تل العمارنة ، لكنه لم يثر اعجاب الرجل الكبير الذى كتب يقول : «ان كارتر صبى طيب ، كل اهتمامه بالرسم والتاريخ الطبيعى . . . . . وليس من نفع فى أن يعمل لدّى فى الحفر» . الا أن كارتر عمل مع ناڤيل وجريفيث وماسبيرو قبل أن يعين فى عام ١٨٩٩ فى مصلحة الآثار مفتشا عاما للآثار فى مصر العليا . وتسبب نزاع مع سائح فرنسى فى استقالته من

المصلحة عام ١٩٠٥ ، وهكذا فقد كان فى الوقت الذى التقى فيه بكارنارڤون يكسب عيشه ثانية بالرسم .

وعلى مدى السنوات الخمس التالية حفر كارتر وكارنارڤون فى خمسة عشر موقعا مختلفا فى منطقة طيبة ، مكدسين بالتدريج مجموعة من الآثار ، مسجلين بدقة أماكن العثور عليها . وفى عام ١٩١٢ نشر كارنارڤون - بالتعاون مع كارتر - «خمس سنوات من التنقيب فى طيبة» ، وهو سجل فاخر لعملهما معا .

كانت طموحات كارتر هناك عبر النهر ، فى وادى الملوك . فهنا حيث اكتشفت مدافن أعظم ملوك مصر - يكمن أفضل أمل فى تحقيق حلم كل المنقبين : اكتشاف مقبرة ملكية لم تمس .

ومنذ أن حقق بلزونى أول اكتشافاته قام عشرات الباحثين النشطين فى القرن التاسع عشر بدراسة الوادى . وكان بلزونى قد غادر المكان واثقا من أنه لم يبق فيه شئ يعثر عليه ، وأكد رأيه هنرى سالت الذى «أقام هناك أربعة أشهر ، وعمل بطريقة مماثلة للعثور على مقبرة أخرى ، لكن عبثا» .و قاس ليبسيوس المنطقة بأسرها بالدقة البروسية وأعلن ان كل شئ قد اكتشف . الا أن عالم المصريات الفرنسى ڤيكتور لورى - وكان حينئذ مديرا للآثار - اكتشف عند نهاية القرن خبيئة تضم تسع مومياءات للفراعنة فى مقبرة أمينوفيس الثانى .

ومنذ عام ١٩٠٣ كان امتياز الحفر فى وادى الملوك فى يد رجل الأعمال الأمريكى الثرى تيودور م . داڤيز ، الذى أشرف كارتر على حفائره الأولى . وقد نجح داڤيز فى الكشف عن مزيد من المقابر ، ونشر اكتشافاته فى ستة مجلدات ضخمة . ولما كان يحفر لحساب مصلحة الآثار فقد ذهب أروع ما اكتشفه إلى متحف القاهرة . وبحلول عام ١٩١٢ بدا أن الوادى وداڤيز قد استنفد كل منهما الآخر ، لكنه مانع فى التنازل عن الامتياز . وكان على كارتر وكارنارڤون أن ينتظرا حتى عام ١٩٢٤ حتى يتوليا المنطقة . ونص تصريح الحفر على أن «تجرى أعمال الحفر على حساب ومخاطر ايرل كارنارڤون على يد هوارد كارتر» ، وعلى أن يكون كارتر حاضرا دائما عند الحفر . ويتم تجديد التصريح سنويا حتى ١٦ نوفمبر ١٩٢٣ .

وعطلت الحرب العالمية الأولى بدء العمل ، فهرع كارنارڤون إلى انجلترا ، وعين

كارتر فى ادارة الخدمة المدنية لتنظيم كتائب العمل . وبعد جاليبولى[1] غزا الأتراك مصر فى عام ١٩١٦ ، لكنهم سرعان ما طردوا وهبطت حدة الحرب . وبحلول عام ١٩١٧ كان بوسع كارتر أن يبدأ حملته فى الوادى .

وكتب كارتر يقول «كانت الصعوبة هى أن نعرف أين نبدأ ، لأن جبال القاذورات التى ألقاها المنقبون السابقون تعرقل الحركة فى الأرض فى كل الاتجاهات» . ولم تكن لدى معظم هؤلاء المنقبين سوى فكرة واحدة فى بحثهم عن الكنوز المدفونة ، ولم يتركوا سجلات للمناطق التى بحثوها باستفاضة . وكانت الطريقة الشاملة الوحيدة لكى يبحث كارتر هى أن يحفر حتى القاع فى الوادى بأسره .

ولم يؤد موسم عام ١٩١٧ إلى شئ . وفى العام التالى جاء كارنارڤون إلى مصر ، وحفر الرجلان سبعة أشهر دون أن يكتشفا شيئا . وفى عام ١٩١٩ وصلا إلى خبيئة تضم ثلاث عشرة جرة من المرمر تحمل علامات رمسيس الثانى . وكتب كارتر يقول «لما كان هذا هو أقرب شئ إلى اكتشاف حقيقى أنجزناه حتى الآن فى الوادى فقفد كان طبيعيا أن يستثير حماسنا بعض الشئ» . وكان على هذا الحماس أن يجتاز بهما موسمين آخرين عقيمين فى عامى ١٩٢٠ و١٩٢١ ، حين لم يؤد الحفر فى الحرارة الشديدة للوادى المغلق طيلة الموسم إلى شئ .

وفى صيف عام ١٩٢٢ حين زار كارتر اللورد كارنا رڤون فى هايكلير قيل لهوارد كارتر ان البحث فى الوادى ينبغى أن يتوقف . كان كارنا رڤون قد أنفق نحو ٥٠٠٠ جنيه على الحفائر ، وكان قد بلغ السادسة والخمسين ، وصحته سيئة ، وثروته تعانى من ضغط تضخم ما بعد الحرب ، وكان قد فقد الثقة فى امكان العثور على مقابر أخرى فى الوادى ، وحتى لو تم الكشف عن ضريح ملكى آخر ، فالأرجح أنه سيكون قد سرق ككل المقابر الأخرى .

ورفض كارتر الاستسلام ، انه يريد موسما واحدا يفحص فيه البقعة الوحيدة التى لم يحفرها بعد فى الوادى كله ، وهو على استعداد لأن يدفع بنفسه أجور العمال لو أعطاه كارنارڤون الاذن بالحفر بمقتضى الامتياز ، ولو أنه نجح فسينسب الاكتشاف لكارنا رفون . وأمام هذه الروح السمحة وافق لورد كارنارڤون على تمويل موسم أخير قبل الانسحاب من مصر .

(١) بالتركية جاليبولو مدينة فى الجزء الأوروبى من تركيا تطل على الدردنيل ، وكانت هدفا لحملة الحلفاء فى عام ١٩١٥ . المترجم .

وكانت المساحة الصغيرة التي يعلق عليها كارتر آماله اسفل مدخل مقبرة رمسيس السادس - وهو موقع جذب سياحي - وإلى جانبها تماما . وكان قد اكتشف هنا مجموعة من أكواخ عمال الأسرة العشرين ، لكنه لم يحاول أن يحفر تحتها لأن الحفر سيعوق طريق السياح الذين يزورون المقبرة . الا أن كل المواقع الممكنة الأخرى فى المنطقة كانت قد استنفدت ؛ فليأت السياح فى المقام الثانى . وجمع كارتر العمال فى ٣ نوفمبر ١٩٢٢ ، وأمرهم أن يحفروا خندقا عبر منتصف الأكواخ تماما .

وفى اليوم التالى وصل كارتر إلى الموقع بعد الفجر بقليل ، وكان العمال يقفون فى مجموعة صامتة وهم يتطلعون إلى قاع الخندق . وحدق كارتر إلى اسفل - وهناك رأى - محفورة مباشرة فى الحجر الجيرى للقاع - درجة بيضاء نظيفة ، تقود إلى درجة ثانية ، ثم ثالثة ، وحتى القاع . وعندما وصل إلى الدرجة الثانية عشرة انكشف الجزء الأعلى من باب مغلق مطلى بالجص . وحفر كارتر ثقبا فى أعلاه ، وتطلع من خلاله ليرى ممرا مليئا بالأنقاض . انها يمكن أن تكون قاعة مدخل مقبرة ملكية ، أو مجرد خبيئة لعدد من القطع . وطهر العمال المدخل ليكشفوا أربع درجات أخرى . وعلى الباب نفسه كان خاتم كبار كهنة الدفن : ابن آوى مضطجع فوق تسعة من الأسرى الساجدين . كان هذا مدخل المقبرة ؛ ووجود خاتم الدفن يجعل من المحتمل أن تكون مقبرة ملكية ، وهى لم تدخل منذ تاريخ أكواخ العمال . ولما كانت الأكواخ قد بنيت لاقامة مقبرة رمسيس السادس من الأسرة العشرين فان كل ما يرقد خلف الباب لم يحرك منذ أكثر من ٣٠٠٠ سنة . وأمر كارتر بملء السلم بالأنقاض ، ونصب عليه حارسا ، وأرسل برقية إلى كارنارفون تقول : «أخيرا حققنا اكتشافا رائعا فى الوادى . مقبرة فخمة أختامها سليمة . يعاد كشفها يوم وصولك . تهانئى» .

وكان على كارتر أن ينتظر ثمانية عشر يوما قبل أن يصل راعيه . وأثناء هذه الفترة فكر فى الامكانات التى تكمن خلف الست عشرة درجة ، ودارت فى ذهنه - بسبب بعض المفاتيح التى التقطت فى المنطقة - مقبرة الملك توت عنخ آمون التى لم تكن قد اكتشفت بعد .

وكان تيودور م .دافيز قد اكتشف عام ١٩٠٧ غرفة صغيرة تحت الأرض فيها تمثال صغير مرمرى بلا كتابة وصندوق خشبى مكسور يحوى قطعا من أوراق الذهب منقوشا عليها اسم توت عنخ آمون وملكته . ووجد دافيز قريبها وعاء من الخزف المزجج نقش عليه اسم توت عنخ آمون ، واعتقد أن الغرفة السفلية لابد أن تكون مقبرة

الملك الخاوية المسلوبة . لكنه وجد كذلك على مقربة نحو دستة من الجرار الخزفية تحوى كتانا منقوشا عليه اسم توت عنخ آمون ، وزكائب تبن وملح وعظام طيور وحيوانات . وأرسل دافيز هذه الأشياء إلى متحف المتروبوليتان فى نيويورك ، حيث تبين لأمين الادارة المصرية أنها المواد التى كان يستخدمها المحنطون أثناء حفظهم لجسد توت عنخ آمون وبقايا الوليمة التى أقاموها بعد اكتمال العمل . وبدا واضحا أن توت عنخ آمون قد دفن حقا فى الوادى ، وربما فى مكان لا يبعد كثيرا عن المكان الذى عثر فيه دافيز على اكتشافاته .

وبدا من غير المحتمل أن توجد مقبرة ملكية فى مثل هذا المكان عديم الشأن ، وعلى مقربة من عتبة مقبرة أخرى ، لكن كل الامكانات الواضحة كانت قد استنفدت ، وكان كارتر متفائلا . ونصب فوق مكان اكتشافه لوحا حجريا رسم عليه شعار اللورد كارنارفون .

وفى ٢٣ نوفمبر أمر كارتر بتطهير السلّم انتظارا لوصول لورد كارنارفون . وظهرت أختام توت عنخ آمون دون أى لبس على الجزء الأسفل من الباب . وبعد ظهر اليوم التالى هبط لورد كارنارفون فوق الدرجات الست عشرة ، وانتظر أن يحطم كارتر الأختام . وعندئذ صدمتهم أول خيبة أمل : كانت أختام توت عنخ آمون على الجبس الأصلى ، أما خاتم سلطات الدفن فعلى الحاجز المرمرى ، لقد اقتحمت المقبرة ثم اعيد ختمها فى العصر القديم ، مما يفسر الأشياء التى عثر عليها دافيز والتى لابد أن اللصوص هم الذين نقلوها . كانت هذه نكسة ، لكن حقيقة أن المقبرة قد اعيد ختمها تشير الى أن السلطات رأت أنها مازالت تحوى شيئا له قيمة . وواصل كارنارفون وكارتر عملهما بتفاؤل حذر .

وفى ٢٥ نوفمبر ، وبعد ازالة الأنقاض من الممر المائل خلف الباب وجدوا كسرات من الفخار وجرارا من المرمر وأجزاء من أشياء صغيرة ، كلها تشير إلى أن المقبرة قد نهبت . وبعد ظهر اليوم التالى اكتشفوا بابا مختوما ثانيا يكاد يكون صورة طبق الأصل من الباب الأول على بعد ثلاثين قدما من المدخل . كان الباب يحمل خاتم توت عنخ آمون وسلطات الدفن الملكى . ومرة أخرى كانت هناك دلائل على أن الباب قد فتح ثم أعيد ختمه . وانتظرت المجموعة أن يقوم كارتر بالحركة التالية :

لقد حانت اللحظة الحاسمة ، وبيد مرتعشة فتحت شقا

صغيرا فى أعلى الزاوية اليسرى . وكشفت الظلمة والفراغ على المدى الذى يصل إليه قضيب الاختبار الحديدى أن ما قد يكون خلفه خال وليس ممتلئا كالممر الذى طهرناه لتونا . وأجريت اختبارا بالشموع كاحتياط ضد أى غازات فاسدة ، ثم وسعت الفتحة قليلا وأدخلت شمعة وحدقت فى الداخل بينما يقف لورد كارنارفون وليدى ايفلين وكالندر إلى جانبى فى قلق ليسمعوا ما سأقول . وفى البداية لم استطيع أن أرى شيئا إذ كان الهواء الساخن المندفع من الغرفة يؤدى إلى اهتزاز شعلة الشمعة ، ولكن حين اعتادت عيناى على الضوء بدأت تفاصيل الغرفة الداخلية تخرج من الضباب ، حيوانات غريبة وتماثيل ذهب - لمعة الذهب فى كل مكان . وللحظة - لابد أنها بدت دهرا للواقفين إلى جوارى - أصابنى الذهول ، وحين سألنى لورد كارنارفون فى قلق - وقد عجز عن احتمال الترقب - «أتستطيع أن ترى شيئا؟» كان كل ما استطعت أن أنطق به هو «نعم . . .أشياء رائعة» .

وفى الداخل كانت عربات مطلية بالذهب ، وتمثالان بالحجم الطبيعى للملك من الخشب المطلى بالقار وبصدارات وألبسة رأس ذهبية يواجه أحدهما الآخر ، وكانت هناك ثلاث أرائك مموهة بالذهب وجوانبها محفورة ، وأسرة ، وعلب صغيرة مرصعة ، وأوانى مرمرية . وعرش ذهبى مرصع بأحجار شبه كريمة تحيط به زهريات من الخزف المزجج ، وتماثيل صغيرة ، وأقواس وعصى للمشى ، وكومة من الأشياء القيمة كل منها يجعل الحفر يستحق ما أنفق عليه . وقام كارتر بتوسيع الفتحة ، وحدق رفاقه واحدا بعد الآخر فى العجائب الموجودة وراء الباب . وكتب كارتر يقول «ومن المؤكد أن مشهدا مذهلا كهذا الذى كشفت عنه أضواء مشعلنا لم يشاهد أبدا فى كل تاريخ الحفر» . لقد كان ٢٦ نوفمبر ١٩٢٢ هو «يوم الأيام ، وأروع يوم عشته ، ومن المؤكد أنه يوم لا آمل أن أرى له شبيها» .

وعادوا فى اليوم التالى ، وتمكنوا بمساعدة الأضواء الكهربية من فحص الغرفة بدقة . وكان من الواضح أن أحدا قد اقتحم الباب ، وأن القطع فى الغرفة قد اختلطت ، وان كان من غير المتصور أن يترك اللصوص كل هذه الأشياء القيمة

خلفهم ، ولعلهم قد بوغتوا . ولم تكن وظيفة الغرفة واضحة ، وبدا أنها مخزن للكنوز لكنها ليست مقبرة : فلم يكن هناك تابوت ولا مومياء . ورأوا في الجدار الشمالي ، فيما بين تمثالي الملك ، بابا مختوما فيه شق في أسفله جرى ترميمه ، ويسمح بمرور صبي أو رجل صغير الحجم . وتحت احدى الأرائك وجدوا فتحة صغيرة غير منتظمة لم ترمم في الجدار الغربي . لقد تسلل اللصوص إلى ما خلف الباب ، وحين أطل كارتر من خلالها رأى خليطا من الأشياء الجنائزية غير المرتبة وكأنما نبشها أحد على عجل . وكتب كارتر يقول ان اللص «قام بعمله باتقان زلزال» . وتبينوا أنهم في ردهة خارجية ، ومن الممكن أن تكون خلفها سلسلة من الغرف . يقول كارتر «ومرت في أذهاننا رؤى لغرفة وراء غرفة ، كلها حافلة بأشياء كتلك التي رأيناها ، وتركتنا مقطوعي الأنفاس» .

وحين اكتشفوا أن الغرفة الثانية - التي أسماها كارتر الملحق - مليئة بدورها بالقطع بدا واضحا أن هناك حاجة إلى المساعدة لتسجيلها وتصنيفها ، وأن كثيرا منها سيحتاج إلى مهارات المتخصص للمحافظة عليه من التلف عند اتصاله بالهواء . وطلب كارتر مساعدة متحف المتروبوليتان للفنون في نيويورك ، ومنح خدمات اثنين من الرسامين هما هاري بيرتون المصور وا .س .ماسي الآركيولوجي .وأجّل الفريد لوكاس مدير الادارة الكيميائية في الحكومة المصرية - الذي كان على وشك أن يحصل على اجازة لمدة ثلاثة أشهر - اجازته حتى يكون تحت تصرفهم . وقدم الدكتور الان جاردنر والبروفيسور جيمس هـ .بريستيد الأستاذان بجامعة شيكاغو خدماتهما في ترجمة النقوش . لقد نجح أروع اكتشاف في تاريخ علم المصريات في أن يجمع بين شخصيتين دوليتين في مشروع تعاوني .

ورتب كارتر لتنظيم افتتاح رسمي للمقبرة في ٢٩ نوفمبر بحضور فريق صغير من الضيوف البارزين من بينهم الليدي اللنبي زوجة المندوب السامي البريطاني ، ومدير المديرية وعدد من كبار الشخصيات المصرية وصحفي من جريدة «التايمز» اللندنية . وفي اليوم التالي وصل بير لاكاو - مدير مصلحة الآثار - حيث طافوا به الردهة الخارجية . وفي ٣ ديسمبر أغلقت الغرفة ثانية بالخشب الثقيل عبر الباب ، وردم السلم حتى سطح الأرض .

وفي لندن أعلنت صحيفة «التايمز» في ٣٠ نوفمبر ١٩٢٢ عن الاكتشاف باعتباره «ما يبشر بأنه أكثر اكتشافات علم المصريات اثارة في هذا القرن» . وفي اليوم التالي

نشرت مقالا بقلم واليس بادج يقيّم أهمية الاكتشاف بالنسبة للآركيولوجيا . أما عن الاكتشافات المقبلة فثمة رنة سخرية ما فى كلمات تعزية :

> ومن المخيب للآمال بالطبع أن اللصوص فى العصور القديمة نجحوا فى نقل كل المجوهرات التى لا شك أنها دفنت مع الملوك ، ولكن هناك على أى حال قدر كبير من المجوهرات فى متحف القاهرة ، وسيسعد كثير من الطلاب لاكتشاف هذه الأدوات الجنائزية أكثر من سعادتهم بالحلى الذهبية والأحجار الكريمة .

ذهب كارتر إلى القاهرة ليأمر بصنع بوابة حديدية تؤمن المقبرة دون حاجة إلى اعادة الدفن فى كل مرة يتوقفون فيها عن العمل . كما اشترى مواد كيميائية وفوتوغرافية وسيارة ، وصناديق شحن من كل الاحجام ومواد لتغليف الأشياء الرقيقة ، ومن بينها اثنان وثلاثون بالة من البفتة وأكثر من ميل من اللباد والضمادات الجراحية . وفى ١٧ ديسمبر ركبت البوابة الحديدية ، وفى ١٨ ديسمبر بدأت أعمال تطهير الردهة الخارجية والملحق .

ونفذ العمل بدقة . كان كارتر قد استوعب جيدا مثال بيترى منذ سنواته الأولى فى الحفر ، وأصر على أن تنقل كل قطعة باليد حتى يمكن تسجيل علاقتها بالقطع المجاورة لها . وكتب يقول :

> كان عملا بطيئا ، بطيئا إلى حد مؤلم ، ومحطما للأعصاب فضلا عن ذلك ، إذ يشعر المرء طيلة الوقت بثقل المسئولية . وهذا ما يجب أن يشعر به كل منقب ، إذا كان لديه أى ضمير آركيولوجى . فما يجده ليس مملوكا له ، يعامله كما يروق له . . . . انه تركة مباشرة من الماضى إلى العصر الحاضر ، وهو الوسيط المتميز الذى تأتى على يديه . . . .

وصورت كل قطعة وحددت بعناية وسجلت قبل أن تنقل ، يحميها اللباد والضمادات الجراحية . وكان من أجمل القطع صندوق صغير عليه رسومات راقية ، اعتبر كارتر أنه «يفوق أى شئ من هذا النوع أنتجته مصر حتى الآن» ، ويحوى عددا من القطع . وبلغت معالجة كارتر لمهمة حفظ كل التفاصيل وتسجيلها من المشقة أن استغرق تفريغ الصندوق منه ثلاثة اسابيع . وسجلت كل قطعة بعناية ، وعولجت

بالمواد الكيميائية الحافظة قبل أن تنقل خارج الردهة الخارجية إلى مقبرة سيتوس الثانى المجاورة ، التى استخدمت كورشة . وهناك أمنت خلف بوابة حديدية عليها كثير من الأقفال وتزن طنا ونصف طن . وكان آرثر فيجال مفتش الآثار من بين الرسميين الحاضرين :

ويوما بعد يوم كان الحشد المجتمع لمشاهدة نقل مختلف القطع يزداد حجما ، فها هى عربة لامعة تنقل إلى الورشة ، والآن صندوق مذهب ، والآن صينية عليها باقة من الورود أو مجموعة من الطرائف ، وإذ كانت كل من هذه الشحنات تنقل عبر الوادى كان الجنود المسلحون بالبنادق يسيرون خلفها ، ورجال الصحافة والزوار يعدون إلى جانبها ، يومضون بكاميراتهم ، ويدونون ملاحظاتهم .

وكتب كارتر يقول «ان الآركيولوجيا تحت أضواء المسرح تجربة جديدة مربكة إلى حد ما بالنسبة لمعظمنا» . وخلال أسابيع من اعلان اكتشافه تدفقت البرقيات من كل أنحاء العالم . وأعقبتها الرسائل ، بل ونصائح عن كيفية حفظ الآثار وطرد الأرواح الشريرة . وصدرت مطبوعات دينية وتنديدات ، فضلا عن عروض مجزية عن حقوق العرض السينمائى وعالم (الموضة) . وقالت «التايمس» فى ١٥ يناير ١٩٢٣ :

كل الطرق هذه الأيام تؤدى إلى توت عنخ آمون ، وأينما يركب المرء على طول ضفة القناة الزاهية الألوان وعبر المدافن المحلية المؤدية إلى وادى الملوك فسيجد خيطا لا ينتهى من الناس على ظهور الحمير أو على عربات (الكارو) ، عبر الطريق أو فوق التل ، وكلهم متجهون نحو المقبرة المكتشفة حديثا أو عائدون منها . والصبية عند كل منحنى يعرضون عليك تماثيل من الجبس لتوت عنخ آمون ، يمكن - بالمناسبة - أن تمثل أى ملك آخر . . . .

وجلب موسم عيد الميلاد زيادة كبيرة فى عدد السياح ، واجتذب الحجيج بعيدا عن بيت لحم ، وافتتحت سكك حديد الدولة المصرية خطا جديدا بين القاهرة والأقصر أسمته «خط توت عنخ آمون الخاص» .

ورممت القطع بعناية ، وغلفت وأرسلت إلى القاهرة . كانت هناك دلائل قليلة على أن المتطفلين في العصور القديمة قد فازوا بالكثير ، لكن كارتر وجد قاعدة ذهبية دون تمثالها ، ومن المؤكد أنه كان ذهبيا ، وقطعة نسيج لفت فيها حفنة من الخواتم الذهبية الخالصة ، وكأنما اللصوص قد فوجئوا وغادروا على عجل ، بل لقد تمكن من استخلاص أن المقبرة اقتحمت مرتين . وفى المرة الأولى لابد أن الممر فيما بين الأبواب الخارجية قد طهر ، لأن كارتر وجد أشياء من المقبرة مدفونة تحت الأنقاض . وكان اللصوص الأوائل مهتمين أساسا بالذهب والفضة ، لكن اللصوص الآخرين كانوا يسعون إلى الزيوت والشحوم الثمينة المخزونة فى الأوانى المرمرية ، وقد أفرغوها فى قرب ماء لسهولة نقلها . ومازال بصمة أحدهم واضحة على آنية أفرغت من الدهان .

وكان أكثر الاكتشافات اثارة هو الباب المختوم فى الجدار الشمالى للردهة الخارجية الذى يخفى أسرار المقبرة . وتنبأ كارتر بثقة بأنه خلف هذا الباب يوجد تابوت توت عنخ آمون ومومياؤه . وإذا كان على حق فان الملك الصغير الذى خلف أخناتون فى سن الثامنة عشر ، ودفن فى أقل المقابر الملكية في وادى الملوك اثارة ، سيكون الملك الوحيد الذى رقد دون ازعاج حتى القرن العشرين . وللمرة الأولى فى أكثر من قرن من الحفر فى وادى النيل كان القائمون بالحفر يعرفون عن يقين أن ما يرقد خلف الباب المغلق هو ما ترك يوم دفن الملك .

وأصدر كارتر وكارنا رفون بيانا عاما مشتركا فى ٣ ديسمبر ١٩٢٢ أكدا فيه ثقتهما فى أنه «من الأختام على الباب الذى لم يفتح بعد هناك كل الدلائل على أننا سنجد الفرعون توت عنخ آمون» . فرغم أن المقبرة قد سرقت فان وضع أختام كهنة الدفن ثانية يعنى أنه «أيا كان ما حدث للقطع المعدنية ذات القيمة فسيوجد الملك نفسه سليما» .وكان كارتر يعرف ما يرقد خلف الباب المختوم من دراسته لأوراق البردى ، وبوجه خاص لتخطيط مقبرة رمسيس الرابع المحفوظ فى تورينو : فسيوجد جسد الملك – طبقا للعادة القديمة – محفوظا فى قلب شبكة من ثلاثة توابيت ، تحميها سلسلة من (الناموسيات) الجنائزية ، وتمضى النبوءة لتقول«ستواجهنا نتيجة غنية بما يفوق الخيال وذات قيمة آركيولوجية كبيرة» .

وفى ١٦ فبراير ١٩٢٣ اتخذت مجموعة من عشرين شخصا بارزا بينهم آل كارنا رفون ووزير الأشغال العمومية المصرى وبيير لاكاو مدير مصلحة الآثار والبيرت م .ليثجو أمين الادارة المصرية بمتحف المتروبوليتان ، وعدد من رجال الآركيولوجيا

والمسئولين المصريين ، وممثل لصحيفة «التايمس» اللندنية ، اتخذوا مقاعدهم المصفوفة في الردهة الخارجية بعد تطهيرها ، في مواجهة جدار المقبرة الشمالي والباب المختوم الكبير . وكانت منصة صغيرة قد رفعت أمام الباب ، وخلع أفراد الجمهور ستراتهم توقيا لحرارة الظهر المبكر ، التي تزيدها المصابيح الكهربية . وصعد كارتر - شاحبا ، ساهما ، متطلعا - فوق المنصة وقرر باختصار أن الفضل في كل ما قام به وكل ما هو على وشك أن يكتشف ، يرجع كلية إلى اللورد كارنا رفون ، ثم استدار والمطرقة في يده إلى الباب المختوم . ويذكر آرثر فيجال أن الوقت كان الساعة الواحدة والدقيقة خمسين بعد الظهر تماما .

> . . . . وحين تردد صوت الضربات عبر الغرفة أصابتني رعشة وكأن شيئا يحترق في عروقي . كنت كأنني أرى الفرعون في الظلمة في الجانب الآخر من الباب يستيقظ من رقاده الطويل ويصغي . كان المصريون القدماء يعتقدون أن نوم الوفاة يستمر ثلاثة آلاف عام ، وإذن فقد حان الوقت ، ولعله قد بدا له أن يوم البعث قد جاء . . . .

وبعد عشر دقائق كان كارتر قد أحدث بمطرقته فتحة تسمح بمرور يده وهو يمسك مصباحا كهربيا إلى الداخل . وانعكس ضوء المصباح على سطح يلمع في الجانب الآخر من الجدار ، وأينما كان يوجه الضوء - على كل جانب ، صعودا وهبوطا - لم يكن يستطيع أن يرى خلف الانعكاس . وكتب يقول «ويقف - سادا مدخل الغرفة - ما يبدو واضحا أنه جدار من الذهب الخالص» ، وإذ أزاح كارتر مزيدا من الأحجار من الباب ، تمكن الحضور خلفه من رؤية الجدار الذهبي . وكتب يقول «كنا نستطيع - وكأنما بفعل تيار كهربي - أن نشعر بوخزة الاثارة التي هزت المشاهدين خلف الحاجز» .

وفي الساعة الثالثة والنصف بعد الظهر كانت الفتحة من الاتساع بحيث يمكن الزحف من خلالها . وكان بوسعهم أن يروا - على ضوء المصابيح الكهربية التي وجهت إليها - ضريحا ذهبيا ضخما على بعد ثلاثة أقدام أسفل الردهة الخارجية . كان ارتفاعه سبعة عشر قدما واتساعه أحد عشر قدما ، ويكاد يملأ الغرفة ، وهو مرصع بالذهب من القمة إلى القاعدة ، وعلى جانبي الضريح اطاران من الخزف المزجج

اللامع ، عليهما رسومات لرموز سحرية تكفل قوته وسلامته . وفقط عندما انحشر كارنا رفون وكارتر خلف الضريح رأيا أبوابا ذهبية فى الطرف الآخر برتاجات برونزية ثقيلة ، مغلقة ولكنها ليست مختومة . كانت هذه هى اللحظة الحاسمة : هل اقتحم اللصوصو الضريح؟ وسحب كارتر المزاليج ودفع الأبواب إلى الخلف ، وهناك رأى فى الداخل ضريحا آخر بأبواب شبيهة مغلقة بالمزاليج ، الا أن المزاليج هذه المرة كانت تحمل خاتما ، وكان الخاتم سليما ، ولم يعودوا يحتاجون إلى التغلغل إلى أبعد .

كتب كارتر يقول «أعتقد أننا فى تلك اللحظة لم نكن نريد ان نحطم الخاتم ، ذلك أن احساسا بالتطفل هبط بثقله علينا . . . شعرنا أننا فى حضرة الملك الميت ، ولابد لنا أن نوقره» . ويمكن أن يترك الملك فترة إلى أن تعبأ بأمان الكنوز التى ترقد فى الغرف الخارجية . وأغلق كارتر وكارنا رفون أبواب الضريح ، وتركا الغرفة الداخلية لكى يسمحا للضيوف برؤيتها . يقول كارتر «كان من الغريب ونحن نقف فى الردهة الخارجية أن نشاهد وجوههم وهم يخرجون واحدا بعد الآخر من الباب . كان كل منهم تعلو وجهه نظرة مذهولة محتارة ، وكل منهم يرفع يديه أمامه وهو يخرج ، فى ايماءة غير واعية بالعجز عن وصف الروائع التى رآها» .

ويبدو مدهشا أن كارتر وكارنا رفون قد قنعا بالانتظار ثلاثة أشهر قبل أن يكتشفا ماذا يوجد خلف الباب . كان كارتر يتمتع بقوة شخصية تمكنه من مقاومة اغراء تطهير المقبرة على عجل وكان بوسعه أن ينشغل بالعمل التحضيرى اللازم للمحافظة على ما عثر عليه وتسجيله ، دون حاجة إلى أن يسوى على عجل مسألة المومياء غير المكتشفة .

وهناك تفسير آخر لهدوء أعصاب كارتر : هو أنه كان يعرف تماما ماذا يوجد خلف الباب المختوم لأنه كان بالفعل قد اجتازه . والافتراض - الذى يمكن كذلك أن يفسر دقة نبوءة كارتر بما سيجد - هو أنه قد اقتحم الأبواب للمرة الأولى فى نوفمبر ١٩٢٢ حين دخل الردهة الخارجية مع لورد كارنارفون وليدى ايفيلين ، وأن الثلاثة قد فحصوا كل الغرف الداخلية ثم أعادوا ختم الأبواب ، وأن «الاكتشافات» التالية التى أعلن عنها بشكل واسع قد نظمت بحيث تحقق أقصى تأثير على الصحافة العالمية . وليس فى هذا الافتراض شئ غير محتمل أو حتى غير سليم ، فقد كان من حق كارتر وكارنارفون تماما - بمقتضى شروط امتيازهما - أن يدخلا المقبرة التى اكتشفاها ويبحثا فيها : ولعلهما أرادا التكتم عما يوجد خلف الحائط حتى يستطيعا أن يتحكما فى الوصول

إليه ، فأفضل وسيلة لذلك هى الكشف التدريجى على مراحل عن الغرف وكنوزها .

ثم قرر كارتر وكارنارفون وقف العمل . كان قد أصبح تقليدا أن يتوقف موسم الحفر وينتظر حتى تأتى برودة الخريف . وهكذا أغلقت الأبواب فى ٢٦ فبراير وسدت بوابة حديدية ثقيلة عززت بعوارض خشبية . ثم قامت قوة عمل تضم ثمانين عاملا بحمل مئات السلال من الرمال وقطع الحجر الجيرى ، وصبوا ما يبلغ وزنه ١٧٠٠ طن فى فتحة المقبرة . وانسحب كارتر إلى ورش العمل لينشغل بتصنيف وتعبئة القطع لشحنها إلى متحف القاهرة .

غير أن الصحافة أصبحت بسرعة مشكلة كبيرة ، فقد كان لورد كارنارفون قد أُقنع باعطاء حق تغطية الكشف لصحيفة «التايمس» وحدها ، على أساس أن هذا سيجنبه التعامل مع الطلبات المنافسة للصحف العالمية . وبالطبع كانت بقية الصحف تعارض هذا الترتيب . وقالت صحيفة «ديلى اكسبريس» ساخطة «انهم باعطائهم ما يمكن تسميته الحقوق الصحفية فى وادى المقابر لسيطرة «التايمس» وحدها يعاملون الاكتشاف مقدما وكأنه ملكيتهم الخاصة» . ومضت الصحيفة تقول «لكن الحكومة المصرية - بحماستها الوطنية التى استيقظت مؤخرا - تطرح الفكرة المضادة وهى أن توت عنخ آمون وممتلكاته كنز مصرى وطنى» . وكان هذا أمرا يمس عصبا حساسا . فقد بدا وكأن كارنارفون و«التايمس» يهنئان مصر إذ وفقت لأن يستكشفها انجليز يمتلكون الفضائل الوطنية ؛ فضائل النزاهة والاستقامة وطهارة اليد . ولكن المصريين لم يكونوا راضين عن أن يكون دورهم فى الاكتشاف هو دور الخدمة فحسب ، ولم يرق للصحف المصرية أن تعتمد على صحيفة أجنبية للحصول على تفاصيل ما يحدث فى بلدها هى . وأبدى وزير الأشغال العمومية تذمره : «انه لأمر لم يسمع به أن يكون علينا نحن المصريين أن نتوجه إلى صحيفة لندنية للحصول على معلومات عن مقبرة واحد من ملوكنا» . واشتكت صحيفة «اجيبشيان جازيت» من أن «المصريين فى لندن الذين قرأوا مقال لورد كارنارفون يشعرون بالسخط لأن الشكر لا يوجه للمصريين الا على الحراسة والخدمة» وقد قدرت «التايمس» الشعور المحلى فى مصر بشأن الاكتشاف على النحو التالى :

> غير أن الاهتمام بالكشف بين المصريين يتركز على قيمته فى ذاتها ، والخوف من أن تذهب كثير من القطع إلى أيد بريطانية . . . . ولا يبدو أن أى قدر من الحجج والتفسيرات يمكن

أن يرضى ذهن المصرى العادى فى هذا الشأن ، وجماهير المصريين مقتنعة اليوم بأن اللورد كارنا رفون قد سرق أقيم القطع فى الغرف .

وبدأ الوطنيون المصريون يلحون علنا على أن تباع الكنوز لسداد دين مصر الوطنى . واختلف كارتر وكارنارفون حول مسألة التصرف فى الكنوز ، فقد أرارد كارتر أن تبقى محتويات المقبرة سليمة فى جناح خاص فى متحف بولاق . وأكد أنه إذا تنازل كارنارفون عن كل حقوقه فستكون الحكومة المصرية سخية فى تعويضها . وأصبح الخلاف بينهما معروفا علنا ، وهللت الصحف ، وقالت «لندن ستار» : «حيثما توجد الجثة تتجمع النسور» . لقد انقضت تلك الأيام التى كان الخلاف فيها مع منقب منافس يسوى - كما يذكر كارتر - «بالتوجه إليه ببندقية» . لكن الخلاف بين الرجلين استمر ، وكان لابد من تسويته تحت وهج الاعلام العالمى والسياسات الوطنية المتضمنة . ولم يحل الخلاف بين كارتر وكارنارفون كلية أبدا .

وفى ربيع عام ١٩٢٣ - كما تقول مذكرات لورد كارنارفون الحالى - «الدغت أبى المسكين بعوضة وهو نائم . وفى اليوم التالى - ولأنه يحلق دائما بموس يدوى قطع أعلى اللدغة لكنه رأي أن من غير الضرورى أن يفعل شيئا غير أن يضع قطعة قطن مغموسة بصبغة اليود على الجرح» . وبدأ تسمم الدم ، وفى ٥ ابريل ١٩٢٣ توفى لورد كارنارفون فى سن السابعة والخمسين . ووصف بيترى وفاته بأنها كارثة ، لأنه مول البعثة بأكملها ، ولا يبدو أن هناك من سيواصلها . وقال بيرسى نيوبيرى - الذى جمع الرجلين معا - :«لم يحدث فى تاريخ البحث الآركيولوجى حدث مأساوى مثل وفاة لورد كارنارفون» . ويبدو أن المأساة الحقيقية هى أن كارنارفون قد توفى دون أن يعرف ما إذا كان طموح بعثته قد تحقق : هل ترقد مومياء توت عنخ آمون فى الغرفة الداخلية أو لا؟

وفى خريف عام ١٩٢٣ بدأ كارتر فى تسوية المسألة مرة وإلى الأبد ، وكانت أرملة كارنا رفون قد وافقت على أن يواصل عمله بالشروط السابقة نفسها . وبدأ تطهير السلم من الألف وسبعمائة طن من الأنقاض فى ٢٣ اكتوبر ، واستكمل فى ٢٠ نوفمبر ، حين ركبت الأنوار الكهربية وأمر كارتر رجاله ببدء العمل فى المقبرة . «بدأوا بتحطيم حائط الجبس الذى يفصل الردهة الخارجية عن قبو الدفن ، وتركيب معدات الرفع لنقل الأضرحة .

واستغرق تفكيك الأضرحة أربعة وثمانين يوما . واحيط كل ضريح بحبل يحمل اختاما وعقدة سليمة ، كانت المقبرة سليمة . وكانت أبواب كل ضريح مغلقة بمزاليج من الأبنوس ، ومع ازالة الأغلفة واحدا وراء الآخر كان الذهب يلتمع ببريق أكبر . وأخيرا وصلوا إلى الضريح الرابع والأخير ، وقطع الحبل ، وأزاح كارتر المزاليج الأبنوسية ، وحين فتح مصاريع الأبواب رأى «تابوتا أصفر هائلا ، سليما مازال غطاؤه مثبتا فى مكانه ، تماما كما تركته الأيدى الورعة» .

وسيكون الاجراء النهائى هو فتح التابوت ، حين سيكشف جسد توت عنخ آمون للمرة الأولى منذ ٣٠٠٠ عام . وحدد يوم ١٢ فبراير للقيام بذلك ، ودعا كارتر تسعة عشر ضيفا : اثنين من المصريين ، الحاكم المحلى ومسئول بوزارة الأشغال العمومية ؛ وثلاثة من الفرنسيين - منهم بالطبع بيير لاكاو مدير الآثار - وعددا من علماء الآركيولوجيا الانجليز والأمريكيين ، بينهم ممثلون لمتحف متروبوليتان وجامعة شيكاغو وجامعة ليفربول ومتحف القاهرة .

واكتشف أن هناك صدع فى غطاء التابوت المصنوع من الجرانيت الوردى ، مما يجعل رفعه صعبا . ووضعت زوايا حديدية على طول كل جانب من جوانب الغطاء حتى يمكن رفع الجزأين معا . ونزل الضيوف (باستثناء النساء اللاتى منعن من الدخول) ليشهدوا رفع غطاء التابوت . ويصف كارتر هذه اللحظة على النحو التالى :

> ووسط الصمت المطبق ارتفع اللوح الضخم ، المكسور إلى جزأين ، والذى يزن أكثر من طن وربع طن ، من فوق قاعدته ، وأشرق الضوء من داخل التابوت ، ووقعت أبصارنا على شئ حيرنا فى البداية . وخيب آمالنا قليلا ، فقد كانت المحتويات مغطاة كلية بأكفان من الكتان الرقيق . واذ كان الغطاء معلقا فى الهواء أزحنا هذه الاكفان واحدا بعد الآخر ، وعند ازاحة آخرها أفلتت من شفاهنا صيحة دهشة ، فكم كانت روعة المشهد الذى وقعت عليه أبصارنا : تمثال ذهبى للملك الصبى رائع الاتقان يملأ داخل التابوت بأسره .

وغادر الفريق المقبرة مذهولا بما رآه ، ومازال غطاء التابوت معلقا فى الهواء . ونشرت «التايمس» نبأ الاكتشاف فى اليوم التالى ، معبرة فى افتتاحيتها عن ابتهاجها لأن كارتر وزملاءه «قد تطلعوا إلى ما لم تره عين طيلة اثنين وثلاثين قرنا - التابوت

والوجه المنحوت للملك دفن قبل أن يشدو هوميروس بخمسمائة عام ، وبينما شعب اسرائيل لا يزال فى العبودية فى مصر . . . . . ان خدمة جليلة قد أديت للفن والتاريخ ، ومهمة عظيمة قد انجزت بأمانة وحكمة ومهارة رفيعة» .

الا أن الاحتفالات تعطلت فى المقبرة نفسها . وكان كارتر قد اعتزم أن يصحب زوجات معاونيه إلى هناك في اليوم التالى ، لكنه اكتشف أن الشرطة وضعت فى الموقع مع تعليمات بمنع النساء ان حاولن الدخول . ورفض زملاء كارتر مواصلة العمل ما لم يسمح لزوجاتهم برؤية ثمار عملهم . وفى غضبة احباط توجه كارتر إلى المقبرة ، وقطع التيار الكهربى ، وأغلق الباب الحديدى ، ووضع مفاتيحه فى جيبه . وأمر لاكاو مدير الآثار كارتر بأن يسلمه المفاتيح ، لكنه رفض . وفى البرلمان البريطانى سئل وزير الخارجية عما إذا كان سيتصل بحكومة الولايات المتحدة لتقديم احتجاج مشترك ، لكن رامزى ماكدونالد رد بأن هذا الاقتراح ليس مناسبا فى الوقت الحالى .

وبقى أكثر من طن وربع طن من الجرانيت الصلب معلقا فوق مومياء توت عنخ آمون بمعدات مجهزة لرفع أوزان ثقيلة لا لحملها لفترات طويلة . ولاحظت الصحف العالمية ذلك . وفى باريس طالبت صحيفة «چورنال دى ديبات» بأن يسلم كارتر المفاتيح للاكاو ؛ ولم تبطئ «التايمس» فى أن تتعرف فى المسألة على النفوذ الفرنسى : «من المؤسف أن الاحتكاك الذى أدى إلى اغلاق المقبرة وتوقف العمل فجأة . . . . . يرجع إلى حد كبير . . . . إلى تأثير مكائد من الخارج» .

وفى ٢٠ فبراير صرحت الحكومة المصرية للاكاو بأن «يعيد فتح المقبرة ، ويستأنف العمل فى أقرب وقت ممكن» . وقدم اقتراح لعلماء المصريات فى متحف متروبوليتان فى نيويورك بأن يتولوا العمل ، ورفض الاقتراح . وأعلن لاكاو أن كارتر حر فى مواصلة العمل على حساب الحكومة المصرية وتحت رقابتها ، لكنه رفض بدوره ، معلنا أنه لن يضع قدمه فى المقبرة مرة أخرى . وفى ٢٢ فبراير قاد لاكاو - ومعه قائد الشرطة وعدد من رجال الشرطة المسلحين - مجموعة من العمال المزودين بالقضبان والفؤوس والمناشير إلى المقبرة . ويردوا السلاسل التى تمسك بالأقفال ، وحطموا مزاليج البوابة الداخلية ، وعبروا الردهة الخارجية إلى غرفة الدفن . كان غطاء التابوت الجرانيتى مازال معلقا فوق جسد توت عنخ آمون ، فوضعوا عوارض من الخشب أعلى التابوت المفتوح وأنزلوه عليها .

ورغم أن الحكومة المصرية استولت على المقبرة بالقوة فقد بقيت مسألة ملكية

كنوز توت عنخ آمون . وكانت شروط الامتياز الأصلى الممنوح لكارنا رفون تنص على أن المقابر التى «تكتشف سليمة تسلم إلى المتحف (المصرى) كاملة دون تقسيم» ، إذ لم يكن متوقعا أن توجد مثل هذه المقابر . أما فى حالة «المقابر التى سبق أن فتشت» - وهذا هو شأن كل المقابر التى سبق اكتشافها - فان المتحف يحتفظ بالحق فى كل المومياءات والتوابيت «وكل القطع ذات الأهمية الكبيرة من زاوية التاريخ والآركيولوجيا» . أما ملكية بقية القطع فلم تكن محددة بوضوح ، لكن الامتياز نص على أن «يعوض نصيب صاحب الامتياز بدرجة كافية ما تحمل من مشقة وعمل فى المهمة» .

وكانت هناك شواهد واضحة على أن مقبرة توت عنخ آمون قد «فتشت» ، وكان آل كارنارفون يتوقعون مكافأة ما عن قضائه خمسة عشر عاما فى العمل فى الوادى . غير أن النصوص القانونية التى تحكم الحفر فى مصر منذ عام ١٨٣٥ لم تؤثر بشدة على نشاط العاملين فيه ، ولم تكن لدى آل كارنارفون آمال كبيرة فى انفاذ ما يعتبرونه حقوقهم القانونية . ويذكر وريث التركة أنه اتصل بالقنصل البارز سير ادوارد مارشال هول مستشار الملك طالبا النصيحة وأبلغه هذا أن القضية ستنظرها محكمة من خمس قضاة : أحدهم انجليزى والآخر فرنسى والثالث ايطالى واثنان من المصريين ؛ «وسيتلقى المصريان تعليمات بشأن الحكم الذى يصدرانه ، ولضمان النتيجة تماما فسيجرى شراء الايطالى . . . ولذا فقد نسيت هذه المسألة الكريهة» .

ورفع كارتر وليدى كارنا رفون قضية أمام الحكومة المصرية ، وفى ١٢ مارس ١٩٢٤ حكمت محكمة مختلطة فى القاهرة لمصلحتهما . الا أن المحكمة كانت عاجزة عن انفاذ حكمها أمام معارضة الحكومة المصرية ، ونقضته محكمة استئناف فى الاسكندرية أعلنت فى ٢ أبريل أن «المحاكم المختلطة ليس من سلطتها التدخل فى القرارات الادراية للحكومة» . وأعادت الحكومة المصرية تأكيد سيادتها بمنع كارتر وأفراد أسرة كارنا رفون من دخول مقبرة توت عنخ آمون مرة أخرى .

ولقيت القضية حملة اعلامية واسعة ، فقدمت أسئلة فى البرلمان ، لكن الوزراء - ادراكا منهم للنزعة الوطنية النامية فى مصر - حرصوا على تجنب التورط . ولم ير رامزى ماكدونالد رئيس الوزراء العمالى داعيا للتدخل . وفى ١٢ فبراير ١٩٢٤ أخبر مجلس العموم أن «هوارد كارتر فى عمله فى الحفائر فى مصر فرد خاص ، ويخضع لأحكام قانون الآثار المصرى» .

وكان يمكن لهذا المسألة أن تنتهى ، وأن ينهى كارتر أيامه فى جولات محاضرات مجزية فى أمريكا التى وجه لها جهوده حينئذ ، لو لم يتم اغتيال السير لى ستاك القائد العام فى مصر وحاكم السودان فى القاهرة فى ١٩ نوفمبر ، فقد اتخذت البوارج البريطانية مواقعها أمام الاسكندرية ، واستعرضت القوات البريطانية فى القاهرة ، وطلبت التعويضات من الحكومة المصرية ، واستقال زغلول باشا وحل محله زيوار باشا ، وهو سياسي أكثر انقيادا للمصالح البريطانية . ودعى كارتر إلى القاهرة حيث التقى برئيس الوزراء الجديد والحكومة لمناقشة شروط بدء العمل ثانية . وفى ١٣ يناير ١٩٢٥ حدث تبادل للرسائل بين كارتر ووزير الأشغال العمومية تنازلت فيها الكونتيسة كارنارفون عن مطالبها فى مقبرة توت عنخ آمون ، ووعد الوزير بالسماح لها مقابل ذلك باختيار القطع المكررة من الأشياء التى وجدت يها . وأعيد فتح المقبرة فى ٢٥ يناير ، وتولاها كارتر مرة أخرى .

وبحلول الخريف التالى كانت المقبرة قد أخليت ، وركبت معدات الرفع والأنوار الكهربية للسماح برفع غطاء التابوت ثانية . وفى الداخل كانت هناك ثلاثة توابيت ، مركبة فى بعضها بعضا ، وكان التابوت الداخلى - وطوله ستة أقدام - من الذهب الخالص ، ويحوى جسد الملك الشاب المحنط ، ورأسه يخفيها قناع ذهبى يغطى الوجه والرقبة والصدر ، وقدما الملك فى (صندل) ذهبى ، وكل من أصابع قدميه ملفوف على حدة فى ورق ذهبى . وتحمل المومياء نفسها اكليلا ملكيا ذهبيا على الرأس وأربع باقات ذهبية ، وتعاويذ ورموز مقدسة ، وثلاثة عشر سوارا مرصعا بالأحجار شبه الكريمة ، وخمسة صدارات من الذهب والجواهر . ووجد كارتر بين لفائف الجسد ١٤٣ قطعة ثمينة من الذهب والجواهر . وكعادته كان منهجيا ودقيقا فى تسجيل كل قطعة والمحافظة عليها . غير أن التجربة لم تتركه بلا انفعال :

> فى مثل هذه اللحظات تفلت الانفعالات من كل تعبير لفظى مهما كان معقدا ومثيرا ، أن ثلاثة آلاف سنة وأكثر قد انقضت منذ أن حدقت عيون البشر فى هذا التابوت الذهبى ، والزمن - إذا ما قيس بقصر الحياة البشرية - يفقد على ما يبدو منظوراته المشتركة أمام مشهد يذكّر بصورة حية بالطقوس الدينية الرصينة لحضارة اختفت . لكن من غير المجدى أن نغوص فى مثل هذه العواطف . . . .

فالجانب العاطفى ليس جزءا من البحث الآركيولوجى .

وخلف غرفة الدفن كان يوجد مخزن صغير لم تسد إبوابه بالطوب ، أسماه كارتر الخزينة الداخلية ، وبعد أن القى نظرة على محتوياته أمر باغلاقه حتى لا يصرفه عن تفريغ غرفة الدفن ، ومن العلامات الأخرى على صبر كارتر الذى يفوق صبر البشر أن الغرفة ظلت مغلقة أربع سنوات .

وفى مدخل المخزن كان تمثال الاله أنوبيس فى شكل ابن آوى يحرس الكنوز فى الداخل ، وخلفه على الأرض شعلة صغيرة من الغاب بقاعدة صلصالية تحمل رقية تقول «لطرد عدو أوزوريس فى أى شكل يأتى به» . وعلى طول الجدار الجنوبى كثير من الصناديق السوداء المغلقة ، وعلى الحائط المقابل صف من صناديق الكنوز المرصعة بالعاج والأبنوس والمطلية بالجص .

واستغرق الأمر عامين لكى تفرغ محتويات هذه الصناديق وترسل إلى المجموعة المثيرة فى ثرائها إلى متحف القاهرة . وعرض أكثر من ٢٠٠٠ قطعة هناك أمام دهشة العالم . وسويت ملكيتها فى النهاية على أنها ملك للحكومة المصرية ، فالاتفاق الذى عقده كارتر مع زيوار باشا رئيس الوزراء وحكومته فى ١٩٢٥ لم يتحمل تغير خمس حكومات متتالية فى السنوات الخمس التى أعقبته ، وفى عام ١٩٣٠ أعلنت حكومة النحاس باشا أنها لن تسمح بأن تغادر أى آثار البلاد ، ووعدت بتقديم مكافأة مالية لورثة كارنارفون .

وأثار التصرف فى مومياء توت عنخ آمون من الاحتكاك الدولى قدر ما أثارت الكنوز المحيطة بها . فقبل أن يموت كارنارفون أعرب عن رغبته فى أن يسمح لجسد توت عنخ آمون – ان هو اكتشف فى المقبرة – بأن يبقى فيها . وأصبحت المسألة موضع جدال دولى : ففى انجلترا وأمريكا كتبت رسائل إلى الصحف مع نقل الجسد وضده ، أينبغى أن تنقل المومياء للمحافظة عليها فى أمان المتحف أو تترك فى سلام فى مستقرها النهائى ؟ وفتحت «التايمس» أعمدة رسائلها للجدال . وأعرب رايدار هاجار عن نفوره من فكرة أن يكون المصير النهائى لتوت عنخ آمون هو «أن يرقد نصف عار ليتعفن فى صندوق زجاجى فى متحف القاهرة» . ولم يستطع البرلمان البريطانى أن يتجاهل مسألة تثير فضيحة دولية ، ووجهت الأسئلة مرارا فى مجلس العموم ليتم تفاديها بالرد بأن المسألة من شأن الحكومة المصرية ، وأسعد عضو البرلمان ويليم ليس المجلس بسؤال وجهه إلى رئيس الوزراء :

. . . . لو أنه تلقى طلبا من مواطنين مصريين بالسماح لهم بنبش مقابر ملوك بريطانيا وملكاتها فى وستمنستر آبى وغيرها ، ولو اشترط المتحف البريطانى أن تسلم له البقايا والتوابيت والأجساد الخ . . . وإذا قدمت طلبات بذلك فماذا يقترح أن يكون الرد عليها .

بل وردت أنباء من القاهرة بأن الملك چورچ كتب إلى السلطات المصرية معبرا عن أمله بألا توضع مومياء توت عنخ آمون للعرض فى القاهرة – وهى رسالة استقبلت محليا باعتبارها مثالا لتدخل الامبريالية البريطانية فى الشئون المصرية .

وأخيرا تقرر أن تبقى المومياء فى مقبرتها ، فقد كانت حالتها سيئة ، وخشى كارتر أن تزيد الرحلة الطويلة إلى القاهرة من تلفها ، فمناخ مصر العليا أقرب إلى حفظها من رطوبة الدلتا ، وبالطبع كانت الاقصر حريصة على الابقاء على مصدر جاذبيتها السياحية . وفى ٣١ اكتوبر ١٩٢٦ أعاد كارتر لف المومياء ، ووضعها فى التابوت الخشبى الخارجى ، الذى أدلى بعد ذلك إلى الضريح ، وسمح له بالبقاء حيث اكتشف .

لقد غير اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون مسار الآركيولوجيا فى مصر بلا رجعة . أولا لأنه خلق اهتماما عاما جديدا بالموضوع ، ففى أوروبا وأمريكا شارك مئات الآلاف من الناس فى الملحمة المستمرة لتطهير المقبرة ، إذ أبقت الصحف المسألة حية . ووجدت المتاحف شعبية جديدة لمقتنياتها المصرية ، ونقبت فى أدوارها الدنيا عن قطع يمكن أن تدعى صلتها بتوت عنخ آمون . وعرض متحف المتروبوليتان فى نيويورك الأشياء التى كان تيودور دافيز قد كشف عنها فى وادى الملوك ، والتى قادته إلى اعتقاد أنه وجد المقبرة ، واحتشد الجمهور لرؤيتها . واكتشفت جمعية نيويورك التاريخية بين آثار مجموعة آبوت خاتما أزرق من الخزف المزجج عليه علامة توت عنخ آمون وعرضته ، واصطف الناس فى طوابير حول المبنى لمشاهدته . وتدفقت آلاف الطلبات على مكتب البراءات فى الولايات المتحدة بماركات تجارية تجسد اسم «توت عنخ آمون» . ووجدت قبعات و(مايوهات) ومظلات وعصى توت عنخ آمون . وفى باريس ولندن ونيويورك انتابت بيوت الأزياء موجة مصرية من العمائم والأردية من طراز أقلام الرصاص ، وتصميمات تطريز من رسومات المقبرة .

ولم يكن اكتشاف توت عنخ آمون مجرد أغنى حدث فى كل تاريخ الآركيولوجيا

فى وادى النيل وأكثرها اثارة وأوسعها دعاية بل كان جسرا بين الحفر فى القرن التاسع عشر وفى القرن العشرين ، فحين بدأ كارنارفون البحث فى مصر كان مازال ممكنا لأرستقراطى انجليزى أن ينصح بأن يعمل فى مجال الآركيولوجيا للتغلب على الملل . وكان اللورد كرومر - الذى قدم النصيحة - أقوى فرد فى البلاد ، وكان المفترض أن تكون مصر شاكرة للخدمات التى تقدمها إليها طاقات المنقبين الاجانب . غير أن المناخ تغير أثناء الفترة التى عمل فيها كارتر وكارنارفون فى وادى الملوك . وفى الوقت الذى أعلن فيه الاكتشاف العظيم كانت مصر دولة مستقلة ذات سيادة ، غيورة على حقوقها فى التحكم فى أنشطة الأجانب ، وتحدى ادعاءاتهم بالتفوق . وقبل توت عنخ آمون كان مقبولا أن يكون القائم بالحفر هو المالك صاحب الحق - ان لم يكن فى الكنوز فعلى الأقل فى الاسرار التى كشفها ؛ يفصح عنها متى شاء وبالطريقة التى يريد . وأثار عقد الانفراد الذى وقعه كارنارفون بكل براءة مع «التايمس» التساؤل بشأن الحق فى بيع المعلومات عن ماضى مصر ، وبالتالى سلامة وجوده هناك أصلا . وكانت حصيلة التحديات التى طرحتها الحكومة المصرية فى وجه الحملة الاعلامية الصارخة التى أحاطت ببعثة توت عنخ آمون هى الاعتراف بأن الحفر فى مصر جميل تمنحه الحكومة المضيفة للخبراء الزائرين - وليس العكس .

لم تكن هناك شكوك فى أذهان بونابرت وعلمائه فى أنهم يؤدون رسالة حضارية فى مصر ، وأنهم ينقذون الوطنيين من المماليك ، ويكشفون للعالم الدور الرئيسى الذى لعبته حضارتها القديمة فى التطور . وأولئك الذين تابعوهم فى الحفر والتنقيب عن آثارها القديمة ، فعلوا ذلك لاثراء مجموعاتهم الخاصة أو متاحف العالم ؛ وحين أدرك المصريون القيمة الكبيرة لآثارهم ، كان رد فعلهم هو تحريك تجارة نشطة فيها . ومثلت متاحف أوروبا وأمريكا مرفأ منيعا تأمن فيه كنوز مصر القديمة من نهب المصريين المحدثين ، وكانت هذه المواقف لاتزال سائدة حين بدأ كارنا رفون بحثه . غير أنه فى النهاية بقيت كنوز توت عنخ آمون في مصر ، وظل جسد الملك مؤمنا فى مقبرته على يد حكومة مصرية مستقلة ، عازمة على أن تؤكد فى النهاية ملكيتها للآثار القديمة داخل حدودها ، وأن تتولى بنفسها المحافظة على تراثها القديم .

اغتصاب مصر

حتى منتصف القرن التاسع عشر كانت مصر أرضاً مباحة لهواة جمع الآثار الاوربيين ومدراء المتاحف الاوروبية المتنافسة، وكان الباحثون عن الآثار يساومون الفلاحين والتجار في مساومات قد تحسم بحد السلاح أحياناً الى ان تم تنفيذ القانون الذي يحظر تصدير الآثار ولكن هذا القانون لم يكن كافياً لردع اللاهثين في اوروبا وغيرها وراء الكنوز القبطية والفرعونية وغيرها من الآثار التي كانت تكتنز بها أرض مصر.

وهذا الكتاب يستعرض بالوقائع التاريخية والأسماء، كل الأساليب التي استعملها الطامعون بآثار مصر لتهريب كنوزها الى بلادهم والتي لا يزال عدداً كبيراً منها معروضاً بالسر والعلن في بلاد غريبة عن مصر وتاريخ مصر وتزين بها المتاحف والساحات والقصور الاوروبية.